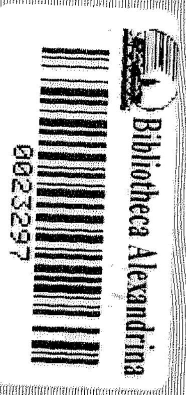
القيادة و الجندية في الإسلام

دكتور
محمد السيد الوكيل

الجزء الثاني

الجندية





٠ ٣٤٤

القيادة والجندية في الإسلام

الجندية

الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ـــ ١٩٨٦ م

الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ت ٢٤٢٧٢١/٣٤٢٧٢١/٣٥٦٢٢٠/٣٥٦٢٣٠

فرع المنصورة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص. ب ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24007

فرع القاهرة : ٤١ ش شريف ت ٧٤١٩٩٧ / ٧٥٤٦٠٦

القيادة والجندية في الإسلام

الجندية

دكتور
محمد السيد الوكيل

الجزء الثاني

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش.م.م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أكرم النبيين ، وأشرف المرسلين ، وقائد الغر المحجلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

تمهيد

قال الله - تبارك وتعالى - :

﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ﴾(١) .

﴿ ولله جنود السموات والأرض ، وكان الله عزيزا حكيما ﴾(٢) .

الجندية فى الإسلام هى الطرف الثانى الذى به قوام هذه الأمة والذى يشد أزر القيادة ويقويها ، ويدافع عنها ويحميها ، والجندية هى الدرع الواقى ، والحصن المنيع للإسلام والمسلمين .

والله - عز وجل - قد فرض الجهاد على المسلمين بنوعيه كليهما الدفاعى والهجومى على حد سواء ، وجعل فى الجهاد عز الدين وخير الدنيا ، فبه ارتفعت كلمة الله ، وعلا صوت الإسلام ، وبه جاءت الدنيا مرغمة للمجاهدين ، ودالت لهممهم دول الظلم والطغيان فجنوا خيراتها بحد سيوفهم ، وأذلوا طغاتها بحسن بلائهم ، وزلزلوا عروش الأكاسرة والقياصرة بتمسكهم بدينهم .

---

(١) سورة الصافات : الآية ١٧١ - ١٧٣ .

(٢) سورة الفتح : الآية ٧ .

ولقد عرفنا فى القسم الأول من هذا الكتاب حقوق القيادة وواجباتها ، وألقينا قبل ذلك نظرة سريعة على النظام السياسى فى الإسلام ضمناها الكلام على الإمامة والخلافة وكل ما يتعلق بذلك ثم تناولنا الشورى وبينا اختلاف وجهات النظر فى مدلولها ورجحت أنها ملزمة ، وأثبت ذلك بعد مناقشة آراء القائلين بأنها معلمة وللإمام أن يأخذ برأيه ولو خالف رأى مجلس الشورى .

كذلك تكلمت عن المجتمع الإسلامى ملامحه ومقوماته ، وعن الجماعة والعمل الجماعى موضحا من خلال ذلك مضار العمل الفردى .

والآن ونحن نتناول الجندية وهو القسم الثانى ينبغى علينا أن نفهم أن الجندية بمفهومها الشامل الذى سنتناوله فى هذا القسم لها حقوق وعليها واجبات ، وعلينا قبل الكلام عن ذلك أن نعرف ما المراد بالجندية ، وما الصفات التى يجب أن تتوفر فى كل جندى ، وما الوسائل التى يجب اتباعها لتحقيق النصر .

إن الجندية هى الجزء المتمم للقيادة ، وكلتاهما لا وجود لهما مالم يجتمعا ، فلا قيادة بدون الجندية ، ولا جندية بدون القيادة ، والله – عز وجل – لما أراد لهذه الأمة أن تكون من العالم بمنزلة الأستاذ ، وأن تحمل مشعل الهداية والنور للدنيا كلها لا لشعب دون شعب ، ولا لوطن دون وطن ، ولا لقوم دون قوم ، لما أراد الله لهذه الأمة تلك المكانة السامقة والمنزلة الرفيعة قضى ألا تبلغ ذلك إلا بهذا النظام المحكم – قيادة تنظم وتخطط ، وجندية تتلقى وتنفذ – .

وبهذا سادت الأمة الإسلامية ، واستطاعت أن تقهر كل جبار عنيد ، وتنشر الأمن والسعادة والاطمئنان والرخاء فى ربوع الأرض التى سيطرت عليها حتى عاش الناس جميعهم – مسلمهم وكافرهم – فى كنفها آمنين لا يروعهم ظلم حاكم ، سعداء لا يزعجهم اعتداء باغ ، مطمئنين لا يخافون بخسا ولا هضما .

هكذا سعدت الدنيا فى ظل الإسلام ، وهكذا تكون أبدا فى سعادة واطمئنان لو عادت إلى شريعة الإسلام .

والجندية فى الإسلام لابد أن تكون العاقبة لها ، والنصر معقودا بلوائها لأنها

موعودة بذلك من الله العلى القدير الذى لا يخلف الميعاد ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[1]

وهناك شروط لتحقيق هذا الوعد ، إذا راعتها القيادة ، ونفذتها الجندية تحققت لا محالة ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾[2] .

ولقد جرب المسلمون ذلك ، وعرفوا أنه حق لا يتخلف ، ويوم كانوا صادقين مع الله صدقهم الله وعده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ونحن لا يخامرنا شك ، ولا يساورنا ريب فى أن الله معز دينه وناصر جنده ، ويقيننا بذلك يزداد كلما أدلهمت الخطوب ، وتتابع البلاء ومهما بلغ اليأس من نفوس الناس فلا ينبغى أبدا أن يصل ذلك اليأس إلى نفوس المؤمنين ، فقديما قال الشاعر :

اشتدى أزمة تنفرجى ... قد آذن صبحك بالبلج

ويذكرنا الشاعر بذلك المعنى حين يقول :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكنت أظنها لا تفرج

فيا جند الله أبشرو بنصر الله ، ويا حماة الإسلام تهيئوا لموعود الله ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[3] .

والله أسأل أن يوفقنى للوفاء بما وعدت ، ويسددنى فيما قصدت وأن ينفع به المسلمين ، ويجعله فى ميزان حسناتى يوم الدين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دكتور
محمد السيد الوكيل

(١) الصافات : ١٧٣ .
(٢) سورة الروم : ٤٧ .
(٣) النحل : ١٢٨ .

الباب الأول

الفصل الأول

ملامح الجندية فى الإسلام

الجندية فى الإسلام تتميز بملامح لا توجد فى غيرها ،ولا يشاركها فيها جيش من الجيوش مهما كانت قدراته وخصائصه ، وتلك الملامح تبرز أشد ما تكون وضوحا فى حالة الجيش النفسية وروحه المعنوية ذلك لأن الجيش الإسلامى يستمد قوته دائما من الله – عز وجل – لا من السلاح الذى يملكه ، ولا من التدريب الذى يتقنه ، ولا من العدد الذى يتكون منه .

إن الميزة الأولى للجيش الإسلامى هى حسن صلته بالله وعظيم توكله عليه. فالجيش الإسلامى لم يكن يوما ما أكثر عددا من عدوه ، ولا أقوى عدة من خصمه ، ولا أحسن تدريبا ممن يتربصون به ، ومع ذلك كان يحقق انتصارات مذهلة ، فكيف ذلك ؟ .

إن أحدا من الناس مهما بلغ حقده لا يستطيع أن يقول. إن ذلك كان محض مصادفة لأن المصادفة لا تتكرر دائما ، وإلا لم تكن مصادفة ، ولا يستطيع أحد أن يقول إن الجيش الإسلامى حقق تلك الانتصارات بأسباب مادية فى مقدور أى جيش أن يحقق مثل هذه الانتصارات إذا استحوذ عليها ، لأن الجيش الإسلامى لم يملك قط من الأسباب المادية ما يجعله متفوقا بها على غيره .

تلك حقيقة لا يختلف فيها اثنان لأن الواقع التاريخى ، والأحداث المواكبة له شاهدان عدلان فى مثل تلك المواقف .

ونحن نسأل الذين يدعون ذلك أى معركة تلك التى كان الجيش الإسلامى متفوقا فيها على غيره ؟ .

ونريد منهم أن يذكروا لنا معركة واحدة ، وحينئذ نسلم لهم بما يدعون . إن الجيش الإسلامى حتى يوم كان يقاتل فى الجزيرة العربية ، ولم يخرج بعد منها كان فى أغلب المعارك على الثلث من جيش عدوه ، ففى غزوة بدر كان عدده ثلاثمائة وتزيد قليلا ، وكان يواجه ألفا من المشركين وفى غزوة أحد كان قوامه سبعمائة مقاتل وتصدى لثلاثة آلاف وفى غزوة الأحزاب كان المسلمون ثلاثة آلاف يواجهون عشرة آلاف وهكذا فى كل المعارك التى خاضها ضد أعدائه .

ولما كثر عددهم فى غزوة حنين ، واعتمدوا على كثرتهم ، وظنوا أنهم لن يهزموا لوفرتهم كانت الهزيمة ، وكان التولى ، وتركوا رسول الله ﷺ فى الميدان ومعه قلة من أصحابه ، وعلى يد هذه القلة جاء نصر الله .

وكان ما كان فى غزوة حنين ليعلّم المسلمين أن قوتهم ليست فى كثرتهم وأن اعتمادهم على الكثرة سيؤدى بهم لا محالة إلى الهزيمة والخذلان ، فعليهم أن يحسنوا صلتهم بالله ، وألا يعتمدوا على سواه حتى يتحقق لهم النصر على أعدائهم .

إن حسن الصلة بالله – عز وجل – يعطى الجيش قوة معنوية لا يقدرها إلا الذين يعيشون فى هذا المجال الربانى الكريم ، إن الله قوى لا يغلبه غالب ، عزيز لا تقهره قوة ، وحسن الصلة به يدخل المؤمنين فى دائرة العزة والغلبة ، فيشملهم الله بعنايته ، ويكلؤهم برعايته ، فلا تتغلب عليهم قوة ، ولا ينتصر عليهم عدو ، وذلك هو ما كان بالنسبة للمسلمين فى معاركهم مع عدو الله وعدوهم .

إن المسلمين وهم يقاتلون أعداءهم ، لا يقاتلونهم لغرض السيطرة عليهم ولا يقاتلونهم لاستعبادهم واستذلالهم ، ولا يقاتلونهم لاستلاب أرزاقهم واستغلال خيرات بلادهم ، إنما يقاتلونهم لإعلاء كلمة الله ونصرة دين الله ، ونشر الدعوة فى أرض الله ، لهذا كان الله – عز وجل – معهم وكان لزاما أن ينتصروا على عدو الله وعدوهم .

وجميل التوكل على الله ، معناه التفويض والاستسلام لأمر الله ، والله – تبارك وتعالى – لا يسلم من فوض أمره إليه ، ولا يخذل من استسلم له ، لأن

ذلك الفعل قبيح لا يليق بجلاله وكماله ، وهو - عز وجل - قد وعد المؤمنين به النصر ، ووعده لا يتخلف ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[1] .

على أنه ينبغى أن ننبه على أن حسن الصلة بالله وجميل التوكل عليه - سبحانه - يجب أن يكون صفة ملازمة للجيش فى سلمه وحربه ، وحله وترحاله ، وليله ونهاره ، حتى يستأهل بذلك النصر ، أما أن يلجأ إلى ذلك عند الكرب ، وفى حالة إحاطة العدو به ، فذلك ليس شأن المؤمنين ، نعم ، إن اللجوء إلى الله فى وقت الكرب مطلوب ، والتضرع إليه - جل شأنه - عند النوازل مما يقرب فرجه ، ولكن حسن الصلة به فى الرخاء ، يجعل نصره أقرب ما يكون منك فى الشدة ، والتوكل عليه - جل جلاله - فى السراء يجعل عونه معك فى الضراء .

وفى الحديث الشريف : « تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة »[2] .

إن حسن صلتك بالله - تبارك وتعالى - وجميل توكلك عليه فى وقت يسرك ورخائك ، دليل على مداومة ذكره ، ومداومة الذكر تقرب وتودد إلى الله يحبه ويرضاه من عباده ، بل هو - سبحانه - هو الذى أمرهم به ، وحثهم عليه .

قال - تبارك وتعالى -: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾[3] .

ذلك لأن المسلم مادام يذكر الله ، فالله - عز وجل - يذكره ولا ينساه ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾[4] .

---

(١) سورة غافر : الآية ٥١ .
(٢) رواه ابن بشران فى أماليه ورمز له السيوطى بدرجة حسن .
(٣) سورة الأحزاب : الآية ٤١ ، ٤٢ .
(٤) سورة البقرة : الآية ١٥٢ .

وبالطريقة نفسها التى تذكر الله بها يذكرك - جلا وعلا - يقول سبحانه - فى الحديث القدسى : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه »[1] .

فالصلة بالله تجعل المرء دائما فى كنف الله ، ومن كان فى كنف الله لا يغلبه غالب ، ولا تهزمه قوة .

الميزة الثانية للجيش الإسلامى أن النصر معقود بلوائه ، فلا يهزم إلا بمعصية أو مخالفة ، لأن الله - تعالى - قد ضمن له النصر مادام فى طاعة الله ، وهذا هو السر فى الانتصارات المتوالية التى حققها المسلمون فى الجزيرة العربية وخارجها ، ولهذا لما تأخر النصر فى إحدى المعارك كتب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى الجيش يأمره بالاستغفار والتوبة ، ويطلب من الجنود الإقلاع عن المعاصى وقال : « إننى أخاف عليكم من ذنوبكم أكثر مما أخاف عليكم من عدوكم » .

ذلك لأن العدو مهما كانت قوته وكثرته ، ومهما كان عدده وعتاده فإنه لن يغلب الله - سبحانه - ولأن العدو حينما يحارب المسلمين إنما يحارب جند الله ، وجند الله هم الغالبون .

وأما الذنوب فإنها تبعد الجيش عن ساحة نصر الله ، وتدنيه من الهزيمة لأننا إنما ننتصر بالطاعة ، فإذا ارتكبت المعاصى لم يكن هناك فرق بين المسلمين وغيرهم ، وكان للعدو فضل الكثرة فى العدد والقوة فى التدريب ، و التفوق فى العتاد ، فلا بد أن تكون الغلبة له ، لأننا والحالة هذه قد تخلينا عن أسباب نصرنا .

إننا نحن المسلمين نعتقد أن النصر من عند الله ، يمنحه من يشاء من عباده المؤمنين ، وما علينا إلا أن نتخذ الأسباب المؤدية إليه ، لأن ترك الأسباب تفريط

---

(١) رواه الشيخان .

نهى عنه الإسلام ، وتواكل لا يليق بالمؤمنين الواعين ، ألم تر إلى ذلك الأعرابى الذى جاء إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، ناقتى بالباب أأتركها وأتوكل ، فقال الرسول ﷺ : « اعقلها وتوكل »[1] .

والحديث وإن قيل بضعفه إلا أن له شواهد كثيرة تقويه كقول الصحابة للرسول ﷺ مادام الله قد كتب علينا كل شىء ففيم العمل ؟ فقال ﷺ : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له »[2] .

وقول الله – تبارك وتعالى – لمريم وهى نفساء : ﴿ وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ﴾[3] .

فقد أمرها الله – سبحانه – باتخاذ الأسباب ليسقط عليها الرطب فتأكل وذلك يكون بهز الشجرة ، وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

توكل على الرحمن فى الأمر كله ... ولا تقعدن بالعجز يوما عن الطلب
ألم تر أن الله أوحى لمريم ... وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزه ... جنته ولكن كل شىء له سبب

فاتخاذ الأسباب ضرورى فى الإسلام ، ونحن مطالبون به ، فمن قعد ولم يتخذ الأسباب فهو مخالف مخالفة صريحة لتعاليم الإسلام .

ولهذا كان عمر – رضى الله عنه – ينهى المسلمين عن التواكل بقوله : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارزقنى ، وهو يعلم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » .

ولما زعم بعض الناس أن التوكل وترك الأسباب ليس مخالفا لتوجيهات الإسلام ، واستدلوا على ذلك بقول الرسول ﷺ : « لو أنكم توكلون على الله – تعالى – حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا ، وتروح بطانا »[4]

---

(١) رواه الترمذى ورمز له السيوطى بالضعف .
(٢) رواه الطبرانى فى الكبير .
(٣) سورة مريم : الآية ٢٥ .
(٤) رواه أحمد فى المسند .

رد عليهم ذلك الفهم السقيم بما جاء فى الحديث نفسه من قوله ﷺ « تغدو خماصا وتروح بطانا » ولا شك أن غدوها ورواحها سعى فى طلب الرزق ولو لم تغد وتروح ، وبقيت فى عشها لما امتلأت بطونها .

فاتخاذ الأسباب أمر تحتمه شريعتنا ، وعلى المسلمين القادرين أن يلتزموا به ، فشراء الأسلحة واستحداثها ، والتدرب عليها واستعمالها شيء ضرورى للجندى المسلم ، وقد أمر به الله – سبحانه وتعالى – فى قوله الكريم : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ﴾[1] .

ولكن لا ينبغى أن يعتمد المسلمون على ذلك ، ولا يجوز أن يعتقدوا أن هذه الأسباب هى تجلب النصر أو تدفع الهزيمة ؛ بل يجب أن يؤمنوا بأن النصر من عند الله وأن هذه وسائل وأسباب قد يأتى معها النصر وقد لا يأتى .

ولكى يثبت القرآن هذا المعنى فى قلوب المؤمنين قال – تعالى – بعدما أمر بالاستعداد ، واتخاذ القوة : ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾[1] .

فهذه الأسلحة ، وذلك التدريب للإرهاب لا لجلب النصر ، وحتى الملائكة الذين نزلوا للقتال مع المسلمين فى غزوة بدر لم يجلبوا نصرا ولم يردوا هزيمة ، ولكن كان نزولهم بشرى للمؤمنين ورفعا لمعنوياتهم قال – تعالى – : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ، وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾[2] .

ولعل القارىء الكريم يلاحظ أنى كررت هذا المعنى فى أكثر من موضع بل فى أكثر من كتاب[3] لأنه أمر مهم يجب أن يفهمه المسلمون ، ولا يجوز أن يغيب عن أذهانهم لحظة من اللحظات .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٠ .
(٢) سورة الأنفال : الآية ٩ ، ١٠ .
(٣) مثل كتاب هذا الدين بين جهل أبنائه وكيد أعدائه ، والقيادة والجندية القسم الأول وغيرهما .

وإننى أعتقد أن غياب هذا المعنى عن قلوب المسلمين هو الذى ألقى الرعب فى قلوبهم من أعدائهم ، بل هو الذى أذلهم فى بلادهم ، وجعلهم نهبا وفريسة لأوهامهم .

إن المسلمين إذا آمنوا بتلك الحقيقة ، وأعدوا ما يستطيعونه لعدوهم ثم اعتمدوا على الله فى حربهم ، لابد أن يحقق الله لهم وعده ، وهو - سبحانه - لا يخلف الميعاد .

ترى كم فى الإيمان بذلك المعنى من دوافع تجعل المسلمين لا يرهبون عدوا ، ولا يخافون من الحرب ؟ وكم فى الإيمان به من قوى معنوية تجعل المسلمين أكثر ثقة بأنفسهم ، وأشد اطمئنانا للنتائج ؟ .

على أنه لا يكفى الإيمان النظرى بتلك الحقيقة ، بل يجب أن يتحول ذلك الإيمان النظرى فى صدور المؤمنين إلى تطبيق عملى يقتحمون به المعارك ، ويردون به اعتداء المعتدين .

إن سلفنا الصالح - رضوان الله عليهم أجمعين - كانوا يقدمون على مواجهة أعدائهم وهم مؤمنون بنصر الله أشد من إيمانهم بوجودهم ، فكانوا لا يشكون فى ذلك لحظة ، ولا يسمحون للشك مهما قويت أسبابه بالتسرب إلى نفوسهم ، وهذا الإيمان هو الذى جعلهم لا يرهبون عدوا ، بل هو الذى دفعهم إلى أن يسيروا لمواجهة عدوهم فى بلاده دون أن يفكروا فى الهزيمة أو يرد ذكر الهزيمة على ألسنتهم .

ولعل الحوار الذى كان يدور بين المسلمين وبين أعدائهم يؤكد لنا ذلك المعنى ، ويصور لنا مقدار اليقين الذى كان فى قلوب المؤمنين ، وسأعيد صورا من هذه الحوادث ليلمس القارىء كم كانت درجة هذا اليقين فى قلوب المسلمين .

فى معركة القادسية لما اضطر رستم قائد الفرس الأعظم إلى مواجهة نزل بكُوثى - مكان قريب من الحيرة - فجىء له برجل من العرب .

سأل رستم العربى فقال : ما جاء بكم وماذا تطلبون ؟

وأجاب العربي – المسلم – فقال : جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تسلموا .

قال رستم : فإن قتلتم قبل ذلك ! .

قال المسلم : من قتل منا دخل الجنة ، ومن بقى منا أنجزه الله ما وعده ، فنحن على يقين .

قال رستم : قد وضعنا إذن فى أيديكم ! .

قال المسلم : أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها ، فلا يغرنك من ترى حولك ، فإنك لست تحاول الإنس ، إنما تحاول القدر .

وهنا ضرب رستم عنق المسلم[1] .

وتلك حيلة المفلس المذعور ، إن قتل ذلك المسلم لن يؤثر فى جيش المسلمين ، ولن يرهبهم ، وأغلب الظن أن رستم قتل ذلك المسلم لما وجد فى حديثه من الصدق والإيمان ، فخاف أن يرهب جنوده ، ويدب فيهم الوهن فلا يستطيعون لقاء المسلمين ، فقتله آملا أن يحول بين هذا الحديث المملوء بالثقة واليقين بنصر الله وبين آذان جنوده محاولا بذلك أن يرفع من معنويات جنوده بإظهار قوته وعدم مبالاته ولكن هيهات .

تلك صورة من صور عديدة تؤكد إيمان المسلمين بنصر الله لهم على عدوهم ، وهم بهذا الإيمان كانوا يحرزون النصر ، وبه كانوا لا يرهبون الموت ، وكانوا لا يخشون فى الله لومة لائم .

الميزة الثالثة أن الجندى المسلم يقاتل لنشر الدعوة ، وإقامة العدل ومحو الظلم والطغيان ، وتلك خصيصة لم تعرف قبل الجيش الإسلامى ولا بعده على مدى التاريخ .

فمهمة الجنود المسلمين هى الدعوة إلى الله فمن قبلها قبلوا منه وتركوه

---

(١) ابن الأثير : ٢/٤٥٩ .

وبلاده ورجاله وأمواله ، ومن رفضها وأصر على أن يظل على دينه ، فعليه أن يظهر ولاءه وعدم عداوته لهذا الدين بدفع مبلغ رمزى من المال يعلن به حسن نيته وعدم معارضته ، فإن أبى فليس هناك معنى لهذا الإباء إلا العداوة المعلنة للحق وأهله ، وليس لأمثال هؤلاء علاج إلا السيف ، فهذه الرءوس التى صدعها الشرك ، وتلك الأدمغة التى أفسدها الكفر ليس لها إلا أن تستريح من هذا الصداع ، وصدق الشاعر حين يقول :

وسيفى كان فى الهيجا طبيبا   يداوى رأس من يشكو الصداعا

إن الجيش الإسلامى لم يفتح البلاد من أجل خيراتها ، ولم يرغب فى استغلال ثرواتها أو استعباد أبنائها ، وإنما خاض المعارك وتحمل المشقات ، وبذل الأرواح والأموال من أجل هداية الناس وسعادتهم .

ونحن لم نسمع قط عن أمة جهزت جيشا ، وأنفقت عليه من حر أموالها ، وجندت فيه خيرة شبابها ، وأمرت عليه الأفذاذ من قوادها لترغم الناس به على قبول سعادتهم ، وتدلهم على سبل الخير والهداية فى حياتهم وآخرتهم .

إن أقصى ما يفعله المصلحون هو بذل النصيحة ، وتقديم الخير للناس عن طريقها ، وهم بذلك يكونون قد أعذروا ، وأدوا ما عليهم نحو أممهم وشعوبهم ، وهم بهذا القدر يدخلون التاريخ من أوسع أبوابه ، وينالون جزاء هذا البذل ثناء الناس العاطر ، وشكرهم الجزيل .

فماذا إذن يكون جزاء هؤلاء الذين ضحوا بأنفسهم وأموالهم وخرجوا من ديارهم وأبنائهم يحملون للناس الخير ، ويهدون لهم السعادة والهناء ؟؟

إن الإنسان ليعجب أشد العجب من رجل يدعو الناس إلى الخير حينما يراه يتفطر قلبه لعدم استجابتهم ، ويسيل دمعه لشرودهم وإبائهم ، فكيف يكون الحال حينما يرى رجلا يندفع إلى الموت لينقذ غيره ؟

تلك هى حقيقة الأمر للجنود المسلمين ، كان الرجل يخرج بنفسه ، ويحمل ماله ، ويهجر أهله وعياله ، ليدعو الناس إلى الحق والخير اللذين آمن بهما ، ويبلغ الأمر إلى حد القتال والموت لحرضه على إدخال الناس فى دين الله ،

لقد كانت تكفيه الكلمة ، حين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويكون قد أدى واجبه نحو دينه .

نعم لقد كان يكفيه أن يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر إذا لم يكن هناك طواغيت يصدون الناس عن الدين الحق ، ويصرفونهم عن متابعة الهدى ، أما وقد وجد الطواغيت ،ووقفوا للدعوة بالمرصاد ، وحالوا بين الناس وبين النظر فيها ، وحملوا السلاح دفاعا عن الباطل الذى اعتنقوه لم يكن هناك بد من القتال ، لأن الكلمة الطيبة لا تجد مكانها بين قعقعة السيوف وفرقعة البارود ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يغنى شيئا فى زحمة الميدان ، وتزاحم المقاتلين .

وفى مثل هذه الظروف يشعر الجندى المسلم بثقل التبعة ، وضخامة المسئولية ، فيحمل سلاحه ، ويسرع إلى الميدان ، ويخوض المعارك ليمهد الطريق ويزيل الطواغيت ، ويمنح العقل البشرى حرية التفكير فى هذا الدين الجديد حتى يدخل فيه عن بينة أو ينصرف عن سفاهة وحمق .

إن المسلمين لم يحاربوا قط لاحتلال الأرض ، ولا للسعى على الرزق ، ولا لاستعباد الناس[1] وإنما كانوا يحاربون ، ويتحملون المصاعب والمشقات من أجل إسعاد الناس وإدخالهم فى الخير الذى دخلوه ، وشعروا بقيمته ، وأدركوا حرمان الناس منه لعدم فهمهم له .

لم يكن المسلمون أنانيين يحبون الخير لأنفسهم ، ويكرهونه لغيرهم وإنما كانوا حريصين على أن يعم ذلك الخير كل الناس ، فلا يحرم منه أحد وكان عليهم لتحقيق ذلك أن يعرضوا دينهم على الناس فإن قبلوه وإلا فليحملوا عليه حملا ولو أدى ذلك إلى الاشتباك المسلح .

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا ... فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

ومثلهم فى ذلك كمثل الطبيب الماهر الذى وضع المريض أمانة بين يديه ، ولم ير له علاجا إلا ببتر عضو من أعضائه ، فماذا ترونه صانعا ؟ .

---

(١) يراجع ذلك بالتفصيل فى كتابنا (هذا الدين بين جهل أبنائه وكيد أعدائه) .

هل تأخذه الشفقة على المريض فيدعه دون أن يبتر ذلك العضو الذى سيؤدى إلى موته وهلاكه ؟ فهو إذن غير أمين .

أم يخشى عليه من التشويه ، ويتغاضى عما به من الآلام ، وتكون النتيجة الحتمية هى الموت والهلاك ؟ فهو إذن قاتل أثيم .

لابد حينئذ من البتر مهما تألم المريض ، ولابد من الاستئصال مهما تشوه ، لأن الألم سيعقبه راحة وهدوء ، والتشويه سيترتب عليه الحياة ولا شك أن المريض نفسه يتشوق إلى الراحة والهدوء وإن لم يعرف طريقهما ويأمل فى الحياة وطول البقاء وإن جهل أسبابهما .

ولا شك كذلك أن المريض سيكره على ذلك إكراها ، وقد يتقبله مرغما حتى إذا ما استرد صحته ، ونعم بالراحة والهدوء سيحمد للطبيب ما فعل وسيعترف بجهله وحمقه حين كان يصر على عدم البتر ، ورفض العلاج .

هذا هو مثل المسلمين وهم يحملون الناس حملا على الدخول فى الإسلام فهل تراهم يريدون بهم إلا الخير ، أو يكنون لهم إلا الحب والإصلاح ؟ .

وليحكم التاريخ بيننا وبين أولئك الذين يزعمون أننا نحارب من أجل السيطرة والتسلط ، أو نقاتل من أجل إجبار الناس وإكراههم على الدخول فى الإسلام .

هذا حوار يرويه الثقات من المؤرخين دار بين رستم أعظم رجال الفرس بعد كسرى ، وبين أحد قواد المسلمين -- زهرة بن الحوية - يسأل رستم زهرة فيقول : أرأيت إن أجبت إلى هذا - يعنى الإسلام - ومعى قومى ، كيف يكون أمركم ؟ أترجعون ؟ .

ويجيب زهرة : إى والله .

فيقول رستم : صدقتنى[1] .

---

(١) الكامل لابن الأثير : ٤٦٢/٢

وصورة أخرى لحوار دار بين رستم نفسه وبين ذوى الرأى من المسلمين ، وقد أرسلهم سعد بن أبى وقاص قائد المسلمين ليحاجوه لعلهم يقنعونه بالإسلام ، فلما دخلوا عليه قالوا له : إن أميرنا يدعوك إلى ما هو خير لنا ولك ، العافية أن تقبل ما دعاك إليه ، ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك ، وداركم لكم ، وأمركم فيكم ، وما أصبتم كان زيادة لكم دوننا ، وكنا عونا لكم على أحد إن أرادكم ، فاتق الله ، ولا يكونن هلاك قومك على يدك ، وليس بينك وبين أن تغبط بهذا الأمر إلا أن تدخل فيه ، وتطرد به الشيطان عنك[1] .

وفى كلا الحوارين نجد أن المسلمين مستعدون للعودة إلى بلادهم إذا دخل القوم فى دين الله ، ونرى أكثر من ذلك ، نرى أن رستم نفسه يصدق هذا القول ولا يكذبه ، وذلك دليل على أنه كان يعرف الغاية التى كان المسلمون يجاهدون من أجلها .

ونرى فى الحوار الآخر زيادة توضيح لمن لم يفهم الإشارة الأولى فالمسلمون فيه يقولون لرستم إذا قبلت ما دعوناك إليه رجعنا إلى بلادنا ، وترجع أنت كذلك إلى بلدك ، وتكون بلادكم لكم لا نشارككم فى حكمها ، ويكون أمركم فيكم لا ننتزع الحكم من أيديكم ، بل وأكثر من ذلك إذا اعتدى عليكم معتد كنا عونا لكم عليه حتى نقهره .

فالمسلمون إذن لم يحاربوا للسيطرة وقهر الناس واستعبادهم ، ولم يحاربوا لاستغلال الخيرات وانتزاعها من أيدى أصحابها ، وإنما كان قتالهم من أجل هداية البشرية ، وإرغامها على قبول الخير الذى لم تدرك قيمته بسبب التضليل الذى خدعها به زعماؤها وأولو الأمر من رجالها .

هذه هى أبرز ملامح الجندية الإسلامية ، وليست كل ملامحها ، أردت بذكرها تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التى يكيد بها الأعداء للإسلام وبنيه ، حتى يحذرها المسلمون فلا ينخدعوا بها ، وخاصة وأنها تصدر عن رجال لهم حظوة

---

(١) نفسه ٤٦٦ – ٤٦٧ .

فى المجتمعات ، ولهم منزلة علمية فى الجامعات ، وأصبحوا فى نظر الناس أصحاب الكلمة العليا فى هذا المجال .

كذلك أردت بها التمهيد لما سيأتى بعد من الدراسة حتى يربط القارىء بين سر هذا التفوق ، وبين العوامل التى كانت تصحبه دائما من استقرار النفوس ، واطمئنان السكان ، وإقامة العدل ، والمساواة بين جميع الناس على حد سواء .

إننا إذا أدركنا مدى صلة الجيش بربه ، وجميل توكله عليه أدركنا على الفور سر الانتصارات المذهلة التى أحرزها المسلمون ، لأن الجيش حينئذ يكون متصلا بمصدر إمداداته ، معتمدا على قوة لا تغلب .

وإذا علمنا أن المعاصى هى السر فى هزيمة الجيش ، ورأينا أن المسلمين كانوا فى انتصارات متوالية عرفنا أنهم كانوا بعيدين عن كل ما يغضب الله وهذا هو السر فى استقرار النفوس ، واطمئنان السكان إلى الجنود الفاتحين لأن اضطهاد الناس يسبب لهم قلقا نفسيا خطيرا ، وظلم السكان يحدث لهم اضطرابا سيئا ، وهذا مما يغضب الله لهذا يبتعد عنه المسلمون .

وإذا كانت الفتوحات لنشر الدعوة وهداية الناس وإسعادهم أدركنا سر إقامة العدل والمساواة بين الأمم التى حكمتها الدولة الإسلامية لأن الدين قائم على العدل ، وهداية الناس تقتضى المساواة بينهم .

وهكذا ندرك عند الدراسة الواعية مالم يدركه غيرنا لحرمانهم من هذا الفهم السليم .



الفصل الثانى

كيف نربى الشباب فى ظل الإسلام ؟

الشباب هم جنود الإسلام ، وهم الذين على سواعدهم يقوم بناء الأمم ويرتفع شأنها ، وإنما تفخر الأمم بشبابها العاملين المناضلين ، لأنهم هم الذين يتحملون العبء الأكبر من النهوض بها وتدعيم حضارتها ، وتشييد صرح مجدها .

ونحن إذا تأملنا الصحوة الإسلامية الضخمة التى أحدثها الإسلام فى الجزيرة العربية إبان ظهوره نجد الذين التفوا حول الرسول ﷺ كانوا شبابا ، وهم الذين آزروه وأيدوه ، وهم الذين تحملوا كل ألوان العذاب فى سبيل الله والإسلام .

فالرسول ﷺ نفسه كان شابا فى عنفوان شبابه يوم أن اصطفاه الله – عز وجل – لحمل هذه الرسالة المباركة ، فالمؤرخون مجمعون على أنه كان فى سن الأربعين ، وتلك هى الفترة الخصبة المبدعة فى عمر الشباب ، كذلك كان أبو بكر – رضى الله عنه – فى السابعة والثلاثين من عمره ، وأما عمر فكان فى السادسة والعشرين ، يوم البعثة ، ودخل فى الإسلام وهو لم يتجاوز الواحدة والثلاثين ، وعثمان كان يوم دخل الإسلام قلبه فى الخامسة والثلاثين ، وأما على بن أبى طالب فكان فى الثانية عشرة من عمره على أرجح الأقوال ، وقس على ذلك بقية الأصحاب الأبرار .

ويحدثنا التاريخ عن ابنى عفراء الصبيين الحدثين وعن موقفهما من أبى جهل يوم بدر كما يذكر لنا بكل اعتزاز وفخر ثلة من الشباب تتراوح أعمارهم بين الحادية عشرة والرابعة عشر ، جاءوا يتنافسون للالتحاق بالجيش الإسلامى يوم أحد .

منهم عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن أرقم ، وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدرى ، والبراء بن عازب ، وعرابة بن أوس ، وعمرو بن حزم ، وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج .

لا عجب والحالة هذه أن يهتم الإسلام بتربية الشباب ، وأن يولهم العناية الكافية ، لينشئوا على كريم الأخلاق ، ومحامد الصفات ، ويغرس فى قلوبهم العقيدة الصحيحة التى تذلل لهم العقبات ، والإيمان الصادق الذى لا تزلزله المحن ، ويدربهم التدريب الجيد لكى يتعودوا الصبر عند ملاقاة الأعداء .

لهذا وغيره وضع الإسلام المنهج اللازم لتربية الشباب والعناية بهم .

والإسلام لا يهتم بالطفل منذ ولادته فقط ، ولا بعد أن يصير شابا يافعا بل يعتنى به حتى قبل ولادته .

فالرسول ﷺ يأمر من يريد أن يتزوج بأن يختار الزوجة لأنها الوعاء الذى نستحفظه أبناءنا ، والمحضن الذى تربى بواسطته أفلاذ أكبادنا يقول ﷺ : « تخيروا لنطفكم فأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم »[1] .

ثم يعلمنا ﷺ كيف نختار الزوجة ، مبينا الصفات التى من أجلها يرغب الناس فى الزوجات ، ثم يحث على اختيار الزوجة المؤمنة ، فيقول : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك »[2] .

فالزوجة التى رشحها الرسول ﷺ لتكون زوجة للمؤمن هى ذات الدين ، ولا بأس بأن يجمع مع الدين المال والجمال والحسب أو شىء منها ، ولكن الشىء الذى لا يجوز أن نتنازل عنه مطلقا هو الدين ، لأنه المرشح الوحيد للمرأة بأن تكون زوجة للمؤمن بمعنى أنها لو فقدت المال أو الجمال أو الحسب كفاها دينها أن تكون مقدمة لدى المؤمنين على غيرها .

أما أن يخطب المؤمن للجمال فقط أو للمال فقط فذلك ما نهى عنه

---

(١) رواه ابن ماجة والحاكم والبيهقى فى السنن .

(٢) رواه الشيخان .

الرسول وحذر منه المؤمنين . قال ﷺ : « لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن – أى يهلكهن – ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل »[1] .

فإذا وجد المؤمن الزوجة الجميلة التى تسره إذا نظر ، العاقلة التى تطيعه إذا أمر ، المؤمنة التى تحفظ غيبته فقد جمع الخير كله ، ولهذا بين الرسول أن المرأة التى تجمع هذه الصفات هى خير النساء ، فكأنه يحث المؤمنين على البحث عن هذا النوع من النساء .

يقول ﷺ : « خير النساء التى تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها بما يكره »[2] .

هكذا يجعل الإسلام موضوع الزواج من الأهمية ، ويوجه أنظار الرجال إلى الطريق السوى لاختيار الزوجة ، ويحيط الزوجة بسياج قوى من الصفات التى تحقق الغاية من الزواج ، لأن الزواج فى الإسلام ليس لمجرد المتعة وقضاء الوطر ، وإنما هو إلى جانب ذلك وسيلة لحفظ النوع ، وتكثير النسل ، وأسلوب طاهر من أساليب تنمية المجتمع ، وتقوية الروابط بين الأسر .

قال – تعالى – : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾[3] . والآية الكريمة تشبه الزوجات بالأرض التى يشقها الفلاح ليضع فيها البذر لتنتج له الزرع ، هكذا شأن الزواج فى الإسلام ، أما الذين يريدون الاستمتاع فقط ، وقضاء الوطر لا غير ، فإنهم قد يجدون ذلك فى غير الزواج ، ولهذا يعرض أمثال هؤلاء عن الزواج لما فيه من المسئولية والتبعة ، ويستمتعون بغير زوجة ويقضون وطرهم كيفما اتفق ، كما هو شائع الآن فى كل المجتمعات إلا من رحم ربى .

ولكن لماذا يهتم الإسلام كل هذا الاهتمام بالزوجة ، ويضع كل هذه الشروط فى المرأة ، ويحذر من مخالفة ذلك تحذيرا شديداً ؟ .

---

(١) رواه ابن ماجة

(٢) رواه احمد فى المسند والنسائى فى السنن .   (٣) سورة البقرة : الآية ٢٢٣ .

ليس هناك إجابة عن هذا السؤال إلا بأن الزواج رباط متين يربط بين الزوجين ، ويحملهما المسئولية لبناء أسرة قوية تزيد بناء المجتمع صلابة وتشد بعضه إلى بعض ، والإسلام يرى أنه إذا لم تتحقق هذه الشروط يكون الرباط واهيا ، وتكون الأسرة معرضة للانهيار ، حيث لا توجد الضمانات التى تمكن من استمرارية الترابط بين أفراد الأسرة ، وأخيراً فإن الزوجة كما أشرت سابقا هى المحضن الذى نستودعه أبناءنا ، ونستأمنه على تربيتهم وصياغتهم على الشكل الذى نحبه لهم .

والإسلام عندما يشدد فى اتباع هذه الشروط ، ويؤكد على المحافظة عليها يدل بذلك على اهتمامه بالوليد الذى سيكون من هذين الأبوين .

فإذا حملت المرأة فإن الإسلام يعتنى بهذا الجنين ، ويحيطه بالعناية والرعاية ، فلا يكلف المرأة مالا تطيق ، ويبلغ الأمر إعفاءها من بعض الفرائض التى فرضها الله على المسلمين الذكر والأنثى على حد سواء ، ذلك لأنها إن خافت على جنينها وأدركها شهر رمضان فإنها يسقط عنها الصوم ، وتطعم عن كل يوم مسكينا كما أفتى بذلك ابن عباس وابن عمر - رضى الله عنهم أجمعين - .

روى أبو داود عن عكرمة ، أن ابن عباس قال فى قوله - تعالى - : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية ﴾ كانت رخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة ، وهما يطيقان الصيام أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم مسكينا ، والحبلى والمرضع إذا خافتا - يعنى على أولادهما - أفطرتا وأطعمتا .

ورواه البزار ، وزاد فى آخره : وكان ابن عباس يقول لأم ولد له حبلى : « أنت بمنزلة الذى لا يطيقه ، فعليك الفداء ، ولا قضاء عليك » وصحح الدار قطنى إسناده .

وروى نافع أن ابن عمر سئل عن المرأة الحامل إذا خافت على ولدها فقال : « تفطر ، وتطعم مكان كل يوم مسكينا مدا من حنطة » رواه مالك والبيهقى .

كذلك يحرم عليها الإسلام أن تجهض نفسها لتسقط ولدها كما يمنع الزوج من ذلك فإن فعلت الأم أو الأب شيئا من ذلك فإثمهما كبير وذنبهما عظيم ، أما

إذا كان الحانى على الجنين غير الأب أو الأم فإن عليه دية ذلك الجنين غرة عبداً أو أمة .

فإذا وضعت الأم ولدها فعليها رعايته ونظافته ، وإرضاعه وحمايته ، وعلى الأب النفقة عليه والاهتمام به ، وعليه أن يعق عنه - أى يذبح عنه ذبيحة - فى اليوم السابع من مولده ، فيتصدق بثلثها ، ويهدى ثلثها ، ويأكل ثلثها ، وعلى الأب ألا يلطخ رأس المولود بدم العقيقة كما يفعل كثير من الناس لأنها عادة جاهلية ممقوتة ، وفيها تقذير للطفل وتشويه له .

وإذا مرض الطفل أو تأذى بشىء على الوالد معالجته حتى يزيل عنه ما به من المرض والألم فقد سئل رسول الله ﷺ أفنتداوى ؟ قال : « نعم ، يا عباد الله تداووا ، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء ، غير داء واحد - الهرم - »[1] .

فإذا بدأ الطفل يعى ، ويفهم ما يوجه إليه ، أخذ أبواه فى تعليمه الصفات الحميدة ، والأخلاق الفاضلة ، كالصدق والأمانة والشجاعة وغيرها من الأخلاق التى يجب أن يلقنها الطفل حتى ينشأ ويشب عليها .

فعن عبد الله بن عامر - رضى الله عنه - قال : دعتنى أمى يوما ، ورسول الله ﷺ قاعد فى بيتنا ، فقالت : ها تعال أعطك .

فقال لها الرسول ﷺ : « ما أردت أن تعطيه ؟ » .

قالت : أردت أن أعطيه تمرا .

فقال لها ﷺ : « أما إنك لو لم تعطه شيئا كتبت عليك كَذْبة »[2]

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قال لصبى هاك ، ثم لم يعطه فهى كَذْبة »[3] .

---

(١) رواه أحمد والترمذى وأبو داود .
(٢) رواه أبو داود .
(٣) رواه أحمد فى المسند .

هكذا يحرص الإسلام على ألا يسمع الصبى إلا صدقا ، ولا يمنى إلا حقا ، حتى ينطبع على ذلك ويشب عليه فيصير ذلك عادة له وخلقا ، وقديما قال الشاعر :

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

كذلك يعود الشجاعة الأدبية وتستحسن منه لتصير خلقا له ، فمن ذلك ما فعله عمر بن الخطاب مع ابنه عبد الله - رضى الله عنهما - حين سأل الرسول ﷺ أصحابه عن الشجرة التى لا يسقط ورقها ، وأنها مثل المسلم ، فلم يستطع الصحابة الجلوس معرفتها ، وسألوا الرسول عنها فقال : « هى النخلة »[1] .

وكان ابن عمر قد وقع فى نفسه أنها النخلة ، ولكنه لم يصرح به ، ولم يتكلم لصغر سنه ، فلما أجاب الرسول ﷺ بأنها النخلة ، قال ابن عمر لأبيه لقد وقع فى نفسى أنها النخلة ، ولكننى استحييت لصغر سنى ، فقال عمر : « لأن تكون قلتها أحب إلى من أن يكون لى كذا وكذا » .

إن هذا الكلام من عمر لابنه - رضى الله عنهما - تشجيع له على أن يتكلم فى حضرة من هو أكبر منه سنا بالعلم الذى يفطن إليه ويفهمه ، لأن الحياء والسكوت يضيع كثيرا من الفوائد ، ويقبر كثيرا من المواهب ، ويقتل الشجاعة الأدبية التى ينبغى أن يتحلى بها المؤمن حتى يتعود على النصح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وغير ذلك مما يجب على المسلم القيام به .

ومن ذلك أيضا ما وقع بينه وبين عبد الله بن الزبير - رضى الله عنهما - حين مر عمر فى طريق من طرق المدينة فرأى صبية يلعبون ، فلما رأوه فروا هاربين ووقف ابن الزبير وحده ، واقترب منه عمر ، وسأله لماذا لم تفر كما فر أصحابك ؟ .

---

(١) رواه البخارى .

فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين ، ليست الطريق ضيقة فأوسع لك ... ولم أفعل ذنبا فأخافك .

فسر عمر من هذه الإجابة ، ورضى عن ابن الزبير .

ونحن لا نفهم من هذا إلا أن الخليفة يأخذ بيد الصبى ليكون شجاعا جريئا يواجه الأمور فى شجاعة ، ويحسم المواقف بجرأة ، وإذا تعود ذلك وهو لا يزال صغيرا ، فإنه يشب عليه ، ويتخلق به فى كبره .

وعندما يبلغ الطفل السابعة من العمر يدخل الاهتمام به فى طور جديد حيث يبدأ سن التعليم ، والإسلام لم يهمل هذا الجانب وكيف يهمله وهو الدين الذى جعل طلب العلم فريضة ، وحث على التعلم فى أول آيات نزلت من القرآن الكريم على قلب النبى العظيم ، فقد أمر بالقراءة ، وذكر آلة الكتابة ، وحث على العلم بذكره ثلاث مرات ، وفى السورة التى تلت هذه السورة فى النزول يقسم الله - عز وجل - بالقلم وما يسطرون .

لا يتصور أحد بعد ذلك كله أن يغفل الإسلام المسألة التعليمية ، أو حتى لا يحث عليها ، لهذا حدد الإسلام الفترة التى ينبغى فيها بدء تعليم الصغار وقسم المدة التعليمية إلى مراحل :

المرحلة الأولى : وقد أشار إليها الرسول ﷺ بقوله : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع »[1] .

فالرسول ﷺ قد حدد للمرحلة الأولى من التعليم سن السابعة ، وهى السن التى يميز فيها الطفل ، ويدرك ما يتعلمه ويعيه ، ويثبت فى ذهنه فلا يتفلت منه .

ونحن نلاحظ أن هذه السن التى حددها الإسلام لبدء التعليم لم تختلف كثيرا عن السن التى حددها علماء التربية فى العصر الحديث فهؤلاء قد حددوا سن

---

(١) رواه أبو داود والحاكم .

السادسة ، ولا شك أن الطفل يبدأ فى السابعة بعد أن ينتهى من السادسة ، ومعنى ذلك أن الطفل يتلقى تعليمه الأولى وقد انهى سن السادسة ، وبدأ فى السابعة .

والطفل فى تلك المرحلة يكون كالعجينة يشكله المعلم كيفما شاء ويغرس فيه من الأخلاق والصفات ما بها تستقيم حياته ، وتحمد سيرته لهذا كان من الواجب على الآباء اختيار المعلمين المشهورين بالخلق القويم ، والدين المتين ، والسيرة الحسنة ، والقدوة الصالحة ، حتى يكونوا عونا للولد على تكوين السلوك الذى سيشكل وضعه فى المجتمع الذى يعيش فيه .

وقد ثبت بالتجربة أن الطفل فى هذه السن عنده قدرات جيدة على تخزين ما يلقى عليه من المعلومات ، بحيث يستطيع استعادتها وتصورها كما رآها وكما سمعها ، أما قبل ذلك السن فكثيرا ما يخلط الطفل بين المعلومات ، ولا يستطيع التمييز بينها بوضوح ، بل لا يقدر على تصورها إلا فى صورة مشوهة باهتة .

ومن أجل هذا لاحظ المربون فشلا كبيرا يلاحق الأطفال الذين يدفع بهم آباؤهم إلى المدارس فى سن مبكرة قبل تمام السادسة ، إلا نزرا يسيرا من هؤلاء ، وهم الذين يمكن أن نطلق عليهم العباقرة أو النوابغ .

وهؤلاء ولا شك لا يقاس عليهم فى المجتمعات لأنهم فلتات يجود بهم الزمان بندرة تجعلهم فى عداد المفقودين .

والإسلام لما حدد سن السابعة لبدء التعليم تحرى فى ذلك ألا يرهق الطفل فى سن هو أحوج ما يكون فيها إلى استجماع قواه ، وتكوين قدراته وطاقاته فإذا بددها الطفل وهى لم تكتمل بعد لم يستطع تجميعها والاستفادة منها فى الوقت المناسب .

ونلاحظ هنا أن الرسول ﷺ قد أمر المعلم أن يبدأ مع الطفل بتعليم الصلاة ، ولم يأمر بتعليم الشهادتين اللذين هما الركن الأول والأعظم من أركان الإسلام ، لأنه طفل نشأ بين أبوين مسلمين ، والمفروض فيه سلامة العقيدة ، وصحة الإيمان ، ويكفى ذلك لأن نبدأ معه بتعليم الفرائض التى فرضها الله على المسلمين ، أما إذا لاحظنا انحرافا فى العقيدة ، أو عدم وضوح فى حقيقة الإيمان

فحينئذ يجب البدء بتعليم العقيدة ، وتصحيح الانحراف الذى يعتبر طارئا على حياة الطفل ، وليس شيئا أساسيا عنده .

وهذه هى خطة الرسول ﷺ مع أصحابه ، فإنه كان يكتفى منهم بالنطق بالشهادتين ، ثم يأمرهم بعد ذلك بما فرض الله على المسلمين ، كما حدث ذلك مع ضمام بن ثعلبة وغيره ممن دخل فى الإسلام ولكنه لما لمس الانحراف من أولئك الذين طالبوه بأن يجعل لهم ذات أنواط صحح الانحراف ، وعدل المسيرة ، وطالبهم بنبذ ذلك الشرك الذى يخرجهم من الإسلام .

وكذلك لما كانت الجارية تغنى لم ينكر عليها شيئا من الغناء ، فلما قالت (وفينا نبى يعلم ما فى غد)[1] .

قال ﷺ : « دعى هذه وقولى بالذى كنت تقولين »[2] ، ولما مر ﷺ بنساء من الأنصار فى عرس لهن ، وهن يغنين :

وأهدى لها كبشا تنحنح فى المربد   وزوجك فى البادى وتعلم ما فى غد

عندئذ قال الرسول ﷺ : « لا يعلم ما فى غد إلا الله »[3] .

هكذا يجب أن نسير على هذا النهج ، فلا نتهم مسلما بفساد العقيدة حتى يبدو منه ما يدل على ذلك ، ولا نرمى شخصا بالكفر حتى نرى منه ما يصيِّر إلى ذلك غير محتمل للتأويل ، فإذا رأينا ذلك وجب أن نصحح العقيدة ، ونقوم ما طرأ عليها من الانحراف حتى يسلم المجتمع من هذه الآفات .

وإنما اختار الرسول ﷺ الصلاة ليبدأ بها المعلم لأنها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وهى التى تفرق بين المسلم والكافر ، وهى التى تربط قلب المسلم بالله – تبارك وتعالى – بما فيها من المناجاة والإخبات ، ثم هى بعد ذلك كله تتكرر خمس مرات فى كل يوم ، وتكرارها يعود الطفل عليها فى أقصر فترة

---

(١) رواه البخارى .

(٢) نفسه .

(٣) الطبرى فى الأوسط بإسناد صحيح .

ممكنة ويطبعه بمجموعة من الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة كالنظافة والنظام والطاعة .

نعم الطفل يتعلم النظافة من الصلاة ، لأنه لا صلاة بغير وضوء ، والوضوء غسل للأطراف التى تتعرض كثيرا للأتربة وأنواع من القاذورات كالاستنجاء والمخاط ، فإذا غسل الطفل أطرافه عند كل صلاة أصبحت النظافه ديدناً له لا يستغنى عنها .

ويتعلم النظام حيث يقف مع المسلمين فى صف مستو خلف الإمام لا يركع حتى يركع الإمام ، ولا يرفع حتى يرفع ، ولا يسجد حتى يسجد ، ولا يسلم حتى يسلم ، فهو إذن منقاد لحركات الإمام ، مقيد بفعله ، وعندئذ تنضبط حركاته ، وتنظم سكناته ويصبح النظام جزءا من حياته .

كذلك يتعلم الطاعة ، لأنه يستجيب عندما يسمع النداء : حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، فيلبى طاعة لله ، وابتغاء رضاه .

هذا إلى جانب ما يكتسبه من محبة إخوانه ، والتعاون معهم ، والوقوف على أ-حوالهم ، والسعى لقضاء مصالحهم إلى غير ذلك مما تقتضيه تعاليم الإسلام ، وتفرضه على المجتمع الإسلامى .

وأما تعليم بقية الفرائض فتأتى فى حينها وذلك لأن بقية الفرائض موسمية ، بمعنى أنها تكون فى فترة محدودة من أيام السنة ، ولا تتكرر إلا كل عام ، فالصيام مثلا فى شهر رمضان ، والزكاة بعد امتلاك النصاب وحولان الحول ، والحج فى أيامه المعلومات ، فإذا ما حلت الفريضة علمها وعلم كيف يؤديها .

على أننا نرى أن الصحابة – رضوان الله عليهم – كانوا إذا دخل رمضان دربوا أبناءهم على الصيام ، ويحولون بينهم وبين الطعام حتى يجهدهم الجوع فيطعمونهم ، وهكذا شيئا فشيئا حتى يقووا على الصيام ويتعودوه ، وحينئذ يلتزمون به ، ولا يفرطون فيه .

وينبغى أن يهتم المربى فى هذه المرحلة بالجانب الحسى الذى يدركه الطفل بغير عناء ولا تفكير عميق ، على ألا يهمل جانب العقل مرة واحدة بل يلمسه

برفق ويعالج جوانبه المختلفة بالطريقة التى تنميه تنمية طبيعية لا إفراط فيها ولا تفريط .

ومدة تلك المرحلة ثلاث سنوات أو أربع يركز فيها على التدريب العملى لكل ما يتعلمه الطفل إلى جانب شيء من النظريات التى يمكن إدراكها بسهولة تشجع الطفل على الاستمرار فى التلقى والتعليم .

وأحسن طرق التدريس فى تلك المرحلة هى القدوة الحسنة التى يعجب بها الصبى ، ويحاول محاكاتها ، والتأسى بها ، وأكثر ما يرى الصبى القدوة الحسنة فى أبويه وفى أستاذه ، فيجب أن يكون الأبوان نموذجين ينظر إليهما الصبى نظرة الإعجاب والتقدير إلى جانب نظرة الحب والاحترام ، كذلك يجب أن يكون الأستاذ ، حتى لا يرى الطفل أمامه متناقضات تعكر عليه صفو الحياة التى يستقبلها بشغف واهتمام ، فيرى الحياة متناقضة لا تسير فى اتجاه واحد مما يسبب له التعثر والفشل ، ويؤدى إلى العواقب الوخيمة .

المرحلة الثانية : وتبدأ هذه المرحلة فى سن العاشرة حيث يكون الصبى قد اشتد عوده ، ونما عقله ، وأصبح لديه القدرة على الاختيار والتفريق بين الأشياء ، فإذا كانت الفترة السابقة قد أثرت فى عقله ، واستقرت تعاليمها فى قلبه فستكون تلك الفترة امتدادا للفترة السابقة يتم التعليم فيها بالنصح والإرشاد ، والأمر والنهى .

أما إذا ظهرت بوادر انحراف فى سلوك الطفل ، ولم يستقر على الحال التى كان عليها فى السنوات السابقة التي استنفد فيها المربى كل وسائل التوجيه والإصلاح ، فلابد حينئذ من تغيير الأسلوب حيث ثبت أنه غير مجد ، ولم يحقق الثمرة المرجوة منه ، وليس أمام المربى إذن إلا أن يوقع نوعا من العقوبة يردع ولا يزعج ، ويصلح ما أفسده اللين مع الصبى المتمرد .

وهنا يقرر الرسول ﷺ تلك العقوبة فيقول : « واضربوهم عليها وهم أبناء عشر » ، وهذا الضرب هو الذى تعارف عليه علماء هذه الأمة بأنه ضرب غير مبرح – لا يكسر العظم ولا يسيل الدم – فهو إذن عقوبة للردع والتنبيه على ما وقع فيه الصبى من الخطأ ليعدل مسيرته ويصحح طريقه .

فالصبى حينما ينحرف فى غفلة من نفسه ، أو فى لحظة ضعف أمام مغريات لا قدرة له على مقاومتها ، وهو فى كلتا الحالين كالنائم يحتاج إلى من يوقظه ليتنبه ، وإيقاظه يكون بتلك الضربات التى هى بمثابة الضوء الأحمر الذى يضاء لتوقى الخطر .

فالضرب إذن ليس هو الضرب المنفر الذى تتسبب عنه العقد النفسية والانهيارات العصبية ، ولهذا تقرر أن يكون أسلوبا من أساليب التربية الناجحة يشهد بذلك كل من مر بتلك المرحلة فى حياته التعليمية .

وما يحاوله علماء التربية اليوم من استبعاد العقوبة لما يترتب عليها من المشكلات النفسية والجسمية إنما هو وهم ليس له من الواقع نصيب ، لأن العقوبة إذا لم تقع حسيا فإنها تقع معنويا شاءوا أم أبوا والتسوية بين المحسن والمسىء والمجد والكسول عقوبة للمحسن والمجد ، ومكافأة للمسىء والكسول وترك المسىء والكسول عقوبة لهما[1] .

فالأولى أن نكون صرحاء مع أنفسنا ، ومع واقع العملية التربوية ونعترف بالعقوبة كأسلوب من أساليب التربية والتعليم .

والصبى فى هذه السن يؤهل لأن يكون صاحب رسالة ، ويدرب على تحمل المشقات ، ويعود كيف يتحكم فى انفعالاته وعواطفه ، حتى يستطيع مواجهة ما سيقابله فى المرحلة القادمة التى تعتبر من أخطر المراحل فى حياة الإنسان .

وقد يكون الضرب فى تلك المرحلة مما يجب أن يتحمله الطفل كنوع من المشقات التى يجب تحملها بصبر حتى يتعود تحمل ما هو أشق منه مما سيواجهه فى حياته .

وفى تلك المرحلة يعتنى بالجانب الروحى والعقلى ، ولا يكتفى بالجانب

---

(١) ينظر تفصيل ذلك فى باب الحركة العلمية من كتابنا (المدينة المنورة عاصمة الإسلام ودولته الأولى) .

الحسى ذلك لأن الصبى سيواجه الحياة بمشكلاتها العديدة ، فلابد أن يكون مسلحا بالجانب الروحى ، وستعرض عليه أمور لابد أن يوجد لها الحلول المناسبة وذلك عن طريق الجانب العقلى .

وينبغى على المربى أن يلاحظ انفعالات الصبى وتصرفاته حيال بعض المواقف التى يمر بها ، فإن و جد أنه يتحكم فى انفعالاته ، ويتصرف بطريقة تبشر بحكمة واتزان شجعه وأخذ بيده ، وإذا لاحظ خلاف ذلك عدل مسيرته ، و قوم سلوكه بحيث يستقيم على الجادة التى يجب أن يكون عليها هو وأمثاله فى تلك المرحلة .

إن تعويد الصبى التحكم فى انفعالاته ، والاتزان فى تصرفاته فى سن مبكرة يطبعه على ذلك ، ويجعله كلما كبر يزداد تحكما واتزانا ، فلا ينفعل لأتفه الأسباب ، ولايثور إلا إذا اقتضت الحكمة الثورة ، وهو مع ثورته لا يخرج عن حد الاعتدال حتى لا يخطىء ، ولا يرتكب من الأفعال ما يشين أو يؤخذ به .

وهذا ما يجب أخذ الصبى به فى الجانبين السلوكى والأخلاقى ، أما عن ما يجب أن يتعلمه فى تلك الفترة فينبغى أن تكون العلوم التى يتلقاها مساعدة لتقويم الجانبين السابقين ، كحفظ شيء من القرآن الكريم ، وتعلم بعض الأحاديث الشريفة ، ومعرفة الحلال والحرام ، وإلى جانب ذلك تكون العلوم التى تساعد على نمو العقل ، واكتشاف المواهب ودرجة الذكاء فى الصبى ، لأن ذلك يمكن المربين من وضع المناهج فى المرحلة الآتية ، وتصنيف الطفل بحسب ميوله .

فاكتشاف المواهب ، ومعرفة درجة الذكاء فى الطفل تمكن من توجيه الصبى الوجهة التى يبرز فيها ، ويمكن الاستفادة به فى مستقبل الحياة .

ويجب أن نلاحظ أن هناك أخطاء ستقع من الصبى عمدا أو سهوا وعلى المربى ألا يعنف الطفل أو يلومه لوما شديدا على ما وقع من الأخطاء لأن التعنيف المتكرر يبلد الحس ، ويقتل الشعور ، ويولد العناد ، كما أن اللوم الشديد يؤدى إلى النفور ، ويقود فى النهاية إلى التمرد ، ويطبع الصبى على اللامبالاة وحينئذ يكثر الخطأ ، بل ويتعمده كنوع من التحدى الذى يعبر به المخطىء عن عدم احترامه للنظم والمربين .

أما إذا تغاضى المربى عن الخطأ للمرة الأولى دون أن يشعر المخطىء بأنه رأى أو سمع ، ثم يأخذ فى العلاج بطريقة إيجابية تشعر المخطىء بخطئه ، كضرب الأمثال ، وسرد القصص ، والثناء على الذين لا يخطئون إلى غير ذلك من الأساليب التى ثبت نجاحها فى التوجيه والإصلاح .

وهكذا كان يفعل ﷺ يعرض ولا يصرح ، وينصح ولا يعنف ، وكان يقول : « عليكم بالرفق فإنه ما دخل شيئا إلا زانه ، ولا نزع من شىء إلا شانه » « إن الله – تعالى – يحب الرفق فى الأمر كله »[1] .

ولما أكل مع عمر بن أبى سلمة ، وطاشت يده فى الصحفة لم يعنفه ، ولم يشتد عليه فى اللوم ، ولكنه ﷺ علمه كيف يأكل فقال : « يا غلام ، سم الله تعالى ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك »[2] .

كذلك لما غلا بعض الصحابة – رضوان الله عليهم – فى شىء من العبادات ، وبلغ رسول الله ﷺ ما قالوا ، نصح ﷺ نصيحة عامة لئلا يذكر أسماءهم فقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ؟ »[3] .

وحث الرسول ﷺ على تعليم الصبيان وتأديبهم ، ووعد على ذلك الأجر العظيم ، على أننا ينبغى أن نعلم أن التعليم والتأديب ليس خاصا بالذكور فقط ، بل هو عام للذكور والإناث على حد سواء .

فقد كان ﷺ يعلم النساء كما يعلم الرجال ، وجعل للنساء مجلسا خاصا ويوماً خاصا يعلمهن فيه[4] .

وجاء فى الحديث : « أيما رجل كانت عنده وليدة ، فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران »[4] .

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه الشيخان .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه البخارى ، ويراجع ذلك بالتفصيل فى باب الحركة العلمية من كتابنا (المدينة المنورة عاصمة الإسلام ودولته الأولى) .

والحديث هنا يصرح بتعليم الأمة « الوليدة » وتأديبها ليدل على أن ذلك فى أبناء الرجل من الحرائر من باب أولى ، وهكذا يهتم الإسلام حتى بتعليم الإماء وتأديبهن على هذا النحو من الإتقان والإحسان .

ونحن بتعليم أبنائنا فى هذه المرحلة العلوم التى تربى فيهم خشية الله - عز وجل - وتزكى أرواحهم كالعلوم الشرعية ، وبتدريسهم المواد التى تنمى مواهبهم وتنشط عقولهم ، وبها نكتشف قدراتهم وذكاءهم كالرياضيات والتربية الفنية ، وبعض الأصول المهنية نكون قد أعددنا الجيل لمواجهة كثير مما سيقابله فى المرحلة القادمة ، والتى سماها علماء التربية وعلم النفس والاجتماع بمرحلة المراهقة .

المرحلة الثالثة : وهذه أخطر المراحل فى حياة الإنسان ، (مرحلة المراهقة) والمراهقة هى بلوغ الذكر حد الرجال ، والأنثى حد النساء ، بمعنى أن الإنسان فى تلك الفترة يشعر بتغيرات كثيرة سواء كان ذلك فى جسمه أم فى نفسه .

وهذه الفترة تبدأ من الثالثة عشرة غالبا ، وخاصة فى المناطق الحارة ، ولكنها قد تتأخر قليلا أو تتقدم قليلا ، وأخطر ما يشعر به الإنسان فى تلك الفترة هو الميل الجنسى ، حيث يشعر الذكر بالرغبة فى الإناث ، وتشعر الأنثى بالرغبة فى الذكور ، وهذا الميل فطرى خلقه الله - تبارك و تعالى - فى النوعين لإعمار الكون .

فنزعة الرجل إلى المرأة ، وميل الأنثى إلى الذكر هو الوسيلة الوحيدة للتناسل ولولا ذلك الميل الفطرى لنفر كل نوع من الآخر ، ولم يأتلفا ؛ فلم يكن هناك إنجاب ولا نسل ، فينقرض النوع ، وتبقى الأرض خرابا يبابا ، بل لولا ذلك الميل لما وجد الإنسان أليفته ، لأن ذلك النسل كله منذ خلق الله الأرض وأهبط عليها آدم وحواء - عليهما السلام - إنما حدث من الميل المتبادل بينهما . فإذا لم يكن هناك الميل الجنسى لمات آدم ، وماتت حواء بغير إنجاب ، وبموتهما ينقرض جنسهما ، ولا يكون له وجود .

فالميل الجنسى إذن حقيقة خلقها الله فى الإنسان لإعمار الأرض وإثرائها بالجنس البشرى ، قال – تعالى – : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾[1] .

فالذين لا يؤمنون بذلك ، ويتخذون الميل الجنسى ذريعة للإفساد فى الأرض ، والاعتداء على الأعراض ، وهتك الحرمات ، إنما هم قوم مخربون يجب التخلص منهم ، ليعيش المجتمع الإسلامى فى أمان واطمئنان وسلام .

ولا ينكر أحد أن هذا الميل الفطرى يطرأ عنيفا بقدر عنفوان الفترة التى ينشأ فيها ، فيهجم على الإنسان ، فيغير سلوكه ، ويغير فى شكل جسمه وصوته ، ويصحب هذا التغيير ثورة وتمرد ، فإذا استطاعت هذه الثورة أن تجد المجال الذى تعبر فيه عن ذاتها برزت فى أقبح صورها ، فهناك تجد العربدة والعصيان ، والتعبير عن الذات فى صورتها البهيمية الشرسة التى ترفض كل القيم ، ولا تعترف بشىء من المثل والفضائل .

والمجتمع الذى يوفر هذا المجال لشبابه مجتمع محكوم عليه بالإعدام ، لأن التفسخ والتدهور الأخلاق ، والانحطاط السلوكى لا يمكن أن يكون إلا سُماً زعافا يهد كيان الأمم ، ويقوض بنيانها ، ويجعلها أثراً بعد عين .

يقول الأستاذ المودودى – رحمه الله – : « والتاريخ يشهد أنه ماسرى هذا الداء فى مفاصل أمة إلا أوردها موارد التلف والفناء ، ذلك بأنه يقتل فى الإنسان كل ما آتاه الله من القوى العقلية والجسدية لبقائه وتقدمه فى الحياة ...... وما دامت تحيط بهم محركات شهوانية من كل جانب وتكون عواطفهم عرضة أبدا لكل فن جديد من الإغراء والتهييج ، ويحيق بهم وسط شديد الاستثارة ، قوى التحريض ، ويكون الدم فى عروقهم فى غليان بتأثير ما حولهم من الأدب الخليع والصور العارية والأغانى الماجنة والأفلام الغرامية والرقص المثير والمناظر الجذابة من الجمال الأنثوى العريان ، وفرص الاختلاط بالجنس المخالف . استغفر الله ! بل أنى

---

(١) سورة هود : الآية ٦١ .

لهم ولأجيالهم الناشئة أن يجدوا فى غمرة هذه المهيجات الجو الهادىء المعتدل الذى لا مندوحة لهم عنه لتنشئة قواهم الفكرية والعقلية ؟

وهم لا يكادون يبلغون الحلم حتى يغتالهم غول الشهوات البهيمية ، ويستحوذ عليهم ، وإذا هم وقعوا بين ذراعى هذا الغول فأنى لهم النجاة منه ومن غوائله ؟ » . (١)

نعم لا يمكن لمجتمع يلقى بنفسه فى فم الأسد ثم يرجو النجاة ، كما لا يمكن لإنسان يلقى بنفسه فى النار ثم يخرج منها سليما معافى .

لابد أن تكون عاقبة هذا المجتمع الزوال إلى الأبد ، وبغير رجعة إلى الوجود ، والتاريخ شاهد عدل على ذلك ينبئنا عن مصير الأمم التى انغمست فى الشهوات ، وغرقت فى الملذات ، وهذا كاتب فرنسى يشهد بنفسه المصير الذى آلت إليه بلاده بسبب انتشار الدعارة ، فيكتب تقريرا لرابطة منع الفواحش فى جلستها الثانية ، يقول بوريس : « هذه الفوتغرافات الداعرة المتهتكة تصيب أحساسيس الناس بأشد ما يمكن من الهيجان والاختلال ، وتحث مشتريها البؤساء على المعاصى والإجرام التى تقشعر من تصورها الجلود .

وإن أثرها السيء المهلك فى الفتية والفتيات لمما يعجز عنه البيان ، فكثير من المدارس والكليات قد خربت حالتها الخلقية والصحية لتأثير هذه الصور المهيجة ، ولا يمكن أن يكون للفتيات – على الأخص – شيء أضر وأفتك من هذه »(٢) .

هذا المجتمع الأوربى الذى أباح للشهوة أن تسيطر بغير تهذيب أو توجيه حتى استشرت فيه تلك الموبقات ، ولم تدع مجالا إلا لوثته بقذارتها وبهيميتها ، حتى دخلت المدارس والكليات كما أشار إلى ذلك التقرير .

أما فى المجتمع الأميركى فقد أدى الاستهتار فى هذا المجال ، كما وصلت

---

(١) الحجاب : ص ٣٢ – ٣٣ .

(٢) نفسه : ص ٨٤ – ٨٥ .

الفوضى فيه حدا أزعج جميع العقلاء والمفكرين ، لما لمسوه من الانحطاط الخلقى والانهيار السلوكى .

وقد أدت إباحة ممارسة الجنس فى المجتمع الأمريكى إلى ظهور البلوغ الجنسى قبل وقته ، وإلى إقامة علاقات جنسية بين الفتية والفتيات فى سن تتراوح بين التاسعة والحادية عشرة .

وهذا أحد قضاة محاكم جنايات الصبيان فى أمريكا (بن لندس) يجرى بحوثا على حوالى ٣١٢ صبية ، فوجد أن ٢٥٥ منهن قد أدركن البلوغ فيما بين الحادية عشرة والثالثة عشرة من أعمارهن .

كما أثبت أن فيهن من إمارات الشهوة الجنسية والمطالب الجسدية مالا يكون عادة إلا فى بنات الثامنة عشرة فمن فوقهن سنا[1] .

كذلك يقول الدكتور أديث هوكر مصورا تلك الحالة المخزية من وجود العلاقات الجنسية المبكرة جدا فى المجتمع الأمريكى ، يقول :

« بنت فى السابعة من عمرها ، من بيت عريق فى الشرف والمجد ، ارتكبت الفاحشة مع أخيها وعدد من أصدقائه .

ونفر آخر من خمسة أولاد ، يشتمل على صبيتين وثلاثة صبيان متجاورين متقاربين وجدوا متعلقين بعضهم ببعض بالعلاقات الجنسية وقد حفزوا على ذلك غيرهم من الأولاد أيضا ، وكان أكبر أولئك سنا ابن عشر سنين ، وبنت أخرى فى التاسعة ، كانت فى ظاهر الأمر تحت رقابة شديدة وجدت سعيدة بكونها حبيبة عشاق ذوى عدد »[2] .

لم يكن ذلك أمراً نادرا حتى يمكن التجاوز عنه أو عده فى حكم الشاذ ، ولكنه كثر كثرة أزعجت المحاكم المشكلة للنظر فى تلك القضايا ، كما أزعجت جميع العقلاء ، وقد بلغ الأمر أن رفع إلى المحاكم فى مدينة « بالتى مور » أكثر من ألف

---

(١) الحجاب : ص ١٠٠ – ١٠١ .
(٢) نفسه .

حالة فى مدة سنة واحدة ، كلها ارتكبت فيها الفاحشة مع صبايا دون الثانية عشرة من العمر[1] .

هذه الحالة فى المجتمعات الأوربية والأمريكية التى تركت حبل الناس على غاربهم وجعلت الجانب الأخلاق والسلوكى دبر آذانها ، ولم تعتن بالوسائل التى يمكنها تهذيب هذا الأمر ، وتنظيم الميل الجنسى بين الناس حتى تقى نفسها وأبناءها تلك الشرور التى أصيبت بها .

وقد أدى الإسراف فى الميل الجنسى ، ومحاولة إشباعه بالطرق غير المشروعة إلى النتائج الآتية :

١ – قدر المختصون أن تسعين فى المائة من أهالى أميريكا مصابون بالأمراض الخبيثة الناشئة عن الزنا واللواط .

٢ – تقول دائرة المعارف البريطانية : « إن مائتى ألف من البريطانيين يعالجون من مرض الزهرى فى المستشفيات الرسمية . وإن مائة وستين ألفا مصابون بالسيلان » . وهؤلاء هم الذين يعالجون فى المستشفيات الحكومية ، فكيف بالذين يعالجون فى العيادات الخاصة ، بل كيف بالذين لا يعالجون ؟ .

وقد ثبت أن الذين يعالجون من مرض الزهرى فى العيادات الخاصة ٦١٪ ، والذين يعالجون من السيلان ٨٩٪ .

٣ – فى أميريكا يموت ما بين ثلاثين ألفا وأربعين ألفا من الأطفال بمرض الزهرى الموروث فى كل عام .

٤ – بلغ عدد المصابين بالسيلان فى أمريكا ٦٠٪ من النفوس فى سن الشباب[2] .

ومن أجل هذا كله ، خرجت صيحات الإنذار من أفواه العلماء والكتاب ، تحذر عاقبة ذلك البلاء الذى يهدد كيان المجتمعات الغربية على حد

---

(١) الحجاب بتصرف ص ١٠١ .

(٢) عن كتاب القوانين الجنسية بتصرف ص ٣٠٤ .

سواء ، ليس بالاضمحلال والخراب فقط ، بل بالزوال والفناء .

ذكرت مجلة أميريكية الثالوث الرهيب ، الذى يهدد المجتمعات بالزوال ، ولخصتها فى ١ – الأدب الفاحش الخليع . ٢ – الأفلام السينمائية التى تلقن الناس دروسا عملية فى الفاحشة . ٣ – انحطاط المستوى الخلقى فى عامة النساء .

ثم قالت المجلة بعد ذلك : « هذه المفاسد الثلاث فينا إلى الزيادة والانتشار بتوالى الأيام ، ولابد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر ، فإن نحن لم نحد من طغيانها ، فلا جرم أن يأتى تاريخنا مشابها لتاريخ الرومان ومن تبعهم من سائر الأمم الذين قد أوردهم هذا الاتباع للأهواء والشهوات موارد الهلكة والفناء مع ما كانوا فيه من خمور ونساء ، ومشاغل ورقص ، ولهو وغناء »[1] .



(١) نقلاً عن كتاب الحجاب للمودودى ص ١٠٥ .

الفصل الثالث

كيف عالج الإسلام مشكلة المراهقة ؟

إن الميل الجنسى فطرة فطر الله الناس عليها وهو من أهم الدعائم التى تقوم عليها الحضارة الإنسانية والتمدن البشرى ذلك لأن ميل كل جنس إلى الآخر ينشىء بينهما روابط وأواصر قوية تكون سببا لإدامة العشرة وطول الصحبة .

ولا شك أن هذه الأواصر الوطيدة التى أوجدها الميل الجنسى فى بنى الإنسان الذكور منهم والإناث تقتضى أن يكون بين الجنسين علاقات أهم من هذه العلاقات الجنسية التى تبلغ ذروتها فى لحظة الالتقاء ثم تنطفىء جذوتها ، ويخبو أوارها عقب الالتقاء مباشرة .

إن الإنسان بفطرته التى فطر عليها يشعر من قرارة نفسه بحاجته إلى دوام هذه العلاقة واستمراريتها ، ويحس أن العلاقة الجنسية غير كافية لإشباع رغبته الملحة فى إنشاء وضع مستقر بين الجنسين لهذا فهو دائم التفكير فى إقامة هذه العلاقات التى تضمن للجنسين الاستقرار وتكوّن منهما مجتمعا يقوم على أسس قوية ، لا تتعرض للهزات العاطفية ولا تنتهى بقضاء الوطر .

والإنسان دائم التفكير فى تكوين هذا المجتمع سواء أحسّ بذلك أم لا ، لأن الدوافع الداخلية الملحة ، والنزعة الاجتماعية التى تسيطر عليه تجعله يسعى إلى إيجاد هذا المجتمع الذى يحس إليه حنينا فطريا لا يملك مدافعته أو صرفه عن نفسه .

ولا يمكن أن يقوم هذا المجتمع على الحب وحده ، لأن الحب قد ينقلب إلى بغض لسبب من الأسباب ، والأسباب التى تؤدى إلى التباغض بين الناس كثيرة لا تحصى ، منها المادى التى تتعلق به النفوس وتحب الانفراد به ، وتبغض أن

يشاركها فيه غيرها ، كالمال و القصور والضياع ومنها المعنوى الذى تفخر به على أقرانها ، وتحسبه غاية الغايات فى حياتها ، كالمنصب والجاه .

فإذا تأسس المجتمع على نحو هذا الحب ، فهل هناك ضمانات تكفل لنا دوام هذا الحب حتى يستمر المجتمع فى أداء مهمته ؟ .

لا يستطيع أحد مهما كان متفائلا أن يجزم بدوام الحب بين الناس حتى يبقى المجتمع سليما من الثلمات ، بعيدا عن الهزات .

ولا يمكن أن يقوم المجتمع على العلاقات الجنسية فقط ، لأننا كما نحس جميعا أن هذه العلاقات وقتية تشب وتشتعل وتبلغ مداها فى لحظة ، ثم لا تلبث أن تهدأ وتخمد فى نهاية هذه اللحظة ، ومجتمع يبنى حياته على أسس متغيرة متقلبة لا يمكن أن يكتب له الدوام و الاستقرار .

إن قيام المجتمع على العلاقات الجنسية يحول هذا المجتمع إلى مجتمع بهيمى ، يلتقى فيه الذكر بالأنثى فى لحظة الشبق ، ثم ينفصل كل منهما عن الآخر ، قد يكون إلى حين ، وقد يكون إلى الأبد .

وكثيرا ما يبحث كل من الطرفين عن بديل يقضى معه وطره ليتعرف على شىء جديد فى حياته الجنسية ، كما يحدث ذلك فى المجتمعات التى بنت حياتها على تلك العلاقات .

فالعلاقات الجنسية إذن عامل من عوامل الهدم والتدمير كما رأينا فى المجتمعات الغربية والشرقية غير الإسلامية إذا لم تحصن بالضمانات الكفيلة بجعلها صالحة لبناء مجتمع قوى قادر على الدوام والاستمرار ، وهذا هو المجتمع الذى ينشده الإنسان .

إن العلاقات الجنسية إذا تركت للناس يمارسونها بغير حدود هدمت المجتمع ، وقوضت بناءه ، وعرضته للزوال والفناء .

وتكون ممارستها على هذا النحو نهاية للحضارة الإنسانية ، وخاتمة للرقى والتمدن اللذين يسعى الإنسان جاهدا لتحقيقهما .

ومن جانب آخر فنحن لا نستطيع كبتها ولا القضاء عليها ، لأن ذلك إعلان للحرب على فطرة بشرية شاء الفاطر - جل شأنه - أن تبقى قائمة بين بنى الإنسان من الجنسين ، لأنها كما قلت سابقا مصدر الأواصر والروابط التى يبنى على أساسها المجتمع الصالح .

والمجتمعات التى تحاول كبت هذا الميل الجنسى والقضاء عليه مجتمعات مريضة فى حاجة ماسة إلى علاج سريع يصحح مسيرتها ويخفف من غلوائها ، وهى مجتمعات ضعيفة عاجزة عن مواجهة الفطرة التى ينبغى استغلالها لتكوين المجتمع ، وتأسيس الحضارة .

ولا فرق فى نظر الإسلام بين الذين يؤججون نار الجنس ويتركون الناس كالطلائق فى الحظائر ينزو بعضهم على بعض ، ويتسافد الجنسان فى الطرقات بغير استحياء ولا خجل ، وبين الذين يختَصُون ويترهبون ، ويقتلون الجنس البشرى فى صورة ما من الصور .

كلاهما فى نظر الإسلام مخطىء ، وإن فحش خطأ أحدهما عن الآخر ، وكلا الأمرين فى نظر الإسلام منهى عنه ، وإن اشتد الوعيد فى الأول منهما .

والإسلام كما جاء به رسول الله ﷺ دين الفطرة ، يقول ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »[1] .

والله - عز وجل - يقول فى القرآن الكريم : ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾[2] .

فالإسلام إذن لا يتعارض مع الفطرة فيعطلها ويلغيها ، ولا يهمل تقويمها وتهذيبها ويتركها تخضع لأهواء الناس ورغباتهم .

ومن هنا تحددت مهمة الإسلام ، واتضحت معالم مسيرته فى هذا الطريق الشاق الوعر الذى هو علة علل الإنسانية فى ذلك الزمان .

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى السنن. (٢) سورة الروم : الآية ٣٠

الإسلام ينظر إلى الميل الجنسى بين بنى الإنسان على أنه أحد الدعائم الهامة التى تطور الحياة البشرية ، وتنمى الحضارة وتثريها ، ولا يمكن للميل الجنسى أن يبلغ تلك الغاية وهو ضائع بين التفريط و الإفراط ، فلابد إذن من الاعتدال ، واتخاذ الحد الوسط حتى نصل إلى الغاية المؤدية إلى بقاء النوع الإنسانى ، وإقامة المجتمع المثالى المنشود .

وكثيرا ما يصاب الإنسان بالقلق النفسى و الاضطراب العصبى نتيجة لهجوم التغييرات المفاجئة فى حياته ، والعامل الدينى هو صمام الأمن للإنسان فى تلك الحالة .

إن تدخل الإسلام لتنظيم حياة الناس العامة والخاصة على حد سواء يعتبر العامل الرئيسى فى إيجاد حياة هادئة ينعم بها الناس الذين يعيشون تحت رعاية الإسلام ، وعلى أرضه سواء منهم المسلمون وغيرهم .

ونحن لو اتبعنا هذا النظام الذى وضعه الإسلام نستطيع أن نقضى على القلق النفسى لدى الشباب ، وأن توجد الروابط الوجدانية التى تشد المجتمع بعضه إلى بعض ، ونضع المعالم الصحيحة للعلاقات الإنسانية التى يترتب عليها النظام الحضارى والتمدن الاجتماعى .

ولقد أقام الإسلام مجتمعه على هذه النظم فكان المجتمع المثالى الذى يزهو به التاريخ فى حقبة من حقبه المتتابعة .

والفرق بين المجتمع الإسلامى والمجتمعات المعاصرة يكمن فى طريقة العلاج الذى وضع لمواجهة المشكلة ، ففى الوقت الذى يهذب الإسلام فيه الغرائز ، ويوجهها نحو الخير بدون كبت أو مصادرة ، يفتح المجتمع المعاصر كل السبل أمام الميل الجنسى ، بل ويبتكر كل يوم جديدا لتهييج الغرائز ، وتأجيج نار الشهوة المسعورة فى نفوس الشباب دون أن يكلف نفسه أو حتى يترك المصلحين فيه يضعون الحدود التى ينبغى أن يقف عندها ذلك التيار الجارف من الخلاعة والفحش والفجور .

لا عجب إذن أن يخرج الإسلام إلى المجتمع نماذج رائعة من الرجال الذين ترفعوا عن الدنايا ، وسمت أخلاقهم عن أن تدنس بعار الفحش والفجور ونظروا إلى الدوافع الجنسية على أنها وسيلة لإيجاد الروابط المتينة بين البشر ، فلم تستعبدهم شهوة ، ولم تستبد بهم نزوة .

وهذا نموذج من هؤلاء الرجال ، إنه مرثد بن أبى مرثد ، كان له فى الجاهلية ليال مع عناق البغى ، فلما أسلم هجرها ، وهاجر مع رسول الله ﷺ إلى المدينة .

خرج ذات يوم لإنقاذ بعض المسلمين المحبوسين فى مكة ، وبينما هو يمشى متخفيا فى شوارع مكة ، وصل إلى بيت تلك البغى - عناق - فلما رأته رحبت به ، وظنته عاد إلى سالف زمانه ، وأنه جاء ليقضى ليلة معها كسابق عهده ، فقالت له : « مرحبا بك يا مرثد ، هيا إلى البيت ، تقضى ليلتك عندنا » .

فقال لها مرثد : « لا يا عناق ، لقد حرم رسول الله ﷺ الزنا » .

فغضبت عناق ، لأنه حطم كبرياءها الذى تذل به الرجال وسخر من جمالها الذى طالما طأطأت به هامات الأبطال ، فصاحت به ، وأغرت به أهل مكة ليقبضوا عليه ، ولكنه استطاع الهرب[١] .

إنه رجل ككل الرجال ، تتعرض له امرأة له معها ذكريات ، وقضى عندها ليال وليال ، وتدعوه إلى بيتها وإلى فراشها فيأبى ويتمنع ، لا لأنه خال من فحولة الرجال ، ولا لأنه عاجز عما يعمله غيره مع أمثالها من البغايا ولكن لأن الإسلام حرم الزنا .

إذن لقد كان يكفى لمحاربة أية رذيلة من الرذائل أن ينهى عنها الرسول ﷺ وأن يعلم المسلمون أنها حرام حرمها الله .

وحتى الذين وقعوا فى هذه المعصية ، وارتكبوا تلك الجريمة تحت وطأة ظروف قاهرة لم يستطيعوا الإفلات منها ، لم تهدأ ضمائرهم ، ولم تنم قلوبهم بل

(١) رواه النسائى .

ثارت بهم ثورة عاصفة ؛ جعلتهم يذهبون بأنفسهم إلى رسول الله ﷺ ويطلبون منه أن يطهرهم من الجريمة التى اقترفوها ، وأن يقيم عليهم الحد حتى يلقوا الله – عز وجل – أطهر من ماء البحر ، وأنظف من برد السماء .

نعم حدث هذا فى المجتمع الإسلامى ، وليس مجرد خيال شاعر ، ولا وهم قصاص ولكنه حقيقة سجلها التاريخ ليفخر بها على الأجيال التى استعبدتها الشهوة ، وصيرت الدنيا بهم حديقة للحيوانات ينزو بعضها على بعض بلا خجل ولا استحياء .

وليس هذا الاعتراف الجرىء الذى يقدر المعترفون ثمنه جيدا ،ويعلمون أنه سيكلفهم حياتهم ، نتيجة خوف من البشر ، أو طمعا فى أن ينالوا به شهرة ومكانة ، ولكنه فى الحقيقة نتيجة مراقبة لله – عز وجل – هى غاية فى السمو الروحى جعلت صاحبها يشعر بخطئه ، ويعترف بذنبه أملا فى أن ينال عفو الله ورضاه ، وكان هذا هو السر فى إلحاحهم على الرسول ﷺ بأن يطهرهم ويقيم عليهم الحد .

ولعل اعتراف المرأة الغامدية بارتكابها جريمة الزنا أروع وأعجب من إعتراف (ماعز) ، فالمرأة عادة رقيقة القلب هيابة ، يفزعها الخبر المؤلم ، ويكدر صفوها الكلمة النابية ، فكيف نفسر اعترافها بارتكاب تلك الجريمة وهى تعلم ما سيترتب على ذلك من العار لقومها ، والرجم حتى الموت لنفسها ؟

لقد منحها الرسول ﷺ فرصة لسحب اعترافها ، والتخلى عن إقرارها ، ولو فعلت لأنقذت شرفها وحياتها ، لقد أجلها الرسول حتى تضع حملها ، ثم أجلها حتى تفطم ولدها ، ولكن ضميرها لم ينم ، وقلبها لم يقبل التغاضى عن جرم قارفته فى لحظة ضعف أمام الإغراء الذى لم تستطع مقاومته ، فلم تر بدا من الاعتراف لتتطهر من ذلك الرجس الذى وقعت فيه .

وهى ولا شك كانت تؤمن تماما بأن إرضاء ربها خير من التستر على شرفها ، وأن ما تستقبله من النعيم الدائم أفضل من البقاء والعافية تحت وخز الضمير وبشاعة الجريمة .

والإسلام لم ينس لها ولماعز ذلك الموقف النبيل ، بل حفظه لهما مع التعظيم والتقدير ، وقد كانت كلمات رسول الله ﷺ أصدق تعبير عن هذا التعظيم والتقدير حين قال : « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله - تعالى - »[1] .

كذلك قال عن ماعز بن مالك - رضى الله عنه - : « لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم »[1] .

وهكذا يفتح الرسول ﷺ باب التوبة للمذنبين ، ويشجع العصاة على الإنابة والعودة إلى الطريق السليم حتى لا يستخفى من يقع فى الجريمة فلا يعاقب ، فيؤدى ذلك إلى تفشى المنكرات وعدم التحرز من الموبقات .

إن ماعزا والغامدية قد شعرا بأنهما أخلا بنظام المجتمع الذى يعيشان فيه ، وأنهما قد عرضا الروابط الوثيقة بين أفراده للانهيار والتفسخ ، فكان لابد من أن يضحيا ، فبذلا حياتهما راضيين ليعيدا للمجتمع نظامه ويؤكدا بذلك الوشائج التى تربط بين المسلمين .

نعم ، إن المعاشرة غير المشروعة تفسد العلاقات بين الناس ، وتكدر صفو المجتمع ، وتبدل حبه كراهية وبغضاء ، ولهذا حرمها الإسلام ، وجعلها أبشع الجرائم وأنكدها .

وتلك المعاشرة غير المشروعة هى التى أوصلت المجتمعات المعاصرة إلى ما وصلت إليه اليوم من التفكك والتمزق ، ذلك لأن الرجل عندما يعاشر المرأة معاشرة غير مشروعة يفسد بذلك ما بينهما من العلاقة ، لأنه يتركها ويبحث عن غيرها فيغضبها ذلك ، وتحاول الانتقام لنفسها ، وإن حملت منه كان ذلك الحمل سببا فى العداوة والبغضاء بدلا من أن يكون أحد الروابط التى تشدهما وتوثق علاقاتهما ، حيث يفر الرجل ويأبى أن ينسب الولد إليه ، وتتحمل المرأة مالا تطيق بكفالة الولد والإنفاق عليه ، هذا إذا تركته ، وقد يؤدى بها الحال إلى قتله والتخلص منه .

---

(١) رواهما مسلم .

وتصور شعور أم تقتل ولدها بيدها ، وهى تعلم أن الذى دفعها إلى ذلك هو جحود ذلك الأب المنكود ، وعدم اعترافه بالجنين الذى دفنه بخسته فى الثرى قبل أن يدفنه فى أحشائها .

فهل ينتظر المجتمع مثل هذا ، يعيش الناس فيه على تلك العلاقات الجنسية المشبوهة أن يكون بين أفراده شيء من الحب ، أو شيء من التعاون والترابط ؟

أدرك الإسلام ذلك كله ، فواجه المشكلة فى حزم ، وحدد معالمها فوضع لها الحلول المناسبة ، وبدأها بالزواج .

والزواج هو الطريق الوحيد للمعاشرة المشروعة ، وهو الوسيلة الفعالة لتوثيق العلاقات بين أفراد المجتمع ، ففى الزواج تتم المصاهرة بين العائلات ، ويتحقق الترابط بين الزوجين ، وتتكاثر الأسرة تكاثرا ينمى المجتمع ، ويزيد فى قوته وإنتاجه .

وبالتناسل تقوى علاقة الرجل بزوجته ، فالإنجاب يجمعهما حول الوليد ، ويربط بين قلبيهما الحب المتبادل له ، وبذلك تزداد أواصر المحبة ، ويعيش المجتمع كأسرة واحدة لحمتها المصاهرة وسداها النسب .

ولم يعرف البشر منذ خلق الله الخلق ، ولن يعرفوا حتى يرث الله الأرض ومن عليها علاجا لمشكلات الجنس أنجح من الزواج المبكر .

لهذا صدّر به الإسلام حلول المشكلة ، ودعا إليه الرسول ﷺ دعوة حارة تشعر منذ الوهلة الأولى بأهمية الحل .

يقول ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »(١) :

وكما أمر الشباب بالإسراع فى الزواج ، أمر الآباء بتزويج أهل الخير و الدين « إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه ، إن لا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض »(٢) .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجة .

وخفف من الصداق حتى أصبح فى متناول كل فرد ، فجعله مرة خاتما من الحديد ومرة حفنة من شعير ، وثالثة ما يحفظه المسلم من آيات القرآن الكريم ، وهكذا يصبح الحل عمليا لمشكلة استعصت على الأمم المتحضرة وحارت فيها عقول المفكرين .

ونحن نلاحظ أن الأمر قد هان ، ولم يعد هناك مشكلة تشغل بال المصلحين ، فالشباب مأمورون بالزواج ، والآباء مأمورون بالتزويج والصداق فى متناول أضعف الناس .

ولو تأملنا هذا التهديد المخيف فى الحديث « إن لا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض » لعلمنا كيف حرص الإسلام على حل المشكلة .

نعم ، أى فتنة أخطر من منع الشباب والشابات من الزواج ، وأى فساد أبشع من ترك المجتمع تتخطفه الشهوات ، إن الإعراض عن الزواج سواء كان لغلاء الصداق أم لرفض الآباء مفسدة لا تعدلها مفسدة ، وفتنة تأتى على الأخضر واليابس .

وماذا بعد أن ينتشر الفساد فى المجتمع ؟ وماذا بعد أن تتأجج نار الفتنة فى شبابه وشاباته ؟؟

ليس بعد هذا سوى الدمار والخراب والقضاء على مقومات الحضارة والتمدن فى هذا المجتمع المبتلى بالفتنة والفساد .

ولا يتمارى اثنان فى أن الزواج المبكر هو الحل الأمثل لمشكلة انتشار الدعارة والفجور ، ذلك لأنه يحصن الرجل ، ويحمى المرأة ، وما يكون بينهما من المحبة والمودة يدفع كل واحد منهما على إرضاء صاحبه ، والمعاشرة الحسنة تؤدى إلى الوفاء المتبادل بينهما ، والعلاقات الجنسية الحلال تحفظهما من الزلل والانحراف .

وهناك صنف من الناس لا تقنعه امرأة واحدة ، ولا تشبع رغبته ولا تملأ عليه حياته ، وذلك واقع لا يمارى فيه إلا جحود ، فما موقف الإسلام من هذا الصنف ؟

الإسلام كدين واقعى يعالج مشكلات الناس من خلال الواقع الذى يعيشونه ، لا يمكنه أن يتغاضى عن ذلك أو يتجاهله ، لأن التغاضى عن مثل هذا الأمر يترتب عليه من المحاذير ما يفسد حياة الناس ، ويسىء إلى العلاقات القائمة بينهم ، بل ويعرضها للانهيار والانقطاع .

لهذا أباح الإسلام تعدد الزوجات حتى يشبع النفوس النهمة ، فلا تتطلع إلى المحرمات ، ولا تخادن من وراء الزوجات ، ولا شك أن زواج الرجل باثنتين أو ثلاث خير من أن يخادن النساء الأجنبيات ، أو يعاشر معاشرة غير مشروعة الفاجرات العاهرات .

ونحن لو تأملنا حكمة التعدد ، وما أدى إليه من صيانة المجتمع من الفساد ، وما أسداه إلى أفراد الأمة من تقويم سلوكهم وحفظهم من الانحراف ، لأدركنا أن التعدد من أعظم ما قدم للبشرية من التشريعات التى تحفظ على الناس دينهم وأعراضهم ، وتدعم المجتمعات بالروابط المتينة التى تزيدها قوة أمام تحديات الحضارة المادية ، وثباتا فى مواجهة المغريات الجسدية .

إننى أعتقد أن ما آلت إليه المجتمعات المعاصرة من التهتك والانحلال إنما هو نتيجة حتمية لأسباب كثيرة أهمها عدم التعدد ، حيث توجد فى بعض الرجال طاقات جنسية لا يستطيع إشباعها مع زوجة واحدة ، وبخاصة ولو لاحظنا أن الدورة الشهرية تعاود المرأة بمتوسط ستة أيام فى الشهر ، فإذا لم يجد فى تلك الفترة ، وفى غيرها من فترات النفاس التى تستمر عند بعض النساء ستين يوما من يقضى معها وطره فى الحلال اضطر إلى أن يلجأ إلى الحرام .

وليس التعدد فى مصلحة الرجال فقط ، بل هو كذلك يحقق للمرأة نصيبا كبيرا من الحياة الشريفة العفيفة ، فكثيرا ما يتضاعف عدد النساء ، ويربو على عدد الرجال ، وبخاصة فى أمة مجاهدة يكون الجهاد فى حياتها فريضة ماضية تدافع به عن دينها ، وتحفظ وطنها من اعتداء المعتدين .

فحينئذ لو اكتفى كل رجل بامرأة واحدة فأين تذهب الباقيات ؟ ومن الذى يرعاهن ويكفلهن ، ويحفظ عليهن أعراضهن وكرامتهن ؟؟

فهل يتركن بغير عائل ؟ ولو وفرت لهن الدولة سبل العيش ، فمن الذى يعفها ، ويصون شرفها ، ويقوم سلوكها إذا انحرفت تلبية للرغبة الفطرية فى الإنسان ؟

إن الحياة بالنسبة للإنسان ليست محصورة فى لقمة يأكلها ، أو ثياب يلبسها ، أو قصور يسكنها ، أو مراكب فارهة يستخدمها ، بل هناك فى حياة الإنسان ذكرا أو أنثى ما هو أهم من ذلك كله ، هناك الحياة الروحية التى يتصل فيها بالملأ الأعلى ، وهناك إشباع الرغبات الفطرية التى تلح على الإنسان من داخله .

إن الله – عز وجل – خلق الإنسان ، وأودعه تلك الغرائز لا ليقتلها ولا يلتفت إليها ، ولا ليفلتها ولا يهذبها ، ولكن يستخدمها فى تهذيب سلوكه وإعفاف نفسه ، وإعمار الأرض التى يسكنها ، وكيف يحقق ذلك كله إلا عن طريق المعاشرة المشروعة التى تلبى حاجاته الفطرية ، وتحفظه من الانحراف والزلل ؟ فإذا لم يتوفر له ذلك حلالا طيبا ، جنح إلى الالتواء ، ومال إلى المنعرجات ، والتمس لنفسه وسيلة يشبع بها رغباته دون أن يفكر فى مشروعيتها أحلال هى أم حرام ؟

ولا شك أن تعدد الزوجات يكفل لكلا الجنسين تلك الحياة الهانئة النظيفة عند الحاجة إليه ، ويحقق للمجتمع الترابط والتوازن والازدهار .

وهناك ثغرة أخرى ينبغى معالجتها مادمنا قد تعرضنا للكلام فى هذا الموضوع ، وتلكم هى أن الإنسان قد يقع نظره على امرأة تسير فى الطريق فتعجبه ، وتقع من نفسه موقعا قد يؤدى به إلى الجنوح والحيدة عن الجادة ، فماذا يفعل إذن ؟

ونحن نرى أن ما حدث كان نتيجة للنظرة ، والنظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، تفتح على الإنسان أبوابا من الشر لا قبل له بها ، وتنغص عليه عيشه الرتيب الهادىء الذى كان بالأمس جنة وارفة الظلال يأوى إليها فيجد فيها راحة نفسه وطمأنينة قلبه ، فإذا هو اليوم ، وبعد أن أباح لعينه النظر إلى مالا يحل له

فى تعاسة وشقاء ، لم تعد زوجته سكنا له ، ولم يعد بيته ذلك العش الجميل الذى يرتاح إليه ، بل تغيرت فى عينه كل القيم ، واختلت فى نظره كل المعايير ، وتشبث قلبه بسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

من أجل هذا أمر الإسلام بغض البصر للرجل والمرأة على حد سواء لأن ما يعجب الرجل من المرأة يعجبها منه ، قال - تعالى - : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ﴾[1] ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ﴾[2] وغض البصر من الحلول التى عالج بها الإسلام المشكلة فأتت ثمار طيبة ناضجة .

فإذا حدث ووقع نظر الإنسان على امرأة ما وأعجبته ، فعليه أن يبادر إلى أهله ، ويقضى معها حاجته ، فإن ذلك يهدىء من نفسه ويسكّن قلبه ، ويبعد عنه ما علق به من أثر تلك النظرة الشاردة .

وقد علمنا رسول الله ﷺ ذلك ، حين رأى امرأة فذهب إلى زوجته - زينب بنت جحش رضى الله عنها - فقضى معها حاجته .

وفى الحديث أنه ﷺ - خرج بعد ذلك إلى أصحابه فقال : « إن المرأة تقبل فى صورة شيطان ، وتدبر فى صورة شيطان ، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله ، فإن ذلك يرد ما فى نفسه »[3] .

وفى رواية عند الخطيب عن عمر - رضى الله عنه - : « إذا رأى أحدكم امرأة حسنة فأعجبته فليأت أهله ، فإن البضع واحد ، ومعها مثل الذى معها » .

وقدم الإسلام علاجا آخر للمشكلة يعين الرجال والنساء على حد سواء على مواجهة ما يتعرض له الإنسان من المواقف المحرجة التى قد تؤدى إلى الانزلاق والتردى ، وذلكم العلاج هو الصوم .

---

(١) سورة النور : الآية ٣٠ .
(٢) سورة النور : الآية ٣١ .
(٣) رواه مسلم .

حقا إنه علاج من نوع جديد لم تألفه النفوس ، ولم تتعرف على قيمته القلوب ، ونحن لو بحثنا فى حقيقة هذا العلاج لوجدنا أنه يعالج الموضوع من جذوره فيستأصله ، وخير العلاج ما يجتث المرض من أصوله فلا يبقى له على أثر .

وأصل هذا المرض الذى استشرى فى بنى الإنسان على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم هو الإسراف فى الطعام والشراب ، والتفنن فى ألوانهما مما يزيد فى القوة البهيمية فى الإنسان .

فإذا نحن نظمنا عملية الطعام ، وأعطينا للجسم حاجته التى يستطيع بها أن يقوم بواجباته ، وقوينا الجانب الروحى بقدر تقويتنا للجسم ، نكون قد حددنا للجسم حدوده التى لا يتعداها إلا فى حالة ا لشذوذ أو الضغط الذى لا يستطيع الإنسان مقاومته .

والصيام هو الذى يقدم للإنسانية هذا العلاج الناجع ، فإنه يحدد للإنسان وجبات الطعام ، وبما يحدثه فى الجسم من الفتور نتيجة الجوع يخمد نار الشهوة فلا تثور ، ويضيق مجارى الشيطان فلا يجد متسعا للإغراء ، وفوق ذلك كله فإن فيه مراقبة لله – عز وجل – تجعل المرء على صلة دائمة بربه مما يولد فى قلبه الخشية ، ويعطى للروح جرعة قوية من التقوى فلا تجترىء على المعاصى ، ولا تقترب من ساحاتها وعندئذ يسلم المجتمع من الوقوع فى المحظور .

وليس كل صوم يؤدى هذه الوظيفة ، أو يستطيع منحها لكل صائم ، ذلك لأن الصوم عن الأكل والشرب فقط وإن أحدث الفتور فى الجسم ، ولكنه ليس فيه غذاء للروح ، ولا خشية لله ، وكثير من الناس ينتهز فرصة الصوم ليتخذ منها موسما لكل ما تشتهيه نفسه من ألوان الطعام ، ويتخذ جوعه طول النهار ذريعة لإعداد أفخر الموائد ، وإتخامها بأصناف المأكولات الشهية وهناك آخرون يصومون عن الأكل والشرب ، ولا يتورعون عن الكذب والزور والبهتان ، والخوض فى أعراض الناس .

وهؤلاء وأولئك قد جعلوا للشيطان عليهم سبيلا ، وفتحوا له بابا يدلف

منه إلى سويداء قلوبهم ، فيحركها نحو الحرام ، ويسوقها إلى كل محظور وممنوع .

فأما الصوم الذى يكون حقيقة وجاء للصائم يكفه عن الحرام ، ويحفظه من الآثام فهو ذلكم الصيام الذى أراده الله لعباده ، وشرعه لهم نبيه ، من الاقتصاد فى الطعام ، وكف اللسان عن التكلم بالبهتان ، الصيام الذى يملأ القلب خشية لله - عز وجل - ويزود الروح بما يصلها بالله فيمنعها من معصيته ويحول بين الصائم وبين الفجور وقول الزور .

وآخر الدواء الكى ، ذلك لأن الإسلام حينما وضع هذه الحلول ، إنما وضعها للأسوياء من الناس ، الذين يملكون من قوة الإرادة ، ومضاء العزيمة ما يجعلهم يتحكمون فى غرائزهم ، ويلتزمون بالجانب الأخلاقى .

فأما الذين تتحكم فيهم شهواتهم ، ويصبحون عبيدا لأهوائهم ، فهؤلاء لا يجدى معه ذلك العلاج الهادىء الرفيق ، وحينئذ لابد من استعمال الزواجر والروادع ، ولهذه النفوس المتمردة ، والقلوب المريضة ، شرع الله - عز وجل - الحدود ، يردع بها أولئك المستهترين ، ويوقفهم عند حدهم بالإجبار ، ماداموا قد فقدوا حاسة الاختيار الصحيح ، وحرموا من التمييز بين الطيب والخبيث .

والإسلام عندما ينفذ الحدود فى هؤلاء لا يكون فى ذلك حجر على حريتهم ، أو امتهان لكرامتهم ، بل مثله فى ذلك كمثل الطبيب ، يجرع المريض من الدواء ليصح ويعافى ، ويصبح عضوا مفيدا فى جسم المجتمع الإنسانى .

ليس هناك عاقل يتهم الطبيب المعالج بالقسوة على المريض حينما يرغمه على تناول الدواء الذى لا يرغب فيه ، ذلك لأنه يريد مصلحة ذلك المريض ويقصد إزالة العلة عنه ، ولو كان ذلك الإرغام فى ظاهره تجريدا له من حريته ولكنه الأمر الذى لا يمكن أن يعافى بدونه .

والإنسان الذى يرتكب الفاحشة مريض فى خلقه يحتاج إلى دواء يتناسب وحجم الجريمة التى ارتكبها ، والجريمة ليست سهلة ، وعواقبها ليست هينة ، وإنما هى جريمة بشعة بقدر ما يترتب عليها من الآثار ، وعواقبها وخيمة قذرة ، لأنها تخلط الأنساب ، وتورث من لا يستحق الميراث وتلحق الولد بغير أبيه ، وتكدر صفو المجتمع ، وتقطع الصلات بين أفراده .

لهذا شرع لها الإسلام الحد الرادع والعقوبة المفزعة ، وقد راعى التشريع عند وضع الحد التفريق بين الأعزب الذى لم يسبق له الزواج ، وبين المحصن الذى أعف نفسه بالزواج ولو صار أعزب بعد ذلك ، حيث جعل حد الأعزب جلد مائة وتغريب عام مراعيا فى ذلك عدم الحصانة ، فإن الأعزب إذا ارتكب الجريمة ، يكون قد ارتكبها بدوافع الشبق المفضى إلى عدم تقدير العواقب ، ثم جهالته بالعملية الجنسية تجعله يقدم عليها وهو فى حالة تشبه حالة اللاوعى بموجب الحوافز الداعية إلى ارتكابها من ثوران الشهوة ، والإغراء ، وعدم ممارستها من قبل .

أما الذين أعفُّوا أنفسهم بالزواج وجامعوا نساءهم فى نكاح صحيح ولو مرة واحدة فإن عقوبتهم تكون أشد ، وحدهم يكون أنكى ، وهو الرجم حتى الموت ، وذلك لأنه حصن نفسه بالزواج ، وأعفها بالوطء فلم يكن له أن يدنسها بعد ذلك بالسفاح ، أو يلطخها بعار الاعتداء على شرف غيره وعرضه .

والإسلام حينئذ نظر إلى العلاقات الجنسية على أنها ذات مهمة أسمى من مجرد التلذذ والاستمتاع ، فإذا كان هذا هو حالها مع الزوجة الحلال الطيبة المباحة ، فكيف يسمح للإنسان بالاستمتاع لمجرد الاستمتاع مع غير الزوجة ، ولا يمكن أن يكون مع هذا الاستمتاع قصد آخر .

ومن جانب آخر فإن الإسلام يريد أن يسمو بأخلاق المسلمين فيشعرهم بأن الدوافع الجنسية مهما بلغت لن تزيد عن لحظات لا ينبغى للمؤمن أن يدنس نفسه ، ويعتدى على عرض إخوانه بسببها على أن هذا الزانى إنما هو لص من نوع خسيس ، فإن اللص يسرق المال ويسرق المتاع وهى أعراض يمكن تعويضها ، والحصول على غيرها خير منها ، أما الزانى فإنه يسرق شرف الناس وأعراضهم ، وهما لا يقومان بمال أو متاع ، ولا يمكن تعويضهما بحال من الأحوال .

على أننا ندرك من أن مجرد الوطء الحلال ولو مرة واحدة يحصل به الإحصان دليلا على ما يكتسبه المسلم من معرفة بحقيقة الميل الجنسى وأنه عملية بهيمية صرفة لا تستحق أن يضحى الإنسان بنفسه من أجلها ، ولهذا إذا اعتدى بعدها فإنه لا يستحق أن يكون مع الأحياء بخلاف الأعزب الذى يجهلها ، ولا يدرى ما وراءها .

وهناك أمر آخر وهو أن الزانى المحصن حين يزنى يكون متعمدا قتل الجنين وأمه معنويا فى المجتمع ، فليس له إلا القتل الحقيقى جزاء جريمته ، والأعزب وإن حدث منه ذلك إلا أنه يكون كمن قتل خطأ فلا يحكم عليه بالموت .

الفصل الرابع

ضمانات لصيانة المجتمع

من أهم ما يجب أن يهتم به المصلحون فى تربية الشباب ، وضع ضمانات لصيانة المجتمع من الخراب والدمار ، ذلك لأن التربية وحدها لا تكفى لتحقيق تلك الصيانة ، فإذا كان المربون يبذلون جهدهم لإيجاد جيل يتمتع بإيمان عميق ، وخلق رفيع ، وصلة قوية بالله - جل علاه - ثم يلتفت حوله فلا يرى إلا الفتنة ، نساء عاريات ، وصحف ومجلات تنشر الرذيلة وتوزع الدعارة ، وإذاعة وتلفاز تقدم للناس السم مغلفا بغلاف جميل جذاب ، ومسرح وخيالة تبث الخنا وتشيع الفاحشة .

يرى كل هذا فى بيته ، وفى الطريق العام ، وفى المعاهد والمدارس ، وفى الكليات والجامعات ، اختلاط تتورع عنه النفوس السوية ، وتهتك يوحى للنفس بكل أنواع الفجور ، وأزياء يبتكرها الشياطين ليزينوا للشباب الفساد ، ويهيجوا الشهوة البهيمية فى أجسامهم ، فماذا يفعل الخلق الرفيع ، والإيمان العميق أمام كل هذه المغريات ؟ وصدق الشاعر إذ يقول :

إبليس والدنيا ونفسى والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائى ؟

الله - عز وجل - خلق الإنسان ، ويعلم ضعفه ، ويقدر إمكانات مقاومته لتلك الشرور ، ولهذا وضع - سبحانه وتعالى - ضمانات لصيانة المجتمع ، وشدد على اتباعها والأخذ بها ، وهدد المخالفين لها المتهاونين فى تطبيقها ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٩ .

إن تعريض الشباب للفتنة ، ومطالبتهم بعدم الوقوع فيها ، ضرب من العبث الذى لا تقبله النفوس السوية والعقول الواعية ، إذ كيف نغرق الشباب فى بحار من اللهو ، ونطلب منهم أن يحيوا حياة الجد ؟ وكيف نغمرهم بالترف والبذخ . ونرجو أن يعيشوا عيشة التقشف والشظف ؟ بل كيف نملأ أدمغتهم وأفئدتهم بالأغانى الداعرة والمسرحيات الفاجرة ونريد منهم أن يكونوا أمة مجاهدة يبذلون نفوسهم وأموالهم فى سبيل الله ؟؟

إن حصيلة الحياة التى يعيشها الشباب لابد أن تكون من جنس واقعهم ، فلماذا نحاول مغالطة الواقع ، واستخلاص نتائج لا تترتب على المقدمات المطروحة على الشباب ؟

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

فإذا أردنا مخلصين أن نأخذ الشباب بحياة الجد ، وأن نعودهم عيشة التقشف والشظف ، وأن نكوّن منهم أمة مجاهدة تعرف حق الله عليها فتخلص له العبادة ، وحق القيادة فتمحص لها الولاء ، وحق دينها فتعمل على نشره ، وحق وطنها فتضحى فى سبيله ، إذا أردنا ذلك حقا فينبغى أن نضمن له حياة جادة طاهرة ، تعينه على أداء مهمته .

والإسلام قد رسم لنا الطريق ، وحدد لنا المعالم ، ووضع الضمانات التى تصون الشباب من الزيغ ، وتحفظ المجتمع من الانحراف .

علم الله - تبارك وتعالى - أن علة العلل فى هذه الحياة إنما تأتى الأمم بلا استثناء من قبل الانحراف عن دين الله ، واتباع خطوات الشيطان وأن أول الانحراف يدخل على الناس من قبل النساء ، لأنهن حبائل الشيطان يذل بهن كل عزيز ، ويرغم بهن كل متكبر .

فهم تلك الحقيقة أعداء الإسلام ، فركزوا على إفساد المرأة ليضمنوا فساد المجتمع بغير عناء ، وعملوا على إثارة الشهوة البهيمية ليصلوا إلى انشغال الناس بنزواتهم عن معالى الأمور ، ويضغط فرويد اليهودى على نظرية الجنس حتى يجعلها هى مصدر كل شىء فى الحياة .

ويزعم فرويد أن الجنس ينشأ مبكراً جدا ، وليس فى مرحلة البلوغ ويوغل فى دلك الزعم حتى يصرح بأن الطفل يولد جنسا خالصا .

يقول الأستاذ محمد قطب وهو يفسر رأى فرويد فى الجنس : « كل أعمال الطفل تعبير عن الجنس : الرضاعة جنس ، ومص الإبهام جنس وتحريك العضلات جنس ، والتبول والتبرز جنس ، والالتصاق بالأم جنس »[1] .

والذى يلفت النظر هنا ، أن فرويد يصر على إبراز هذه النظرية ذلك الإصرار المدهش فى وقت كانت أوروبا كلها تبغض الكلام عن الجنس ، وتنظر إليه على أنه حماقة لا يجوز لعاقل أن يتكلم بها ، بل كانت تستقذره وتحتقر من يتكلم عنه .

ومما لا شك فيه أن فرويد ذلك العالم اليهودى أصر هذا الإصرار ، وهو يعلم أن الموضوع سيكون ثقيلا على قلوب الناس ومسامعهم ، ويعلم كذلك أنه ربما يحتقر ويمتهن بسببه ، ولكنه أصر وتحمل لأنه يعلم أن الغاية التى يسعى لتحقيقها لن يصل إليها إلا عن هذا الطريق .

أليست غايته إفساد الحياة ، وتحقير القيم ، وشغل الناس بمالا يفيد حتى يتمكن اليهود فى غفلة من العالم من السيطرة والتسلط ؟؟

لابد إذن أن يصر على ذلك ،. ليخرج الناس من التقوقع الذى يعيشون فيه ، ويجرؤهم على الخوض فى حديث الجنس ، ليكون ذلك تمهيدا لممارسته عمليا وبغير استحياء .

وقد تم له ما أراد ، وأصبحت أوروبا كلها ماخورا ، ليس للناس فيه إلا الحديث عن الجنس ، والبحث عن الجنس ، وممارسته العملية الجنسية .

كان فرويد يعنى ذلك ويقصده ، يوم جعل الجنس هو كل شيء فى الحياة ، نعم ، كان يعنى ذلك ويقصده ، لأنه يعلم أن الناس لو شغلوا بالجنس ، وأصبحت غايتهم محصورة فى الجنس ، أصبح من اليسير على اليهود توجيه العالم كما

---

(١) التطور والثبات فى حياة البشرية ص ٤٨

يشاءون عن طريق الجنس ويصبح الجنس هو الورقة الرابحة على موائد المقامرين ، يملكون بها الدنيا ، ويفسدون حياة الناس العامة والخاصة .

فمن أجل الجنس تسرق الأموال ، ومن أجل الجنس تخان الأمانات ومن أجل الجنس يضحى بالشرف والكرامة ، ومن أجل الجنس تطأطىء أعناق الرجال ، ومن أجل الجنس تخون المرأة زوجها ، ومن أجل الجنس تبذل المرأة عرضها ، ومن أجل الجنس يجب التضحية بكل القيم والفضائل والأخلاق ، فماذا بقى للناس ؟؟

تلك هي النتيجة الحتمية لشغل الناس بالجنس ، وجعله موضوعا يتناوله العلماء بالبحث ، ليأخذ صفة البحث العلمى ، وتتحقق فيه خصائصه ، فيتلقفه الناس على أنه حقائق يجب ألا يخجل منها الناس ، والكلام فيه كلام موضوعى ليس من الهراء ولا من المحقرات .

وترسيخا لهذا المعنى فى أذهان الناس تؤلف الكتب ، وتصنف المصنفات ، وتكتب القصص ، وتخرج المسرحيات ، ويطرح ذلك كله فى الأسواق عفنا قذرا تفوح منه رائحة الجنس ، ويتنافس الناس على شرائه أكثر مما يتنافسون على شراء الدواء للمرضى والخبز للجائعين .

وهكذا تتحطم كل مقومات الإنسانية ، وتنهار كل معالم الحضارة ، وتتلاشى من حياة المجتمع كل القيم والأخلاق من أجل إشباع الميل الجنسى فى الإنسان .

ومما لا شك فيه أن الفراغ الروحى هو أهم العوامل فى تصعيد موضوع الجنس فى هذا العصر ، فقد انصرف الناس عن الدين ، وجعلوه دبر آذانهم ، وانشغلوا بملذات الدنيا وشهواتها ، فخوت قلوبهم من الصلة بالله – عز وجل – وخلت حياتهم من ألوان العبادة التى كانت تربطهم بخالق السماوات والأرض ، فلم يعد هناك مراقبة ، ولم يعد هناك خوف ، فسكن الشيطان تلك القلوب الخاوية ، وعشش فى هذه النفوس الفارغة ، فباض و أفرخ ، ونفث سمومه فى جوانب الحياة المختلفة ، فأفسدها على الناس ، ولم يدع لهم طريقا يرجعون منه إلى ما فقدوا من القيم والأخلاق والفضائل .

ومن أجل العودة إلى الحياة الطاهرة التى ينشدها الإسلام ، ومن أجل إنقاذ الدنيا من الحياة العفنة التى انغمس فيها الناس ، وضع الإسلام تلك الضمانات :

١ - ملء الفراغ :

الفراغ كما ذكرت هو أهم عوامل السعار الجنسى الذى سيطر على الناس ، وأكبهم على وجوههم ، وجعلهم يفقدون آدميتهم ، ويلهثون وراء الحياة البهيمية التى استمرءوها ، وأفنوا حياتهم فى سبيلها وسواء كان ذلك الفراغ ماديا أم روحيا فإنه ذو أثر سيىء فى تشكيل الحياة التى يعيشها الناس الآن اجتماعيا واقتصاديا وأخلاقيا ذلك لأن الفراغ مفسدة لا يبتلى بها مجتمع إلا كانت مصيبته فى أعز عزيز لديه أهون منها .

فالفراغ المادى يؤدى إلى الانحرافات السلوكيه التى تؤدى بالمجتمع فبسببه تشكل العصابات التى تسطو على الناس ، فتسرق أموالهم ، وتسلب أعراضهم ، وتدنس شرفهم وكرامتهم .

على أننا يجب أن نعلم أنه لا فراغ فى الحقيقة ، فحيث لا يشغل الإنسان نفسه بالنافع المفيد تجده مشغولا بالفساد والإفساد فالفراغ الذى نقصده إنما هو الفراغ من الخير ومن كل عمل يعود على المجتمع بالنفع والفائدة .

وحين يتوفر هذا الفراغ للإنسان تتوفر لديه عوامل الهدم والتخريب ، وتركب رأسه الشياطين ، فلا يفكر إلا فى الشر ، ولا يتحرك إلا للتدمير .

والفراغ الروحى أسوأ أثرا فى النفس البشرية من الفراغ المادى لأن هذا النوع من الفراغ عندما يبتلى به الإنسان – والعياذ بالله – يفقد آدميته ، ويتحول إلى حيوان يخطط ويدبر لحيوانيته دون أن يكون هناك حدود يقف عندها .

فالفراغ المادى قد تحده الحياة الزوجية التى يتمتع بها الإنسان ، فإذا سولت له نفسه أن يفسد تذكر قدرة الله عليه فأقلع وثاب إلى رشده ، وإذا انحرف سلوكه . وضل غايته ، فسرعان ما يلتمس الهدى والرشاد بتوجهه إلى مصدر الغذاء الروحى الذى يقوم سلوكه ، ويلهمه رشده .

فماذا الذى يحدد مسيرة الإنسان إذا أصيب بالفراغ الروحى ؟

إن شغل الفراغ مطلقا سواء كان ماديا أم روحيا بما يفيد الإنسان هو العلاج الوحيد لذلك الداء الوبيل ، وهو عامل مهم حدا من عوامل التطوير والتمدن فى المجتمع الإنسانى الكبير .

ونحن – المسلمين – ندرك هذا المعنى ، ونعرف أبعاده ، والإسلام قد وضع المنهج ، وحدد لنا الأسلوب الذى نتعامل به فى هذا المجال بحيث لا يشعر المسلم بالفراغ ، ولا يعرف الفراغ إلى نفسه سبيلا .

فالصلاة المتكررة فى اليوم خمس مرات موزعة على النهار وأطراف الليل بشكل يجعل الإنسان لا تنقطع صلته بالله إلا عادت أشد تعلقا وأقوى استمساكا .

وذكر الله – عز وجل – الذى أُمرْنا به فى كل الأحوال : فى الليل والنهار ، فى السراء والضراء ، فى المسجد والسوق ، عند البيع والشراء ، عند الأكل ودخول الخلاء ، وعند النوم والاستيقاظ ، هذا الذكر الذى لا يفتر عنه لسان المؤمن وقلبه يعطينا شحنة روحية قوية تملأُ فراغنا بما يحيط الحياة بسياج قوى من الأخلاق والفضائل ، وتدفع المسلم إلى بذل جهده فى جلب الخير ودفع الشر عن المجتمع الذى يعيش فيه .

واختيار الأصدقاء الصالحين ، والتعاون معهم على البر والتقوى ، ومد يد العون للمحتاجين ، وإغاثة الملهوفين ، والنهوض بالمجتمع ببناء المدارس ، وتشييد المساجد ، وإنشاء المشافى ، والإسهام فى المشروعات التى تساعد على التنمية ، كل ذلك من أساليب سد الفراغ .

والقراءة المفيدة التى تشبع رغبة العقل ، وتنمى المواهب والفكرَ ، وتبصر الإنسان بالحياة الصحيحة التى يجب عليه أن يعرفها ، وتدله على الطريق السوى الذى يبغى له أن يسلكه تجاه ربه ودينه ووطنه ، وعن طريقها يميز بين الخير والشر والنافع والضار .

والرياضة التى يمارسها الإنسان بأنواعها المختلفة مثل السباق والرمى ،

والسباحة والمصارعة ، والكرة ورفع الأثقال إلى غير ذلك[1] .

وإذا أضفنا إلى ذلك كله برنامج الإسلام الاقتصادى الذى يكفل لكل إنسان حق العيش بكرامة وإباء ، والذى يوفر العمل للعاطلين ، فلا يدع رجلا قادرا على العمل إلا ويشغله بما يحقق له رغد العيش ، ويعود على المجتمع بالخير والهناء ، وليست قصة الرجل الذى أعد له الرسول ﷺ القدوم بيده ، وأمره بأن يذهب فيحتطب ، حتى عاد بعد خمسة عشر يوما وقد حصّل أضعاف ما كان معه قبل أن يعمل ببعيدة عن الأذهان .

وفوق ذلك كله فإن الإسلام قد فرض على هذه الأمة الجهاد ، وجعل فيه عز الدنيا وسعادة الآخرة ، وشغل المسلمين به ، حتى لم يعد فى حياتهم شىء يعرف بالفراغ ، فهم فى غزو لا ينقطع مادام فى الدنيا إسلام وكفر ، والأمة المجاهدة متأهبة دائما للعمل ، مستعدة فى كل وقت لملاقاة الأعداء ، فهى نفسيا مشغولة بعظائم الأمور ، وهى ذهنيا تخطط وتدبر لكسب المعارك والتغلب على العدو ، وهى جسميا فى تدريب مستمر حتى لا تفتر العزائم ، ولا تهن القوى فهل بعد ذلك كله فراغ يعرفه المؤمنون ؟؟؟

والمتأمل فى برنامج ملء الفراغ فى الإسلام يدرك أنه برنامج شامل يتناول حياة الإنسان من جوانبها المختلفة ، ويراعى فى كل فرد ميوله ورغباته ، فهو يعالج الجانب الروحى بقدر ما يعالج الجانب العقلى والجسمى ، ويعدد أنواع العلاج وأساليب التربية حتى يأخذ كل إنسان منها ما يناسبه ، وينتقل حيثما تستريح نفسه فإذا مل هذا النوع ، تركه ومال إلى غيره .

وهكذا يقضى الإسلام على الفراغ ، ويملأ حياة المسلم بمالا يدع له فرصة يتسلل من خلالها شياطين الإنس والجن بوسائلهم التى تفسد عليه حياته ، وتتركه نهبا للتفكير المدمر ، وفريسة للأفكار الهدامة المخربة ولقمة سائغة للجنس الذى أصبح أملا يتطلع إليه الناس على اختلاف نحلهم وميولهم .

---

(١) يراجع ذلك بالتفصيل فى القسم الأول من هذا الكتاب ، وفى كتابنا (الترويح فى المجتمع الإسلامى)

٢ – **التستر والاستحياء :**

ومن أهم الضمانات التى وضعها الإسلام لصيانة المجتمع التستر والاستحياء بمعنى عدم إبداء المرأة زينتها للرجال الأجانب لأن فى إبداء الزينة إغراء للرجال ، وإثارة لمكامن الشهوة فيهم ، وذلك هو التبرج المقيت الذى نهى عنه القرآن الكريم ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾(١) .

والمرأة عندما تتبرج ، وتبدى زينتها بإظهار مفاتنها ، وتكسرها فى مشيتها ، وخضوعها فى حديثها ، تثير غرائز الرجال ، وتلهب قلوبهم بنزوات الشهوة فتطيش عقولهم ، وينحصر تفكيرهم فى المحاولات التى يتمكنون بها من إشباع ميولهم الجنسية ، وتلبية رغباتهم البهيمية ، ويصبح المجتمع غابة لا تجدى فيها النظم ولا تسيطر عليها القوانين .

إن الرجل بفطرته ميال إلى الجنس الآخر و قد خلق الله – تبارك وتعالى – فيه هذا الميل قويا عنيفا ، فهو ينتبه ، وتستيقظ غرائزه لمجرد سماع صوت المرأة أو إحساسه بمشيتها ، فكيف إذا رأى منها مالا يحل له رؤيته ؟

ولا شك أن المرأة عندما تتزين تكون أكثر جاذبية للرجال ، وأشد فتنة لهم ، والزينة تضفى على المرأة جمالا يزيد فى حسنها ، بل تصيرها حسناء مهما كانت دميمة شوهاء ، وهى بإبداء زينتها توقع الرجال فى حبائلها ، وتفتح عليهم أبوابا من الشر لا قبل لهم بإغلاقها .

ولهذا نهى القرآن الكريم عن إبداء الزينة ، فقال – جل من قائل – : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن ... ﴾ الآية(٢) .

فالمرأة تبدى زينتها لزوجها ، وتتزين كما تشاء فى بيتها ، ولكن حذار أن تتجاوز بذلك باب دارها ، فإنها إن فعلت ذلك تقبل على الناس فى صورة

---

(١) سورة الأحزاب : الاية ٣٤ .
(٢) سورة النور : الآية ٣٠ .

شيطان ، وتدبر عنهم فى صورة شيطان ، وناهيك عما يفعله الجمال والزينة والشيطان فى قلوب الرجال .

ومن أجل هذا فرض الإسلام الحجاب ، وأغلق نوافذ الفتنة ، فحرم النظرة النهمة ، وجعلها سهما من سهام إبليس الفتاكة ، كما حرم لمس النساء ، وأخبر أن مس الخنزير الملوث بالقاذورات خير للمؤمن من مس المرأة الأجنبية ، وذلك لأن مس الخنزير الملوث تنفر منه النفوس وتأباه ، وتتورع عن فعله ، أما مس المرأة الأجنبية فإنه محبب إلى الإنسان ويشعل نار الشهوة فى قلبه ، ولا يدعه حتى يقع فى الحرام ، وينتهك أعراض الناس .

ومن أجل هذا أيضا أمر الله – عز وجل – بالاستئذان عند دخول البيوت حتى لا تقع عين الإنسان على عورات الناس ، ومن أشد العورات التى ينبغى التحرز منها حريم الرجل وبناته حيث تكون الغيرة عليهن أشد ، و الحرص على صيانتهن أقوى .

ولكى يحكم إغلاق تلك النوافذ استحب أن يستئذن الرجل حتى على أمه وأخته ، وقد سئل ابن مسعود وابن عباس – رضى الله عنهما – أأستئذن على أمى ؟ أأستئذن على أختى ؟ فأجابا ، نعم ، أتحب أن ترى منها ما تكره ؟

وذلك لأنه إذا دخل الرجل بغير استئذان ، ولو كان على بيته فقد يرى عورة تثير فى نفسه الغريزة ، وتحرك فى قلبه الشهوة ويظل ذلك التفكير يطارده حتى يقع فى الحرام أو يقاربه ، وليس ذلك ببعيد فكثيرا ما تطالعنا الجرائد الأجنبية بارتكاب جريمة الفاحشة من رجل مع ابنته أو ولد مع أمه أو أخته ، وقد تكرر ذلك كثيرا ، وحدث فى بعض البلاد الشرقية التى أباحت السفور ، وحرمت الحجاب ، فالشهوة هى الشهوة ، ومالم تلجم بالروادع القوية التى حددها الإسلام فليس لها رادع .

٣ – تحريم الخلوة والاختلاط :

الإسلام يحرم الخلوة بالمرأة الأجنبية مهما كان الرجل تقيا ورعا ، ومهما كانت المرأة دميمة شوهاء ، لأن الميل الجنسى فى كل منهما خليق بأن يدفع كلا

منهما نحو الاخر ، وتلك غريزة تقرب بين المتباعدين متى تمت الخلوة ، وخلا الجو ، وتهيأت الدوافع .

ولا يستطيع إنسان أن يقول : إنه قادر على ضبط عواطفه ، وإلجام غرائزه فلا بأس حينئذ بأن يخلو بمن يشاء ، لأن ذلك وهم وخداع ، ولا يستطيعه إلا المعصومون من الآدميين .

إن فطرة الرجل تتمرد عليه ، و تتحدى قواه العقلية والأخلاقية متى وجدت الخلوة ، وتهيأت الظروف ، وكذلك المرأة بل هى أضعف أمام غرائزها من الرجل ، ولولا الحياء الذى سلحهن الله - عز وجل - به لرأينا منهن العجب العجاب .

ومن أجل هذا يحذر الرسول ﷺ من الخلوة ، ولو كانت مع أقرب الأقربين مادامت المرأة تحل للرجل ، بل يكون التحذير أشد كلما كانت درجة القرابة تتيح للرجل أن يدخل على المرأة بغير محرم ولا استئذان ، كابن العم وابن الخال ونحوهما وكأخ الزوج المعروف بالحمو ، فإن هؤلاء وأمثالهم تتوفر لهم فرص الدخول على النساء تحت حماية تلك القرابة وقد يكون البيت خاليا إلا من الزوجة ، وعندئذ تتم الخلوة ، ويجد الشيطان الفرصة فيزين أحدهما للآخر حتى يقع المحظور .

يقول ﷺ : « ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » تلك حقيقة واقعة ، ولو تصور الإنسان تلك المعادلة : خلوة + رجل + امرأة + شيطان = .. فلابد أن يدرك النتيجة مهما بلغت بلاهته ومهما كانت درجته قواه العقلية من الضعف والسذاجة .

ولهذا يأتى التحذير بتلك الصورة القاطعة والتى لا تقبل التأويل ، بقوله ﷺ : « إياكم والدخول على النساء » قالوا : يا رسول الله ، أفرأيت الحمو ؟ قال ﷺ : « الحمو الموت ، الحمو الموت ، الحمو الموت »[1] .

---

(١) رواه الإمام أحمد .

نعم إنه الموت الخفى ، لأنه يدلف إلى البيت بغير حسيب ولا رقيب . ويتمكن من الخلوة فى ظل القرابة القريبة ، وهناك يجد طريقه إلى قلب المرأة ، وعندئذ يكون الموت أحب إلى النفس فرارا من العار الذى يلحقها .

ويدخل فى هذا الباب أصدقاء العائلة كما يسمونهم وهم أولئك الذين يعتادون زيارة البيوت من حين لآخر مع أرباب تلك البيوت حتى تصبح وكأنها بيوت لهم يأتونها متى يشاءون ، وتتعود الزوجة والبنات رؤيتهم فى المناسبات وغير المناسبات ، وترفع الكلفة بينهم ، وتزول الحواجز ويتم اللقاء فى غيبة الزوج أو الأب ،وأكثر ما يكون ذلك فى حال سفره أو مرضه بحجة قضاء الحاجات ، والتعرف على أحوال أهل البيت ، ويغلفون ذلك بأنه وفاء بحق الصديق الغائب أو المريض ، وهو ولا شك غلاف براق معجب فى ظاهره ، ولكنه يكمن الشيطان خلف كل حركة أو سكنة فى باطنه ، ويترتب عليه فى النهاية تقطيع الروابط الزوجية ، بإثارة الريبة فى قلب الزوج الذى لا ينتبه لهذا الخطر إلا بعد فوات الأوان .

إن أسطورة صديق العائلة التى سادت الآن فى جميع الأوساط ، وتفشت بصورة مخيفة تهدد الروابط الأسرية ، والعلاقات الزوجية يجب أن تختفى تماما فى المجتمعات الإسلامية ، وذلك لأنها نوع خطير من المخادنة التى حرمها الإسلام ، ونزه عنها المسلمين .

لا بأس بأن يكون هناك صديق للعائلة ، ولا بأس بأن يتفقد البيت ، ويقضى لأهله مصالحهم فى غيبة الزوج ، ولكن بشرط أن يكون ذلك مع محرم أو من خارج البيت بحيث يقف على الباب الخارجى ، ويطرقه بطريقة عادية ، ويخاطب أهله من خلف الباب ، فإذا قام بما يجب فى مثل هذه الحال ، انصرف مسلّما بغير مصافحة ، ودون أن يرى أحدا من النساء .

وكثيرا ما تنشأ الخلوة عن الاختلاط ، ذلك البلاء الذى ركز عليه أعداء الإسلام حتى يسروه على الناس كل الناس بغير استثناء إلا من رحم ربى ، وحتى أصبح الذين لا يخالطون ، وينعزلون عن تلك العادات القبيحة رجعيين متخلفين ، ينقصهم الذوق الاجتماعى الذى ينبغى أن يكون حكما فى مثل تلك المسائل .

ولست أدرى ، ولا أعرف أحدا يدرى ، ماذا يقصدون بذلك الذوق الاجتماعى الذى يريدون تحكيمه فى حياتهم ؟ هل هو نظام كونى فطر عليه الناس ؟ أم هو قانون اصطلح عليه العقلاء منهم ؟ أم هو انحراف نشأ فى سلوك المجتمعات نتيجة عوامل وأفكار طارئة على أوضاع هذه المجتمعات ؟؟

والمتأمل فى ذلك الذوق الذى ألَّهوه ، واتخذوه مقياسا يعرفون به مقدار ما بلغت المجتمعات من التقدم أو التأخر يوقن أنه مجموعة من الانحرافات الطارئة على هذه المجتمعات ، إذ أنه لو كان نظاما كونيا لما خلا منه مجتمع قط ، ولو كان قانونا تعارف عليه العقلاء من الناس لما أنكره العقلاء فى كل جيل ، ولكن أرباب الذوق الاجتماعى المزعوم لا يعترفون بذلك ، ولا يقولون به مخالفين ضمائرهم وعقولهم فى الحكم على ذلك الذوق الذى ابتدعوه ، بل مخالفين فى ذلك إجماع الأجيال السابقة على إنكار الاختلاط ، وعده من المنكرات ، رغم اختلاف هذه الأجيال فى المستوى الحضارى ، والرق الفكرى ، والمذاهب العقيدية ، ورغم اختلافها كذلك فى البيئات والظروف والعصور .

ومن المعروف أن الاختلاط بين الجنسين أمر بغيض عند الأمم السابقة التى لم تدرك ذلك العصر ، سواء منها من يمنع الاختلاط ترفعا عن مخالطة جنس أدنى منه ، أم يمنعه عرفا وعادة ، أم يمنعه تدينا وعبادة .

ولو أننا استثنينا ما كان يحدث شذوذا فى تلك المجتمعات من الاختلاط غير المباح لاستطعنا أن نحكم بأن الاختلاط كان منبوذا بالإجماع فيها .

إن الاختلاط إذا لم يكن محرما شرعا لكان محرما طبعا ، إذ أن طبيعة الإنسان السوى ترفض أن يخالط أمه أو أخته أو بنته أو زوجته شخصا لا يحل لها مخالطته ، ولذلك رأينا من يقتل أمه أو أخته أو بنته أو زوجته نتيجة لذلك الاختلاط ، وما يجره على الناس من العار والشنار .

ولا يستطيع أحد أن يقول إن الذين يرتكبون جريمة القتل فى تلك الظروف أناس شواذ لا يقاس عليهم ، ولا يعتبر وجودهم فى المجتمع مصدرا تبنى عليه أحكام قاطعة ، لأن هؤلاء هم الأغلبية الساحقة فى كل مجتمع سوىّ يحترم نفسه ،

ويعرف قيمة المحافظة على الأنساب ، والحق أن الذين لا يفعلون ذلك مع تأكدهم لما يحدث فى بيوتهم من الاختلاط والمضاجعة هم الشواذ الذين تبلدت أحاسيسهم وماتت أريحيتهم ، وأصبحوا فى حالة أدنى وأحقر من بعض الحيوانات .

وليس أدل على ذلك من أن الشرع لا يقضى بقتل من قتل رجلا رآه فى وضع مريب مع زوجته ، بل إن المحاكم التى هى من صنع ذلك المجتمع لا تحكم بالقتل على من قتل رجلا أجنبيا وجده فى بيته مع زوجته ، أليس ذلك كافيا للحكم على الاختلاط بأنه جريمة بشعة لا يقبلها الشرع ولا العرف ولا الذوق السليم .

إن الاختلاط فطرة حيوانية يجب أن يترفع عنها الإنسان لما فيه من الخصائص والميزات التى تسمو به عن ذلك المستوى ، فالعقل الذى خص الله به الإنسان ، وميزه به على غيره يرفض أن يشاركه غيره فى أموره الخاصة إلا أن تكون نصيحة من ناصح أو مشورة من مستشار .

على أن بعض الحيوانات – كالأسود – تأبى أن تخالط زوجاتها غيرها من الحيوانات ، ولو حاول أسد آخر أن يحوز زوجة غيره لم يتمكن من ذلك ثم تكون بينهما معركة عنيفة لا تنتهى إلا بموت أحدهما ، فإذا كان الأمر كذلك فى بعض الحيوانات فكيف يقبل الإنسان أن تخالط زوجته غيره وهى عِرضُه وشرفه وأغلى ما يملك فى حياته ؟

إن الله – عز وجل – قد كرم الإنسان ، وأفرده بخصائص ، من أهمها حماية العرض والدفاع عنه ، ومن إكرام الله – سبحانه وتعالى – للإنسان أن حبب الزوجة إلى نفسه ، وجعل بينهما مودة ورحمة ، وهذا الحب وتلك المودة والرحمة تقتضى ألا يشارك أحد من الناس أحدا فى زوجته ، وإلا صارت حيوانية وخلت من الإنسانية ، ولتحقيق ذلك أودع الله قلب الإنسان الغيرة على زوجته مهما كان ضعيفا ، ومهما كانت قدراته على الدفاع عن أهله .

ولهذا لم يألف الإنسان تلك العادة السيئة الذميمة إلا بعد جهد مضن وتجارب مريرة ، ومع ذلك فإن الذين ألفوها وصارت عادة لهم يرفضونها بالنسبة لزوجاتهم وأمهاتهم وبناتهم ، وتأبى عليهم إنسانيتهم أن يتساهلوا فى ذلك

أو يسلموا به إلا من شذ وتبلد ، وتحول إلى تيس لا يرى بذلك بأساً .

إن تحريم الخلوة والاختلاط إنما هو وقاية للمجتمع من الانحرافات ، ليستمر فى مسيرته الخيرة ، ويواصل جهوده فى بناء الفرد الصالح الذى هو اللبنة القوية فى المجتمع الإنسانى ، والإسلام لم يحرم الخلوة والاختلاط فى المجتمع الإسلامى فقط ، ولكنه يحرمهما فى كل المجتمعات على حد سواء ، وذلك لأن الاختلاط بين الجنسين أشبه ما يكون بالحمى الوافدة التى لا تستقر فى مكان ، ولا ترضى بأن يكون لها وطن لا تتعداه ، فعدوى الاختلاط سريعة التنقل ، ونحن لا نأمن من إن أصيب بها مجتمع مجاور أن تتخطاه متحدية إلى المجتمع الكبير ، وكما أن الحمى لا تميز بني القوى والضعيف فالاختلاط كذلك لا يميز بين المسلم وغيره ، بل يشيع وينتشر فى كل الأوساط مادامت الظروف مهيأة ، والنفوس متقبلة .

لأجل هذا حرمهما الإسلام ، لينشأ الشباب على الفضيلة ، ويتربوا على مكارم الأخلاق والعفة ، وليطهر المجتمع من الرذائل ، وتصبح الأمة قوية عزيزة مرهوبة الجانب عظيمة السلطان .

وبهذا يكون الإسلام قد عالج المشكلة بطريقة موضوعية ، وقدم للشباب نماذج تربوية عالية ، حين عرف الداء وشخصه ، وقدم الدواء بناء على دراسات نفسية واجتماعية ، فأحاط الشباب بالرعاية منذ طفولتهم ، ونشأهم على الفضائل وهم لا يزالون صبيانا ، حتى إذا شب الطفل وترعرع أخذ بيده إلى المسجد ليتربى هناك تربية أخلاقية ودينية ، ورسم له منهج التربية متكاملا فأغلق نوافذ الشيطان إلى قلبه حتى لم يعد هناك باب يمكنه الولوج منه ، ووضع له الضمانات اللازمة لسلامته فملأ الفراغ الذى يعكر عليه صفو الحياة ومباهجها ، وأمر بالتستر وعدم إبداء الزينة لئلا يتعرض للفتن والمحن ، وحرم الاختلاط والخلوة ليتفرغ لما يكلف به من مهام الأمور وعظائمها .

ولقد أثمر هذا المنهج الرشيد ثمرة ملأت الدنيا سعادة وفلاحا ، وعمت الأرض خيراتها من مشرقها إلى مغربها ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، و إن الله لمع المحسنين ﴾[1] .

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٦٩ .

الباب الثانى

الجندية

واجباتها وحقوقها

الجندية هى مجموعة الرجال القادرين غير المعذورين فى الدولة الإسلامية سواء كانوا عسكريين أم مدنيين ، إذ كل رجل فى الإسلام ممن ذكرت جندى تحت السلاح ، يحمل سلاحه إذا اقتضى الأمر ، ويخوض المعارك إذا جد الجد .

فإذا كان من الرجال المعذورين فإنه يؤدى واجبه نحو دينه وأمته بانتظامه فى عمله الذى يقوم به ، فالتاجر فى متجره ، والصانع فى مصنعه ، والزارع فى مزرعته والموظف فى مكتبه ، وكل هؤلاء وأولئك جنود .

ولا شك أن كل واحد منهم على ثغرة من ثغرات الإسلام ، فهو يحافظ عليها ، ويدافع عنها حتى لا تؤتى أمة الإسلام من قبله .

كل رجل فى الأمة الإسلامية جندى على أهبة الاستعداد ، سلاحه تحت رأسه ، وروحه على كفه ، وأمره فى يد قيادته ، إذا نادى منادى الجهاد ، يا خيل الله اركبى لم يتخلف منهم أحد ، يترك الرجل تجارته فعند الله تجارة لن تبور ، ويودع أهله وعشيرته وله فى الجنة زوجات من الحور العين ، ويترك كذلك مزرعته ومصنعه ومكتبه وله عند الله خير العوض .

وضرب الجنود المسلمون أروع المثل فى تاريخ البشرية بمالا تعرف له الدنيا نظيرا من قبل ، سواء كان ذلك فى الشجاعة والصبر ، أم فى البذل والإيثار ، أم فى التضحية بالنفوس والأموال ، وكانت طاعتهم لقيادتهم ، وولاؤهم لمبادئهم ، وترفعهم عن محقرات الأمور وسفاسفها مما جعل لهم فى تاريخ الجندية شخصية متميزة إذا ذكرت الجندية أو تحدث عنها المتحدثون .

شهد بذلك العدو قبل الصديق ، ولم ينكره أحد من المؤرخين المحققين ، حتىٰ أصبح الجندى المسلم غرة فى تاريخ الإنسانية الطويل ، لقد رباهم الإسلام على عينه و اصطنعهم لحمل رسالته ، فكانوا أبر الأبناء بوعودهم ، وأوفى من عاهد بعهودهم ، ولقد ضبط الإسلام سلوكهم بآدابه ، وهذب غرائزهم بمبادئه وتعاليمه فانتزع من نفوسهم حب الغارة لمجرد السلب والنهب ، وغرس فيها حب الجهاد فى سبيل الله ، واستل من قلوبهم حمية الجاهلية وعنجهيتها ، وأحل محلها أخوة الإسلام وتواضعه ، وبغض إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وحبب إليهم التقوى والفضيلة والإيمان ، فأصبحوا بذلك جديرين بأن يكونوا جند الله ، فاستحقوا بذلك موعود الله : ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[1] .

والإسلام لم يسخر هؤلاء الجنود لمآرب ذاتية ، ولم يستغل مشاعرهم الخيرة لمصالح شخصية ، بل رغبهم فى الجهاد لإعلاء كلمة الله ، ونشر دينه ، وهداية البشرية ، وحثهم على مقاتلة عدو الله وعدوهم للقضاء على الظلم وإقامة العدل وتحقيق أسمى المبادىء التى عرفتها الإنسانية .

الجندية فى الإسلام شرف رفيع لا يرقى إليه إلا الشجاع المغوار ، لأن الإسلام أمر بالثبات وحرم الفرار يوم الزحف ، وجعله من الكبائر ، قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾[3].

ومن أجل هذا العمل العظيم الذى يقوم به الجنود فى الإسلام ، ومن أجل هذا الجهد الضخم الذى لا يستطيعه إلا المؤمنون أعظم الله - تعالى - أجر هؤلاء الجنود ، ولم يحرمهم جزاء صنيعهم فى الدنيا ، وضمن لهم الأجر العظيم فى

---

(١) سورة الصافات : الآية ١٧٣ .
(٢) سورة الأنفال : الآية ٤٥ .
(٣) سورة الأنفال : الآية ١٥ - ١٦ .

الآخرة ، فأباح لهم الأسلاب والغنائم فى الدنيا ، وأعد لهم فى الآخرة جنات النعيم ، قال ﷺ : « تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهادا فى سبيلى ، وإيمانا بى ، وتصديقا برسلى ، فهو على ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر وغنيمة »[١] .

واجبات الجنود

يعتبر الإسلام من أوائل النظم التى جعلت للجنود حقوقا فى مقابل الواجبات التى كلفهم بها ، وذلك لأن الإسلام يقدر الناس أقدارهم ، ولا يغمطهم حقوقهم فكل واجب يقابله حق ، نعم إن الناس جميعا عبيد الله – عز وجل – وليس للعبد لدى سيده حقوق إلا ما تفضل به السيد عليه ، والله – تبارك وتعالى – هو المنعم المتفضل ، وقد اقتضت رحمته بعباده أن يعطيهم الأجر مقابل ما يقومون به من الأعمال فضلا من الله ونعمة ، ووعدهم بذلك والله لا يخلف الميعاد .

وواجبات الجنود فى الإسلام كثيرة وعظيمة بقدر ما يقومون به من الأعمال العظام ، ونحن نجملها هذه الواجبات فيما يأتى :



(١) رواه مسلم – الإمارة – فضيلة الجهاد والخروج فى سبيل الله تعالى . والكلمات (جهادا ، وإيمانا وتصديقا) منصوبة على أنها مفعول له وتقديره لا يخرجه المخرج أو يحركه المحرك إلا للجهاد والإيمان والتصديق . النووى على مسلم (الناشر)

الفصل الأول

١ - الولاء :

الولاء هو الحب والتناصر والتحالف ، وهو بهذا المعنى من أوجب واجبات الجنود لقيادتهم ومبادئهم ، لأن الجندية الصحيحة لا تتحقق إلا بالحب المتبادل بين الجنود والقيادة ، والقيادة المخلصة لا توجد إلا بالتناصر والتحالف بينها وبين جنودها .

ومن المعلوم فى الإسلام أن المسلم لا يمنح ولاءه إلا لأخيه المسلم جنديا كان أم قائدا ، ولا يجوز له مطلقا أن يوالى غير المسلمين مهما كانت صلتهم به ، آباء كانوا أم إخوانا أم أزواجا أم عشيرة ، قال - تعالى - : ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ﴾[١] .

إن الله - تبارك وتعالى - قد ربط بين قلوب المؤمنين برابطة الإيمان فأغناهم به عن كل رابطة ، ذلك لأن رابطة الإيمان رابطة روحية علوية ، تستمد قوتها من الله - عز وجل - وتأخذ سموها ورفعتها ودوامها من ديمومة الحق الذى يرفدها دائما بالدوافع التى تزيدها مع مرور الأزمان قوة وسموا واستمراراً .

وما عدا رابطة الإيمان فإنها روابط مادية أرضية تزول بزوال موجباتها فرابطة الأبوة والبنوة ، ورابطة الأخوة والزوجية ، ورابطة العشيرة والقرابة ، كلها لا تزن عند الله شيئا متى ما خلت وتجردت من رابطة الإيمان .

---

(١) سورة المجادلة : الآية ٢٢ .

لهذا لم يعترف القرآن الكريم برابطة البنوة التى بين نوح - عليه السلام - وبين ابنه الذى كفر ولم يركب معه الفلك ، وذلك حين يأتى الطوفان مخيفا هائلا وينزعج نوح من أجل ولده المحروم من رحمة الله لعصيانه وتمرده .

يقول نوح - عليه السلام - : ﴿ رب إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق ﴾ فيرد الله - عز وجل - دعوى نوح بقوله - تعالى - : ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾[1] إنها رابطة لحم ودم ولكنها خالية تماما من الإيمان لهذا لم يعترف بها القرآن .

وكما رفض رابطة البنوة السابقة رفض كذلك رابطة الأبوة بين إبراهيم - عليه السلام - وبين أبيه آزر ، وذلك حين يعرض القرآن الحوار الذى دار بين إبراهيم و أبيه ، والذى ينتهى بقطع الرابطة والعلاقة التى بينهما ، حيث يقول إبراهيم - عليه السلام - : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا ﴾[2] .

وهكذا ترفض رابطة الأخوة بين مصعب بن عمير - رضى الله عنه - وبين أخيه عزيز فقد أسر عزيز فى غزوة بدر ، ورآه مصعب - رضى الله عنه - أسيرا فى يد أحد المسلمين فقال مصعب لمن أسر أخاه : « اشدد يدك عليه ، فإن أمه ذات مال ، وعسى أن تفتديه منك بمال كثير » .

فيقول عزيز وقد سمع مقالة أخيه : « أهذه وصاتك بأخيك يا مصعب ؟ » فيرد مصعب عليه أخوته ، ويقول : « لست أخى ، بل هو أخى دونك »[3] .

ويأتى دور رابطة الزوجية الخالية من رابطة الإيمان فترفض كما رفضت سوابقها ورابطة الزوجية من أوثق الروابط وأمتنها ، ولكنها حين لا تبنى على أساس من الإيمان فإنها لا تغنى عن صاحبها شيئا .

---

(١) سورة هود : الآية ٤٥ - ٤٦ .
(٢) سورة مريم : الآية ٤٨ .
(٣) سيرة ابن هشام : ٦٨٦/٢ طبعة دار الفكر .

والقرآن الكريم يضرب لنا مثلا لذلك بزوجتى نوح ولوط – عليهما السلام – فإنهما خانتا زوجيهما ، وتمالأتا مع أعداء الله والرسالة فلم تغن عنهما رابطة الزوجية ولو كانت مع نبيين كريمين شيئا ، ولم تحل بينهما وبين الخلود فى النار ، قال – تعالى – : ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾(١) .

ولم تكن رابطة القرابة والعشيرة بأحسن حالا من غيرها من الروابط السالفة لقد أبى الإسلام الاعتراف بها لخلوها من الإيمان ولو كانت قرابة من الدرجة الأولى فهذا أبو لهب – عبد العزى بن عبد المطلب – عم رسول الله ﷺ ترد عليه قرابته ، ولم تغن عنه شيئا ، ونزلت فى حقه سورة من القرآن الكريم تسفه رأيه وتنذره بالويل والثبور ، وتتوعده بألوان من العذاب تشيب لهولها الولدان ، وستظل السورة تتلى على ألسنة المؤمنين كعنوان لرفض أقوى الروابط المادية التى لا تقوم على أساس من الحق والإيمان ، وسيظل يرددها المؤمنون إعلانا منهم لهذا المبدأ القويم الذى قرره القرآن الكريم ، يقول الله – تبارك وتعالى – : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد ﴾(٢) .

والقرآن الكريم يؤكد هذا المعنى فى آيات متعددة بما لا يدع فرصة لأى نوع من الموالاة يكون بين المؤمنين وغير المؤمنين مطلقا ، فلا ولاء بين المؤمنين وبين اليهود والنصارى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ﴾(٣) .

ولا ولاء بين المؤمنين والمنافقين ﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله ﴾(٤) .

---

(١) سورة التحريم : الآية ١٠ .
(٢) سورة المسد .
(٣) سورة المائدة : الآية ٥١ .
(٤) سورة النساء : الآية ٨٩ .

ولا ولاء بين المؤمنين وأعداء الله وأعداء المؤمنين مطلقا ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾(١) .

ولا ولاء بين المؤمنين وبين المؤمنين الذين لم ينضموا للجماعة المؤمنة المكافحة التى تتصدى لأعداء الإسلام ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ﴾(٢) .

ثم تأتى آية التوبة فتفصل فى المسألة دون محاباة أو مجاملة فتنهى عن الموالاة بين الأبناء المؤمنين وبين آبائهم وإخوانهم . يقول الله – تعالى – : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾(٣) .

وتعقب عليها الآية التى تليها فتحسم الأمر حسما لا يقبل التردد ولا القيل والقال ، فيضع الله – عز وجل – كل أنواع الروابط التى تعارف عليها الناس – الأبوة والبنوة والأخوة والزوجية والعشيرة والقبيلة – ويضاف إليها كل متاع الدنيا وزخارفها : الأموال التى نشقى فى تحصيلها ، والتجارة التى نحرص على رواجها ، والقصور التى نتباهى بتشييدها ، يضع ذلك كله فى كفة ، ويضع حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله فى الكفة الثانية ، ثم يهدد الذين ضلت أحلامهم فآثروا الأولى على الآخرة ، وفضلوا الفانية على الباقية ، فيقول – جل جلاله – : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(٤) .

ونحن نرى من هذا العرض لآيات القرآن الكريم أن الإسلام لم يعترف بتلك

---

(١) سورة الممتحنة : الآية ١ .
(٢) سورة الأنفال : الآية ٧٢ .
(٣) سورة التوبة : الآية ٢٣ .
(٤) سورة التوبة : الآية ٢٤ .

الروابط كلها مادامت متجردة عن الرابطة الحقيقية وهى رابطة الإيمان والعقيدة وهذه هى الرابطة الحقيقية التى تنشد المجتمع بعضه إلى بعض ، وتربط بين الناس ولو لم يكن بينهم صهر ولا نسب ، وهى التى يكون على أساسها الولاء والمحبة والتناصر يقول – تعالى – : ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾[1] .

ونلاحظ أن الرسول ﷺ وهو الذى قطعت السورة الكريمة ما بينه وبين عمه من الولاء والمحبة والقرابة يقول فى سلمان الفارسى : « سلمان منا أهل البيت »[2] .

إن الإسلام الذى لم يعترف بتلك الروابط لا يسمح بإقامة علاقات بين المسلمين وغيرهم مبنية على قواعد الولاء والمحبة والمودة ، لأن ولاء المؤمنين لا يكون إلا للمؤمنين ، وحب المسلمين لا يكون إلا لإخوانهم المسلمين قال – تعالى – : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ﴾[3] .

إن موالاة غير المؤمنين مغامرة خطيرة ، قد تؤدى إلى الخروج من حظيرة الإيمان ، لأن الولاء هو الحب والمناصرة ، وإذا حصل هذا بين المؤمنين وأعداء الدين ، فإنه يكون حبا للباطل ومناصرة له ، وذلك هو الكفر الصريح ، ولهذا قال الله – تبارك وتعالى – : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ﴾[4] وقال – جل شأنه – : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾[4] .

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١٠ .
(٢) رواه الطبرانى فى الكبير .
(٣) سورة التوبة : الآية ٧١ .
(٤) سورة المائدة : الآيتان ٥٧ ، ٥١ .

العقيدة أساس الولاء :

العقيدة هى الأساس الذى يبنى عليه الولاء فى الإسلام لأن الأصل أن المسلم لا يوالى إلا المسلم حيث تجمع بينهما عقيدة التوحيد ، فإذا اختلفت العقيدة فلا موالاة ولا تناصر .

وكما أن غير المسلمين يوالى بعضهم بعضا مهما اختلفت نحلهم وعقائدهم قال – تعالى – : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ﴾(١) فكذلك ينبغى أن يكون المسلمون فالموالاة حق للمسلم على المسلم .

فاليهود والنصارى يوالى بعضهم بعضا ، بل ويوالون الملحدين والمنافقين ، ولا يتورعون عن محالفتهم ومناصرتهم ، والواقع التاريخى يصدق ذلك كله مادام العدو هو الإسلام .

إن المفاصلة فى هذا الأمر يجب أن تكون حاسمة صارمة ، تقطع حالة التردد وتقضى على ما فى النفوس من الحيرة ، فلا تحالف بين المؤمنين وغيرهم ولا تناصر ولا مودة ، وإنما هو استعلاء الإيمان على الكفر بأسمائه المختلفة .

وينبغى أن نعلم أن التسامح فى معاملة غير المسلمين ليس من الموالاة ، فنحن لم ننه عن ذلك ، بل يجوز لنا برهم والإقساط فى معاملتهم ماداموا غير محاربين يقول الله – تبارك وتعالى – : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ﴾(٢) .

قد تكون هذه الآية سببا فى الخلط بين التسامح والولاء ، وقد يكون هذا الخلط ناشئا عن مغالطة وسوء قصد ، والحق الذى يجب أن يكون واضحا فى أذهان الناس أن التسامح إنما يكون بين الأفراد فى المعاملات التى تكون بينهم ، أما الولاء فإنه يكون بتحقيق التحالف والتناصر ، والفرق واضح بين الأمرين ، يلمسه أولئك الذين يعيشون بوجدانهم وقلوبهم للإسلام ، و لا يحسه الذين

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٧٢ .

(٢) سورة الممتحنة : الآية ٨

انتسبوا إلى الإسلام ، ولم يتجردوا له ، وسموا مسلمين وما هم بمسلمين .

فالتسامح إذن غير الموالاة ، ولهذا أجاز الله أن نتسامح مع غير المسلمين فى التعامل لأن ذلك من حسن الخلق الذى يدعو إليه الإسلام ، وحرم الموالاة واعتبرها مع غير المسلمين نوعا من الردة يجب أن يتنزه عنه المسلمون ، فإنه - سبحانه وتعالى - بعد أن بين أن من يوالى اليهود والنصارى يكون منهم قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾[١] .

ثم عقب على هذه الآية الكريمة بقوله - تعالى - : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾[٢] .

وهكذا ينحصر ولاء المؤمنين ، فلا يكون إلا لله ولرسوله وللمؤمنين ، وبهذا لا يكون ولاء مطلقا بين المؤمنين وغيرهم ، بل لا يجوز للمسلمين أن يحدثوا هذا النوع من الولاء مهما كانت الأسباب ، لأن النصر متوقف عليه ، قال - تعالى - : ﴿ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾[٣] .

وتلك نتيجة حتمية لهذه الموالاة ، فإن الله - عز وجل - لا يسلم أولياءه ، ولا يمكن لأعدائه ، وإذا حدث هذا فإنما يكون بسبب تقصير المؤمنين وإعراضهم عن دين الله .

ومن هنا نتبين حقيقة ما يشيعه المتخاذلون من أن موالاة غير المؤمنين للتغلب على عدو مشترك جائز ، فهذا الكلام وهم محض ، والأحداث التاريخية تشهد بخلاف ذلك ، فغير المسلمين لا يتحالفون مع المسلمين إلا مرغمين ، وإذا أتيحت لهم فرصة الخيانة ونقض العهد سارعوا إليها ، وأما مع بعضهم فإنهم

---

(١) سورة المائدة : الآية ٥٣ .
(٢) سورة المائدة : الآية ٥٥ .
(٣) سورة المائدة : الآية ٥٦ .

يتحالفون ويتناصرون وقد ثبت تحالف المنافقين مع اليهود ، وتحالف المشركين مع اليهود كذلك ضد الإسلام والقرآن الكريم يقرر هذا بوضوح فى قوله - تعالى - : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾[1].

عدم الموالاة لا يستلزم الإكراه :

ولن يكون عدم الولاء مستلزما لإكراه غير المسلمين على الدخول فى الإسلام ، لأن الله - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾[2] ، وذلك لأن الإكراه لا يوصل الإيمان إلى القلب ، ولا يثبت العقيدة فى النفس ، بل يجعل الإيمان كلمات تتردد على الألسنة ، ولا يتجاوز بالعقيدة حد الحناجر ، وهذا الإيمان وتلك العقيدة لا يعترف بهما الإسلام فالإسلام يطالب الناس بالإيمان عن اقتناع ، ولا يقبل العقيدة إلا أن تكون قائمة على حجة وبرهان .

فمتى كان الإيمان بغير اقتناع ، والعقيدة خالية من الحجة والبرهان يكون ذلك خداعا لا يقره الإسلام ، بل هو بصراحة حقيقة النفاق التى هى أخبث أنواع الكفر ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾[3] .

مواقف رائعة :

فهم المسلمون أن ولاءهم لا يكون إلا لقيادتهم ، وإخلاصهم لا يكون إلا لعقيدتهم ، وجهادهم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله ، فحققوا ذلك كله فى أنفسهم ، وطبقوه على حياتهم ، فمحضوا ولاءهم للقيادة ، وقطعوا علائقهم بكل من يخالفهم فى العقيدة ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١١٩ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .
(٣) سورة البقرة : الآيتان ٩ ، ١٠ .

وتاريخ المسلمين حافل بالمواقف الرائعة التى تدل على فهمهم العميق لمعنى الولاء الذى لا يجوز لهم أن يمنحوه إلا لقيادتهم وإخوانهم المسلمين .

ونكتفى هنا بأمثلة توضح هذا الفهم الدقيق الذى استقر فى عقول المسلمين ، وفى الأمثلة إيمان فياض ، وتجرد نادر ، وتمحيص للولاء لمن يستحق الولاء ، أحدها موقف رجل من أبيه ، والثانى موقف امرأة من أبيها وسنلاحظ أن موقف المرأة لا يقل روعة وإعجابا عن موقف الرجل ، مع التفاوت بينهما فى الدوافع والصفات وقوةالمواجهة . والثالث موقف رجل من أمه .

أما الرجل فهو عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول ، وقد سجل له التاريخ موقفا هو أروع ما سجل التاريخ لرجل تولى الله ورسوله والمؤمنين دون أبيه وعشيرته وقرابته ، وآثر إيمانه عل كل عزيز لديه .

ولنترك ابن إسحاق يروى لنا القصة على طبيعتها فيقول : « حدثنى عاصم بن عمر عن قتادة ، أن عبد الله أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك ، فإن كنت ولابد فاعلا فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها رجل أبر بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار .

فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا »[1] .

وكان ابن أبى قد قال كلمته التى حكاها عنه القرآن الكريم ، تلك الكلمة التى تنم عن نفاق لئيم ، وخبث عميق ، قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، وبلغت تلك الكلمة رسول الله ﷺ كما بلغت عبد الله ابن عبد الله بن أبى ،فذهب إلى رسول الله ، وحدثه الحديث السالف ، ورد عليه الرسول بما يدل على عفوه عنه .

---

(١) سيرة ابن هشام : ١١١٦/٣ .

ولكن عبد الله – رضى الله عنه – لم يرض بهذا الموقف السلبى ، وأبى إلا أن يعلن على الملأ أن رسول الله ﷺ هو الأعز ، وأن أباه هو الأذل ولو كان سيدا فى قومه ، رئيسا على قبيلته ، ولو كان مرشحا لأن يكون ملكا على المدينة قبل دخول الإسلام إليها .

فلم يكد الناس يرجعون من غزوة بنى المصطلق التى حدث فيها ما حدث حتى وقف عبد الله على باب المدينة ، ومنع أباه من دخولها حتى يأذن له رسول الله ﷺ .

روى المحققون من أهل السير قالوا : « إن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبى على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه فلما جاء أبوه ، قال له ابنه : وراءك .

فقال : مالك ؟ ويلك .

فقال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الذليل .

فلما جاء الرسول ﷺ – وكان إنما يسير (ساقة) أى فى آخر الجيش لينظر المتخلف والضال والمحتاج إلى معونة – فشكا إليه عبد الله بن أبى ابنه .

فقال ابنه – عبد الله – : والله يا رسول لا يدخل حتى تأذن له ، فأذن له رسول الله ﷺ .

فقال عبد الله : أما إذا أذن لك رسول الله ، فجز الآن »(١) .

هذا موقف رجل مؤمن من أبيه المنافق ، وليس أبوه صعلوكا فأراد أن يتخلص منه ليكفى نفسه شر النفقه عليه ، ولا هو برعديد فخشى ان يلحقه عار جبنه ، ولا هو بوضيع فحاول أن يمحو حقارة نسبه ، بل كان أبوه

---

(١) تاريخ المدينة لابن شبة ص ٣٦٧ ، وابن كثير فى البداية والنهاية : ١٥٨/٤ ، وحدائق الأنوار لابن الربيع : ٥٦١/٢ .

ثريا فى قومه ، شجاعا فى عشيرته ، متوجا على أهل قريته ، فلماذا وقف عبد الله من أبيه هذا الموقف ؟

إن عبد الله رجل مؤمن علمه إيمانه أن يكون ولاؤه لدينه وقيادته فطبق هذا العلم فى حياته العملية ، وأراد بذلك أن يمحص ولاءه لقيادته ويعلن إخلاصه لعقيدته ، فوقف هذا الموقف الرائع الجرىء .

وأما المرأة فهى أم حبيبة بنت أبى سفيان زوجة رسول الله ﷺ و قد وقفت من أبيها – أبى سفيان – موقفا لا يقل روعة عن موقف عبد الله من أبيه ، بل يزيد عليه أنه من امرأة بارة رقيقة العواطف حانية القلب .

جاء أبوها إلى المدينة المنورة – وهو لا يزال على شركه – آملا أن يجير بين المسلمين والمشركين قبل غزوة الفتح ، وكان المشركون قد نقضوا العهد الذى بينهم وبين المسلمين فعزم الرسول ﷺ على غزوهم ، فلما بلغ المشركين ذلك أرسلوا أبا سفيان لعله يفلح فى تهدئة الخواطر ، وينجح فى إيقاف الحرب قبل أن تشتعل نارها .

قدم أبو سفيان إلى المدينة سفيرا عن قريش ، وكله أمل فى أن تنجح سفارته فيعود إلى قريش ، وقد تأكدت زعامته ، ويبدو أنه كان معتمدا على مركز ابنته عند رسول الله ﷺ فإن الرسول قد تزوجها وهى لا تزال فى الحبشة مهاجرة مع زوجها الذى تنصر وفارقها ومات هناك على الكفر .

وحاول أبو سفيان أن يجد من المسلمين من يساعده فى تحقيق هدفه وأداء مهمته ، ولكنه باء بالفشل والخسران ، وعندئذ توجه إلى بيت رسول الله ﷺ حيث تقيم ابنته أم حبيبة ، فدخل عليها وكان فراش رسول الله مبسوطا ، فأراد أبو سفيان أن يجلس عليه .

وهنا أسرعت أم حبيبة – رضى الله عنها – وجمعت الفراش فطوته . وحسب أبوها أنها إنما طوت الفراش لأنه غير لائق بمقام سيد قريش وستأتيه بما هو خير منه ، ولكنها لم تفعل ، فسألها أبوها ، أى بنية ، هل رغبت بأبيك عن الفراش أم رغبت بالفراش عن أبيك ؟

وفوجىء أبو سفيان بجواب حاسم لم يتوقعه حين قالت الزوجة الوفية المؤمنة : « إنه فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس فأحببت ألا تجلس عليه »[1] .

هكذا أجابت أم حبيبة – رضى الله عنها – أباها .

ومن أبوها ؟

إنه أبو سفيان سيد قريش ، وعلم من أعلامها ، إنه الرجل الذى تهابه الرجال لمكانته فيهم ، ولكن أم حبيبة لم تهبه كامرأة ، ولم تهبه كابنة له ، لأن حقيقة الإيمان حينما تستقر فى النفس ، ويطمئن بها القلب تطرد منه الخوف من غير الله – عز وجل – ولأن الإيمان الحق يأبى أن يكون حب المؤمن وولاؤه لغير قيادته وكان قلب أم حبيبة قد امتلأ بتلك الحقيقة فلم يعد فيه مكان لموالاة أحد غير المؤمنين .

إن أم حبيبة المرأة المؤمنة والابنة البارة استطاعت بقوة إيمانها أن تسيطر على عواطفها فلم تعد تتحرك نحو أقرب الناس إليها ، وتغلبت بقوة إرادتها على نزعتها البشرية فلم تقدم أباها ، وأخلصت حبها وولاءها لقيادتها .

ونحن نلاحظ أن أم حبيبة حينما طوت الفراش قالت : « إنه فراش رسول الله » ، ولم تقل فراش زوجى ، وذلك لأن ارتباط المرأة بأبيها أوثق من ارتباطها بزوجها ، فالعلاقة بين الأب وأبنائه لا تنفصم أبدا ، وأما علاقة المرأة بزوجها فإنها قابلة للانفصام .

وليس لكلمة السيدة أم حبيبة – رضى الله عنها – معنى إلا أن إخلاصها لقيادتها كان أعظم فى نفسها من إخلاصها لأبيها ، ولهذا قالت : « إنه فراش رسول الله » .

إن المرأة عادة تضعف أمام عواطفها ، وتفتر همتها إزاء وجيب قلبها المتأثر بنزعتها الأنثوية ، ولكن أم حبيبة قد استولى الإيمان على قلبها فاستطاعت كبت

---

(١) ابن هشام : ١٢٣٧/٤ .

عواطفها والتحكم فى نزعاتها والسيطرة على قلبها فأصبحت عواطفها خلف إيمانها ، وخفقات قلبها طوع عقيدتها ، وقد روضت نزعاتها البشرية حتى لا تتحرك إلا لتحقيق الغاية السامية التى من أجلها هبطت رسالة السماء على أهل الأرض .

هكذا كانت أم حبيبة - رضى الله عنها - أمام أبيها جاهرته بالعداء ، وأكنت لقيادتها خالص الولاء .

وهذا سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - وكان من أبر الناس بأمه حمنة بنت أبى سفيان ، أسلم سعد مبكرا ، وهو فى ريعان شبابه ، فكان من السابقين الأولين ، ونقمت أمه منه دينه الجديد ، وبذلت أقصى ما يمكن أن يبذله الإنسان من جهد لترده إلى دين آبائه وأجداده ، ولكن سعدا لم يكن بالغر الذى تؤثر فيه أمثال تلك الحيل ، فقد شده الإيمان إلى جماعة المسلمين ، وارتبط قلبه بالدين الجديد ، فلم تؤثر فيه محاولاتها .

ورأت أم سعد أن تستغل بره بها ، وأن تستعمله سلاحا لعله يمكنها مما فشلت فيه حيلها ، فاستعطفته بحقها عليه ، وانتصر سعد على عاطفته ، وأصر على التمسك بدينه .

وهنا وعندما أعيت الحيل العجوز ، لجأت إلى التهديد والوعيد ، وأضربت عن الطعام والشراب ، وأخبرته بأنها ستظل هكذا حتى تموت جوعا ، فيعير ولدها سعد بموتها ، يقال له : يا قاتل أمه .

ووقف سعد أمام امتحان خطير ، فهو الآن بين أمرين لا حيلة له إلا أن يقبل أحدهما ، أيضحى بدينه ، ويرضى أمه حتى لا يعير بميتتها التى تستنكرها العادات العربية الموروثة ، أم يضحى بأمه ، ويعتصم بدينه ، وليكن ما يكون ؟

ولم تطل وقفة سعد أمام هذا الاختيار الرهيب ، وحسم الأمر فى سرعة لم تتصورها أمه التى كانت تعلق الآمال الكبار على بره بها وعطفه عليها ، والتى لم تشك قط فى أنه سيهن أمام تهديدها ، ويضعف تحت ضغط وعيدها ، واتخذ سعد - رضى الله عنه - قراره الذى أزهل أمه ، وأزهل كل من كان حولها حين

قال : « يا أماه ، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى ، فكلى إن شئت، وإن شئت فلا تأكلى »[1] .

وفوجئت الأم بهذا القرار الذى لم تتوقعه ، ويئست من عطف ولدها ، وعدم خشيته من أن يعير بموتها فعادت إلى ما كانت عليه وأكلت وشربت .

وهكذا آثر سعد عقيدته على أمه ، واستمسك بإيمانه ولم يهن أمام ضغطها ، ذلك لأن الإيمان قد قطع علاقته بكل ما حوله سوى الجماعة المسلمة ، فهى الحقيقة بحبه وتقديره ، وهى الجديرة بإخلاصه وولائه .

هذه نماذج لا تزال حية فى قلوبنا وإن طال عليها الزمن ، ولم تختف عن أبصارنا وإن وارى الثرى أصحابها ، وإن الكلمات التى أظهرت فيها ولاءها لقيادتها لتطرق أسماعنا عبر القرون الطويلة السحيقة التى مرت عليها ، فعبد الله يقول لأبيه : « والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل » وأم حبيبة تقول لأبيها : « هذا فراش رسول الله ، وأنت رجل مشرك نجس ، فأحببت ألا تجلس عليه » وسعد يقول لأمه : « يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى » .

هكذا يجب أن يكون المؤمن ، ولاؤه لقيادته مبنى على أساس عقيدته ، لا تضعفه عاطفة مهما قويت ، ولا توهنه قرابة مهما قربت ، ولا تصرفه عن خطته أبوة رحيمة ، ولا أمومة رؤومة ، ولا بنوة بارة كريمة .



(١) رواه الترمذى .

٢ - الالتزام :

ذلك هو الواجب الثانى من واجبات الجنود المسلمين ، والالتزام الذى نقصده هو ما يعرف اليوم فى الجيوش الحديثة باسم (الضبط والربط) بمعنى أن الجنود يجب أن يكونوا وقافين عند حدود الأوامر والنواهى ، فلا يعصون ولا يتمردون ، ولا يخالفون أمرا تصدره القيادة .

والالتزام بهذا المعنى لم يكن معروفا لدى العرب ، بل لم يتعودوه فى حياتهم الخاصة والعامة ، فكانوا يتصرفون حسبما تمليه عليهم أهواؤهم ورغباتهم ، فلما جاء الإسلام ضبط سلوكهم ، وصنع منهم رجالا قادرين على كبح أهوائهم ، والتحكم فى رغباتهم ، يعرفون كيف يلتزمون متى يطلب منهم ذلك .

نعم ، لقد ضبط الإسلام سلوك الجنود ، وعلمهم كيف يلتزمون بأوامر القيادة ، فلم يعد تصرفهم عشوائيا صادرا عن مجرد الهوى والرغبة ، بل أصبح كل شيء فى حياتهم تحت تصرف القيادة ، ووفق أوامرها ، لا يعمل أحد عملا حتى يستأذن ، ولا يتحرك حركة إلا بعد موافقتها ، وقد أثنى الله - عز وجل - عليهم بقوله - جل شأنه - : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله ، إن الله غفور رحيم ﴾[1] .

إن المؤمن حقا لا يمكن أن يصدر إليه أمر من قيادته ثم يتردد فى تنفيذه ، فالتردد فى تنفيذ أمر الله سمة من أبرز سمات المنافقين ، والإبطاء فى فعل شيء

---

(١) سورة النور : الآية ٦٢ .

ترغب القيادة فيه من أهم صفاتهم ، فبهذا وصفهم القرآن الكريم ، فقال – جل من قائل – : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾(١) .

ذلك لأن المؤمن إذا قال صدق ، وإذا وعد أوفى ، وإذا ائتمن أدى أما المنافق فإنه إذا قال كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أئتمن خان يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون أنهم كاذبون ، ويدعون الإيمان وما هم بمؤمنين .

قال – تعالى – : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ، أفى قلوبهم مرض ، أم ارتابوا ، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون ﴾(٢) .

أما المؤمنون فإنهم يصدعون بأمر الله دون تردد ، ويقفون عند النهى ولا يتزحزحون ، ولهذا وصفهم القرآن الكريم بذلك حيث يقول – جل شأنه – : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾(٣) .

والآية الكريمة تشير بعد ذلك إلى أن مجرد أن يعطى المؤمن نفسه حق الاختيار بعد صدور الأمر معصية يترتب عليها ضلال مبين ، ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقط ضل ضلالا مبينا ﴾(٣) .

ويقول – سبحانه – : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾(٤) .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٤٢ – ١٤٣ .
(٢) سورة النور . الآية ٤٧ – ٥٠ .
(٣) سورة الأحزاب : الآية ٣٦ .
(٤) سورة النور : الآية ٥١ ، ٥٢ .

ويوضح – تبارك وتعالى – أن الفوز والسعادة فى طاعة القيادة ، وتنفيذ أوامرها ، فيقول فى الآية التى تلى الآية السابقة : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾[1] .

إن الالتزام والوقوف عند حد الأوامر والنواهى التى تصدرها القيادة الإسلامية ممثلة فى إمام المسلمين وخليفتهم ، أو فيمن ينوب عنه من أهم صفات الجندية فى الإسلام ، ومن أوجب واجباتهم ، وإن جيشا مهما كانت قوته لا يتحقق فيه الضبط والربط (الالتزام) لهو جيش مهزوم لا محالة ، وإن القيادة مهما كانت رشيدة حكيمة ، حازمة صارمة ، لا يمكن أن تحقق انتصارا وهى تقود جيشا غير ملتزم .

ذلك لأن الجنود مالم يقفوا عند الأوامر فينفذونها ، وعند النواهى فيجتنبونها تتسيب الأمور ، وينفلت الوضع ، وعندئذ تصدر القيادة تعليماتها فلا تجد من يرعاها ويتقيد بها ، وهذا هو الانحلال المؤدى إلى الضعف والوهن ، وتلك هى الفوضى التى لا ينتصر معها جيش ولا يسود معها نظام .

وفى بداية تكوين الدولة الإسلامية لم يكن المسلمون قد تمرسوا على هذا النوع من الالتزام ، وكانت تغلب عليهم حياة البداوة التى لا تعرف الانضباط ولهذا حدث ما حدث فى غزوة أحد حين لم يلتزموا بأوامر القيادة ، وخالفوا الأمر ظانين أن المعركة قد انتهت ، ولكنهم مع هذا الظن مخالفين حيث كانت الأوامر صريحة فى عدم مغادرة المكان .

فلما وقعت المخالفة كان لابد أن يلقن المسلمون درسا يستقر فى رءوسهم ، ليكون عبرة لهم ولغيرهم حتى لا تتكرر المأساة فدارت الدائرة عليهم بعد أن كانت لهم ، وقتل منهم سبعون ، وشج رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته ، ودخلت حلقتان من المغفر فى وجنتيه .

كان لابد أن يلقن المخالفون هذا الدرس الأليم ، ولو كانت المرة الأولى ، لأن التهاون فى مثل تلك الحال يجرىء على تكرارها ، وأما الأخذ بالأحوط والحزم ولو كان مؤلما فإنه يعلم الحذر ، ويجعل الإنسان لا يقع فى الخطأ مرة أخرى .

(١) سورة النور : الآية ٥٢

إن المخالفة شؤم فى حد ذاتها ، فكيف إذا كانت فى الأوامر العسكرية ؟ بل كيف إذا كانت فى أثناء المعركة ؟؟

كان لابد من الدرس ، وكان هذا الدرس مع ما فيه من المرارة والآلام تأديبا للمسلمين ، وتحذيرا للمخالفين ، ولم يكن ما نزل برسول الله ﷺ إلا إمعانا فى التأديب ، فقد كان ﷺ أحب إليهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، فإذا رآه المسلمون على تلك الحال ، وعلموا أن ذلك بسبب مخالفتهم ازداد شعورهم بخطئهم ، وأحسوا بالمرارة تملأ نفوسهم ، حينئذ يتجسم خطر المخالفة ، وتبرز عواقبها الوخيمة أمام أعينهم فلا يعودون إليها أبداً .

ويأتى بعد ذلك التهديد المخيف والوعيد المفزع للذين يخالفون أمره ﷺ قال – تعالى – : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[1] .

ولقد أثمر هذا الدرس العظيم مع قسوته على النفوس وشدته على المؤمنين حتى إنه فى اليوم التالى للمعركة عندما نادى منادى الرسول بالاستعداد لتعقب المشركين لم يتخلف أحد رغم الجراح التى لم تندمل والدماء التى لم تجف ، فكان الرجل منهم مع شدة آلامه وتقرح جراحه يتحامل على أخيه ليواصل السير مع الجيش ولم يعتذر منهم أحد .

أ – الالتزام العسكرى :

وعى المسلمون هذا الدرس جيدا ، وفهموا كل أبعاده ومراميه ، فالتزموا به ، ولم يفرطوا فى شىء بعد ذلك قل أو كثر ، سواء كان ذلك فى عهد الرسول ﷺ أم فى عهد الخلفاء الراشدين من بعده .

فكان رسول الله ﷺ يوجه الجيوش إلى المناطق النائية من أطراف الجزيرة ، فلا يتخلف أحد ، ويسيرون فى عزم الأسود ، وصلابة الجبال ، لم ترهبهم قوة العدو ، ولم تفزعهم مشقة السفر ، وجه الرسول ﷺ جيشا

---

(١) سورة النور : الآية ٦٣ .

إلى مؤتة ، قوامه ثلاثة آلاف جندى ، وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال : « إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس »(١) .

ويصدع الجيش بالأمر من غير تردد ، فيقطع مئات الأميال ليواجه جيش الروم فى عرينه ، وهو أحد أكبر جيشين معروفين فى ذلك التاريخ ، ولم يتخلف رجل واحد من ثلاثة الآلاف جندى ، وتسند القيادة إلى هؤلاء النفر الكرام فلم يعتذر منهم أحد رغم تقديرهم لكل أبعاد الموقف ونتائجه ، وكان أحد جنود ذلك الجيش خالد بن الوليد – وهو من هو فى الخبرة والعبقرية – ولم يغضب أو يتمرد حيث لم تسند إليه القيادة بل التزم وأطاع .

وصار الجيش على بركة الله ، يحدوه الأمل فى نصر الله ، حتى وصل إلى ميدان المعركة ، وهناك واجه جيش الروم فى مائتى ألف مقاتل من الروم وحلفائهم من العرب المتنصرين – لخم وجذام والقين وبهراء وبلىّ –(٢) وأخذ المسلمون يفكرون ، ماذا يفعلون ؟ وكيف يواجهون ذلك الجيش اللجب ؟؟

واجتمع القواد وأولو الرأى يتشاورون ، فقال بعضهم : نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .

ورأى عبد الله بن رواحة – أحد القواد الثلاثة – ما آل إليه أمر المسلمين فخاف أن يدب فى نفوسهم الوهن إن هم استمروا على ذلك ، فيضعفوا عن مواجهة عدوهم فقام فى الناس يذكرهم بوعد الله فقال : « يا قوم ، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد وقوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هى إحدى الحسنيين : إما الظهور وإما الشهادة » .

فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة ، ومضوا لقتال عدوهم(٣) .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٣٧٣/ م٢ .
(٢) ابن هشام : ٣٧٥/ م٢ .
(٣) ابن هشام : ١٢٠٢/٣ .

تقابل الجيشان فى معركة غير متكافئة ، نعم ، غير متكافئة من كل الوجوه وليس من حيث العدد فقط ، فإن ذلك أهون الأمور وأقلها تأثيرا على جيش تعود أن ينتصر مع قلته على عدوه مهما كانت كثرته .

ونحن لو تجاوزنا التفاوت العددى الهائل بين الجيشين المتحاربين والذى بلغت نسبته ١ - ٦٧ تقريبا ، فكيف يمكننا أن نتجاوز الوضع الأمنى لهذين الجيشين ؟

إن جيش الروم يتمتع بكل إمكانات الأمن ، فهو فى بلده ، وبالقرب من مصادر إمداداته وتموينه ، وإذا أدركته الهزيمة آوى إلى ركن شديد ، وأما جيش المسلمين فهو محروم من كل ما يتمتع به جيش العدو ، فقد غادر بلدة ، وابتعد عنها أكثر من أربعمائة ميل تقريبا ، وإذا احتاج إلى المدد أو التموين لا يجد من يسعفه ، وكذلك إذا أحس ببوادر هزيمة لم يجد من يلجأ إليه .

ولا يجوز أن ننسى ونحن نتكلم عن وضع الجيشين الحالة النفسية لهما : حيث يكون أحدهما مطمئنا فى ثكنته ، آمنا فى سربه ، لم يرهقه السفر ، ولم يتحمل مشقة نقل السلاح ، والآخر يقيم فى أرض غير أرضه ، متأهب للقاء عدوه ، أرهقه السفر ، وأكدّه حمل السلاح .

إن الذى ينظر من خلال تلك الجوانب مجتمعة لابد أن يحكم بأن النتيجة الحتمية لتلك المعركة هى إبادة جيش المسلمين لأول جولة ، ولكن هل كانت النتيجة كذلك ؟

لقد كانت المعركة غير متكافئة ، وكل ما يحيط بها يدعو إلى الخوف والقلق ، ولو أن الجيش الإسلامى بحالته تلك انسحب من الميدان ، وعاد أدراجه من حيث أتى ما كان ملوما ، ولا عتب عليه أحد ، ولكان عذره مقبولا لدى المنصفين من الأصدقاء والأعداء على حد سواء .

إن الإيمان الذى ملأ قلوب هؤلاء الأشاوس ، والالتزام الذى تعلمه هذا الجيش المناضل بأبيان عليه أن يفر من العدو مهما كانت الحالة النفسية والأمنية

ومهما تفاوتت النسبة العددية ، كما يأبيان عليه أيضا أن يعود غير ظافر بإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة .

لهذا اقتحم زيد بن حارثة جيش العدو اللجب بجيشه الصغير ، وظل يقاتل حتى شاط فى رماح القوم ، فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب ، حتى إذا ألجمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ، ثم قاتل حتى قتل ، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، وقاتل بها حتى قتل ولحق بصاحبيه .

هكذا استشهد القواد الثلاثة ، وكانت لديهم الفرصة للنجاة لو كانوا يطلبون النجاة ، وكانت الظروف المحيطة بهم تلح عليهم أن يطلبوا سبيلا آخر غير القتال والقتل ليعودوا إلى أهليهم سالمين ، ولكن هل كان الفرار ينجيهم من قدر الله ؟ وهل كانت العودة إلى المدينة ، تتفق مع حقيقة الالتزام الذى تعلموه ؟؟

إن قدر الله نافذ لا محالة ، والعودة بغير قتال مخالفة لما التزموا به من أوامر القيادة ، نعم ، إنهم بعودتهم بغير قتال سيضمنون النجاة من القتل فى تلك المعركة ولكن ، من الذى يضمن لهم النجاة من سخط الله وقد خالفوا أوامر قيادتهم ؟ وأين يذهبون ولازال تحذير الآية الكريمة غضا فى آذانهم وقلوبهم ؟

إن الدرس القاس الذى تعلموه يوم أحد لايزال ماثلا فى أذهانهم ، فكيف يفرون ؟

وكانت غزوة الخندق امتحانا عمليا لسلوك الجيش الإسلامى ومقياسا دقيقا لمدى انضباطه ، فقد وقعت تلك الغزوة فى ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية شديدة القسوة بالغة الخطورة .

فأما الظروف السياسية فإنها كانت المعركة الأولى بعد معركة أحد التى أصيب فيها المسلمون بتلك الخسائر الفادحة مما جرأ عليهم القبائل ، وطمع فيهم عدوهم ، وقد تحالف فيها اليهود مع مشركى مكة ، ونقضت بنو قريظة العهد الذى كان بينها وبين المسلمين ، مما جعل المسلمين فى مأزق لم يمروا بمثله قط .

وأما الحالة الاقتصادية فكان المسلمون فى ضائقة شديدة فكانوا يمكثون اليومين والثلاثة بغير طعام ، حتى شد المسلمون على بطونهم الحجارة ، وشد

رسول الله ﷺ على بطنه حجرين من شدة الجوع فى وقت كانوا مكلفين فيه بعمل شاق ومضن وهو حفر الخندق الذى بلغ طوله اثنين من الكيلو مترات وعرضه خمسة أمتار وعمقه ثلاثة أمتار تقريبا ، وكان لابد من حفره فى خمسة عشر يوما حتى لا يأتى العدو إلى المدينة وهم لم يتموا حفرة بعد ، فكانت تلك الظروف لا تبشر بقدرة المسلمين على مواجهة تلك المحنة .

وأما الوضع الاجتماعى فكان المنافقون فى المدينة قد أحفزهم ذلك التحالف الأثيم ، وأخذوا يتربصون بالمسلمين وهم معدودون منهم ، وراح يمنى بعضهم بعضا بهزيمة المسلمين على يد عشرة آلاف جندى من الحلفاء ، وأرجفوا بذلك بين المسلمين وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك حيث يقول الله – تعالى – : ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى ، يقولون : إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾[1] .

ولو أضفنا إلى ذلك كله الظروف الجوية التى كان يعيشها المسلمون من شدة البرد ، وعدم تمكنهم من اتقائه ، لقدرنا قسوة هذا الامتحان ، ولو عرفنا أن المسلمين قد واجهوا كل هذه الظروف بحزم وثبات وصبر وتحمل دون أن يعتذر منهم أحد إلا من كان منافقا معلوم النفاق لاستطعنا أن نحكم على مدى التزامهم ، وقدرتهم على الضبط والربط .

وإن القرآن الكريم ليصور لنا هذا الاختبار تصويرا حسيا يهز كيان الشجعان ويزلزل أقدام الصناديد حين يقول – جل من قائل – : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر و تظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾[2] .

---

(١) سورة الأحزاب . الآيتان ١٢ ، ١٣ .

(٢) سورة الأحزاب : الآيات ٩ – ١١ .

وإنك لترى فى هذا العرض السريع لهذا الموقف الحرج صورة للمسلمين موحية بوضع لا يحسدون عليه ، فقد زاغت أبصارهم ، وبلغت القلوب منهم الحناجر ، ووصل بهم الحال أن ظنوا بأن الله لن ينصرهم ، وبذلك تم الابتلاء وزلزلوا زلزالا شديدا .

لا شك أن هذا الابتلاء تمحيص للمؤمنين ، وكشف لحال المنافقين ، فتميز بذلك الفريقان ، وظهر للناس منطقان : منطق المؤمنين الصابرين المرابطين ، ويعبر عنه القرآن الكريم فى عبارة واضحة ولهجة صادقة حين يقول : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾[1] .

ومنطق المنافقين المنهزمين ، وهو منطق منطو على خبث دفين ودس خطير وقد صور لنا القرآن حالهم فقال – تعالى – : ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾[2] .

وكان بعضهم يقول لبعض : إن محمدا كان يعدنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن أن يخرج إلى الخلاء وحده[3]

فى تلك الظروف يستعد المسلمون لحفر الخندق ، ويخرج فيهم رسول الله ﷺ فيحدد لهم موضعه ، ويقسمه بين الصحابة ليحفر كل منهم جزءا منه فجعل لكل عشرة رجال أربعين ذراعا طولا فى عشرة أذرع عرضا فى خمسة عمقا[4] .

وبدأ المسلمون يحفرون ، متغلبين على كل الصعوبات التى واجهتهم من الخوف والجوع والبرد ، وبينما تحفر جماعة سلمان الفارسى – رضى الله عنه – صاحب فكرة الخندق إذ اعترضهم صخرة عاتية تكسرت عليها المعاول ، وكادت

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢٢ .
(٢) سورة الأحزاب : الآية ١٢ .
(٣) ابن هشام : ١٠٣٢/٣ بتصرف . (٤) يراجع كتابنا (تأملات فى سيرة الرسول) .

تتكسر عليها هممهم ، وأيأستهم من الحفر ، ولكنها لم تيئسهم من النصر ، فاقترح بعض المشتركين فى الحفر أن يميلوا عن الصخرة قليلا ليتمكنوا من مواصلة العمل ، فقال سلمان : « لا ، لا أميل عن خط رسمه لنا رسول الله ﷺ حتى نستأذنه » .

وصعد سلمان إلى حيث يقيم رسول الله فى خيمته التى ضربت له على جبل ذباب ، وأخبره خبر الصخرة ، فنزل معه الرسول ، وتناول المعول بيده الشريفة ، وضربها ثلاث ضربات ، فخرجت منها فى كل ضربة برقه ، فسأله سلمان - رضى الله عنه - : « بأبى أنت وأمى يا رسول الله ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ » .

قال ﷺ : « أو قد رأيت يا سلمان ؟ » .

قال : « قلت : نعم » .

قال : « أما الأولى فإن الله فتح على بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح على بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق (1) .

هكذا بلغ التزام المسلمين بالأوامر هذا الحد ، وهكذا نفذوا أوامر القيادة بكل دقة ، ولا أعرف جيشا مهما بلغ نظامه التزم جنوده بمثل تلك الدقة المتناهية .

إن أية مجموعة من البشر تكلف بمثل هذا العمل ، وتصادفها مثل تلك العقبة ، ثم يتصرف أفرادها على النحو الذى أراد بعض الصحابة أن يتصرفوا على مثله لم تكن ملومة ولا مذمومة ، ولا أحسب أحدا يخطئها فى هذا التصرف ، ولكن التربية الإسلامية الدقيقة ، وحرص المسلمين على تنفيذ أمر القيادة بمنتهى الدقة ، والدرس الذى تلقنوه يوم أحد ، وتحذير القرآن الكريم من مغبة المخالفة ، كل ذلك جعل المسلمين يلتزمون ولا يحيدون ، ولا يتصرفون حتى فى هذا الأمر اليسير الذى تقتضيه مصلحة العمل إلا بعد الحصول على إذن من القيادة الرشيدة .

---

(1) ابن هشام : ٢١٩/ م٢ .

ولا يزعم أحد أن مثل ذلك الأمر حجر على عقول الجنود ، وتقييد لآرائهم ، واحتكار للزعامة فى شخصية القائد ، فليس فى الإسلام حجر على العقول ، ولا تقييد للأفكار ، ولا احتكار للزعامة ، بل ذلك ترويض للنفوس على الالتزام وتعويد لها على الطاعة حتى يصبح الالتزام والطاعة خلقا للمسلمين .

إن الإسلام الذى أباح للجندى أن يناقش القائد لإظهار الصواب وجعل القائد ينزل على رأى الجندى متى ظهر له الصواب لا يمكن أن يحجر على العقول أو يكبل الأفكار أو يحتكر الزعامة ، وإن الحوار الذى دار بين رسول الله ﷺ وبين الحباب بن المنذر فى غزوة بدر والذى ينتهى بأمر الرسول الجيش بأن ينزل على رأى الحباب ، وقصة مفاوضة الرسول لغطفان فى غزوة الخندق ، ونزول الرسول ﷺ على رأى السعدين – ابن معاذ وابن عبادة – وقطع المفاوضة نزولا على رغبتهما ، إن هذا وتلك ليدلان على مدى الحرية التى أعطيها الجندى وكان يمارسها ويتمتع بها فى الإسلام .

ولكن الذى ينبغى أن نفهمه هو أنه لا تناقض بين الالتزام كواجب من واجبات الجنود ، وبين حرية الرأى وممارستها على أى صعيد ، ذلك لأن الالتزام إنما يتحتم إذا تمت الخطة ، واستقر الرأى ، وواجهنا العدو ، فإذا عنَّ للجندى رأى أو كانت له مشورة فعليه أن يظهر الالتزام أولا ثم يبدى رأيه ، فإن كان صوابا وقبلته القيادة نفذته وأخذت به ، وإلا فالالتزام بأمر القيادة واجب ، وعليه أن يخضع ويلتزم .

وفى القصتين السابقتين توضيح لما ذكرت ، فإن الحباب – رضى الله عنه – قبل أن يبدى رأيه استأذن ، وسأل رسول الله ﷺ قائلا : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أو هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال رسول الله : بل هو الرأى والحرب المكيدة .

قال الحباب : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم ، فننزل ، ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبنى عليه حوضا

فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون(١) .

عندئذ ينهض الرسول ﷺ ، وينزل حيث أشار الحباب لأنه الصواب الذى يجب ألا تعدل عنه القيادة الرشيدة .

ويجدر بنا هنا أن نقف وقفة غير قصيرة عند قول الحباب : أمنزلا أنزلكه الله ، فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أو هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

إن الحباب – رضى الله عنه – بهذه المقالة يظهر روعة الجندية فى الإسلام ويوضح أرق درجات الطاعة والالتزام « أمنزلا أنزلكه الله ، فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه » إن كانت المسألة وحيا أوحى إليك فليس لأحد فيه مقال ، وعلينا السمع والطاعة ، ولن ترى منا غير الالتزام والانضباط لأن الله الذى بعثك لن يدعك فريسة لأعدائك ، بل سيختار لك ما فيه الخير والرشاد وليس للمسلم حق الاختيار بعد أن يقضى الله ورسوله أمراً .

وأما إن كانت المسألة مجرد رأى وحيلة حرب ، وتدبير مكيدة ، فحينئذ يحق لى أن أبدى رأيى ، وأشارك فى التخطيط .

يا رسول الله ، ليس هذا بمنزل ، لأننا بذلك نعطى للكفار فرصة التمتع بما يمكن أن نحرمهم منه ، ويكون سببا – بإذن الله – فى هزيمتهم ، وهو الماء فالماء يكون بين أيديهم إذا نزلنا فى هذا المكان ، فيشربون ويطبخون وتتوفر لديهم وسائل المقاومة والعناد ، والمكيدة فى الحرب تقتضى خلاف ذلك فإننا نستطيع أن نحرمهم من الماء ، ونضيق عليهم الخناق ، ونستمتع بما حرمانهم منه .

تلك لفتة رائعة من الحباب تبين سمو التربية الإسلامية وأثرها فى تكوين شخصية الجنود ، وتوضيح مدى التزامهم بالأوامر ، فإن كان النص فالسمع والطاعة ، وإن كان الرأى فالمسلم ليس بالآلة الصماء يسير بلا عقل ولا إرادة ، ولا هو بالتابع الأبله يمشى مع الماشين من غير أن يكون له اختيار فى المسيرة ، بل هو الحصيف المحنك ، يعرف كيف تدبر الأمور ، الشجاع الفطن يدلى برأيه ،

---

(١) ابن هشام ٦٥٩/٢ ، الرحيق المختوم للمبار كفورى ص ٢٣٤ .

ولا يألو جهدا فى نصح قيادته ، وقيادته ليست بالقيادة الحمقاء تستبد بالرأى ، ولا تسمع للجنود وإن كان رأيهم هو عين الصواب ، ولا هى بالقيادة البلهاء يحركها ذوو المطامع الدنيئة ويستغلها أصحاب المصالح والأهواء ، بل هى القيادة الرشيدة تقبل النقد البناء ، وتسمع لكل ذى رأى يبذل النصح ويريد التسديد .

وفى غزوة الخندق ، وقد رأى رسول الله ﷺ أن العرب قد تحالفوا مع اليهود ، وتكالبوا جميعا على المسلمين ، ورموهم عن قوس واحدة ، فأراد أن يخفف عنهم ، فبعث إلى غطفان ليفاوضهم على الرجوع عن الحصار على أن يعطيهم ثلث تمر المدينة ، وبدأت المفاوضة ، وتم الاتفاق ، ولكن الرسول أوقف التنفيذ حتى يأخذ رأى زعماء المدينة .

أحضر الرسول السعدين - ابن معاذ زعيم الأوس ، وابن عبادة زعيم الخزرج - وعرض عليهما ما دار فى المفاوضة ، واستشارهما فى هذا الصلح .

قال السعدان : « يا رسول الله أأمرا تحبه فنصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟ »

قال رسول الله ﷺ : « بل شىء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العربَ قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما » .

فقال سعد بن معاذ : « يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟!!

مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم » .

قال رسول الله ﷺ : « فأنت وذاك »[1] .

---

(1) ابن هشام : ١٠٣٣/٣ ، ١٠٣٤ .

وأوقف الرسول ما كان قد بدأ واستمر فى المعركة حتى حقق الله النصر للمسلمين .

هكذا ينبغى أن يفهم الالتزام فى الإسلام ، وهكذا يجب أن يكون . ولم يكن هذا الالتزام وبتلك الدقة على عهد رسول الله ﷺ فقط بل كان سمة مميزة للجيش الإسلامى على الدوام .

ففى عهد الخلفاء الراشدين ، وفى العهود التى تلته ، يروى لنا التاريخ ما يطول شرحه ، ويعز وجوده ، ولا يستطيع كاتب إحصاءه .

لقد واجه أبو بكر – رضى الله عنه – فى بداية عهده ردة شرسة استشرت فى أنحاء الجزيرة المختلفة ، ورغم الفزع الذى استولى على كثير من المسلمين ، يصر الخليفة على مواجهة الموقف بكل حزم ، ويستشير عمر – رضى الله عنه – فيقول عمر : « الزم بيتك واعبد ربك فلا قبل للمسلمين بحرب العرب مجتمعين » .

فيرد الخليفة ذلك الرأى على عمر قائلا : حتى أنت يا عمر ، أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام ؟ والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ما استمسك السيف بيدى[1] .

ويعقد الخليفة أحد عشر لواء ، يسير بها أحد عشر جيشا ، ويوصيهم الخليفة ويأمر كل قائد ألا يذهب إلى غير وجهته حتى لو انتصر ، بل عليه أن يستأذن القيادة ، وتلتزم الجيوش كلها فلا يتجه قائد إلى غير ما وجهه إليه .

ويصر الخليفة على تسيير جيش أسامة بن زيد – رضى الله عنه – رغم المعارضة الشديدة من جمهور الصحابة ضاربا بذلك المثل العملى لما يجب أن يكون عليه الجيش من الالتزام حين يقول : « ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ »[2] .

---

(١) الصديق أبو بكر (هيكل) ص ١٢٢ بتصرف .
(٢) ابن كثير : ٣٠٤/٦ .

والتقى جيش أسامة بجيش الروم على حدود فلسطين ، ودارت بين الجيشين معركة عنيفة ، كانت الغلبة فيها للمسلمين ، فقد انتصر أسامة انتصارا يغرى بالتقدم فى بلاد الروم التى أصبحت بعد هزيمة الجيش مفتوحة أمام المسلمين .

وكذلك يكون الانتصار دائما مغريا بالتقدم والزحف وراء العدو المنهزم ولكن الجيش الإسلامى بقيادة أسامة بن زيد الشاب الحدث لم تحدثه نفسه ، بل لم يدر بخلد أحد من أمرائه أن يتعقب فلول الجيش المنهزم .

لم يكن ذلك لضعف فى الجيش فقد انتصر انتصارا قمينا بأن يغريه بمتابعة الزحف ، ولم يكن ذلك لجبن فى القيادة أو الجنود ، فالجبان لا يقطع تلك المسافة الهائلة الشاسعة ليواجه خصمه ، بل الحقيقة التى جعلت المسلمين يقفون عند هذا الحد ، ويقنعون بما حققوا من نصر ، ويعودون إلى بلادهم دون التوغل فى أرض عدوهم هى أنه لم يكن لديهم أمر بدخول بلاد الروم ومطاردة الجيش المنهزم ، بل كانت الأوامر صادرة بردع الروم وزجرهم حتى لا يطمعوا فى بلاد الإسلام وحيث تحقق ذلك فليقف الجيش المنتصر ولا يتجاوز حده التزاما بأمر القيادة .

ب - الالتزام السياسى :

من المعلوم أن السياسة جزء من الإسلام والله - عز وجل - لا يقبل منا الإسلام إلا إذا كان كاملا شاملا كما جاء به رسول الله ﷺ ، فالذين يؤمنون بالإسلام عبادة وشريعة وعقيدة ، ولا يؤمنون به قيادة وسياسة قد فرقوا دينهم ، وآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض ، والله - سبحانه - لا يقبل منا ذلك ، وقد نعى هذ الفعل على من سبقنا من أهل الكتب السماوية ، فقال -عز من قائل - : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون ﴾[1] .

فنحن نؤمن بالإسلام كمنهج للحياة ، بعث الله به نبينا محمدا بالحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم سواء السبيل ، وجعل المسلمين أئمة

---

(١) سورة البقرة : الآية ٨٥ .

للناس يسوسونهم بالقرآن ، ويدبرون شئونهم على أساس من نظام الإسلام ، فالإسلام الذى نفهمه دين ودولة ، مصحف وسيف عبادة وقيادة ، شريعة وجهاد .

ولا يعقل أن يكون للمسلمين دولة منعزلة عن العالم ، بعيدة عن التيارات السياسية فيه ، وهى دولة ذات مبادىء ، ونظامها يحتم على أتباعه نشر الدعوة ، وتمهيد الطريق لها لتسود وتنتشر فى كل مكان فلابد من أن يكون لتلك الدولة علاقات مع جيرانها ، ومع الدول التى تحتاج إلى التعامل معها .

ونحن نتساءل هنا عن ماهية تلك العلاقات والأساس الذى ستقوم عليه ، وماذا نسمى تلك العلاقات ؟

لا شك أن هذه العلاقات ينبغى أن تكون علاقات احترام للمبادىء التى جاء بها الإسلام ، بمعنى أن تترك الحرية لهذا الدين ليأخذ مكانته فى قلوب الناس ، ويستقر فى عقولهم ، وأن تقوم هذه العلاقات على أساس من نظام الإسلام ومبادئه ، وتلك هى العلاقات السياسية التى نعنيها .

ولم يكن النظام الإسلامى مقصرا فى ذلك ، ولم يكن محتاجا لأن يستمد من غيره شيئا من تلك النظم ، لأنه جاء لإسعاد البشرية ولن تتحقق تلك السعادة إلا إذا كان للنظم الإسلامية شخصيتها المستقلة ، ولأنه جاء متمما للرسالات السابقة شاملا لكل نظم الحياة دقيقها وجليلها ، فلا بد أن تكون نظمه كاملة لا يعتورها نقص ولا يشوبها كدر .

ولقد بدأ التحرك السياسى للدولة الناشئة قويا بقدر قوة نشأتها وضرب فيه المسلمون أروع الأمثلة حنكة وجرأة ودقة ، فقد عاهد الرسول ﷺ يهود المدينة بعد دخولها بقليل ، فكانت المعاهدة دليلا قويا على مدى وعى المسلمين السياسى فى تلك الفترة القليلة من عمر الدولة الجديدة ، كما دلت على قوة إحاطة المسلمين بالسياسة التى يجب اتباعها مع أعدائهم .

ففى المعاهده أمن الرسول اليهود على أرواحهم ودينهم وأموالهم وحملهم مقابل ذلك قسطا من مصاريف الحرب التى تنشب بين المسلمين وبين أعدائهم ،

وشرط عليهم ألا يناصروا عدوه ، ولا يؤوا أحدا من أعدائه ، فإن هم وفوا بذلك فهم آمنون وإلا فلا .

وهذا الجزء من المعاهدة الطويلة يعطى إيحاءات سياسية ملموسة فإن فى تأمين الرسول ﷺ اليهود على أرواحهم وأموالهم ودينهم تصريحا واضحا بأن الأمر والنهى كان بيد المسلمين ممثلين فى قائدهم وزعيمهم محمد بن عبد الله كما أن فى اعتراف اليهود بذلك ورضاهم به دليلا على إقرار اليهود بزعامة المسلمين السياسية ، كما يدل على أن اليهود لم يكن لهم شخصية مستقلة فى داخل الدولة الإسلامية ، وإنما كانوا تابعين لحكومتها ، خاضعين لنظمها وقوانينها ، كما كان فى تحملهم قسطا من نفقات الحرب التى لم يشتركوا فيها والتى تقع بين المسلمين وأعدائهم دليل على مدى خضوعهم للدولة الناشئة إذ فى تحمل ذلك القسط إظهار لولائهم وعدم تمردهم .

وهكذا كل نصوص المعاهدة كانت فى مصلحة المسلمين مقابل أن يعيش اليهود آمنين فى المدينة إلى جوار المسلمين .

يقول الدكتور هيكل : « وما كانت الأيام لتزيده باليهود أو لتزيد اليهود به إلا مودة وقربى ، كما أن سيرته وعظيم تواضعه ، وجميل عطفه وحسن وفائه وفيض بره بالفقير والبائس والمحروم ، وما أورثه ذلك من قوة السلطان على أهل يثرب ، كل ذلك وصل بالأمر بينهم إلى عقد معاهدة صداقة وتحالف وتقرير لحرية الاعتقاد معاهدة هى فى اعتقادنا من الوثائق السياسية الجديرة بالإعجاب على مر التاريخ »[1] .

كذلك كانت معاهدة الحديبية من الوثائق التاريخية النادرة التى أثبتت بعد نظر المسلمين وحنكتهم السياسية ، رغم ما فى ظاهرها من إجحاف بالمسلمين وهضم لحقوقهم الطبيعية التى كانوا يعتقدون إنه ليس من حق أحد التدخل فيها وحرمانهم منها ، ومع ذلك فقد التزم المسلمون بالمعاهدة على ما فى ظاهرها من الإجحاف والتعسف .

---

(١) حياة محمد : ص ٢٢٤ ط ٩ .

ولست بذلك أنكر ما دار ساعتئذ من الهمس والتساءل على ألسنة بعض الصحابة ، والذى أصبح بعد لحظات أمراً علنيا على لسان عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – حين ذهب إلى أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – وقال له : « يا أبا بكر أليس هو رسول الله ﷺ ؟ » فأجاب أبو بكر : بلى .

فقال عمر : « أولسنا بالمسلمين ؟ » .

قال أبو بكر : بلى .

فقال عمر : « فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ » .

وهنا يفطن أبو بكر – رضى الله عنه – للمعنى العميق الذى يكمن وراء تلك الأسئلة الملحة من عمر فيقول : « يا عمر ، الزم غرزك فإنى أشهد أنه رسول الله » .

فيقول عمر : « وأنا أشهد أنه رسول الله »(١) .

ولكن تلك الإجابة من أبى بكر لم تشف صدر عمر ، بل لعله لمح فيها ما أحسه فى داخل نفسه من عدم التفسير المبرر لقبولها حيث لم يصرح أبو بكر ولو بسبب واحد يدعو إلى الموافقة على هذه الشروط .

وكانت المعاهدة تتلخص فى الشروط الآتية :

١ – عقد هدنة بين المسلمين ومشركى مكة لمدة عشر سنوات .

٢ – أن يرجع المسلمون هذا العام بغير عمرة على أن يأتوا إلى مكة معتمرين فى العام القابل وليس عليهم من السلاح إلا السيوف فى أغمادها .

٣ – من أسلم من أهل مكة لا يقبله المسلمون ، ومن عاد إلى دينه من المسلمين – يعنى من يرتد منهم – يقبله أهل مكة .

٤ – من أراد أن يدخل فى عهد محمد وعقده دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى عهد أهل مكة وعقدهم دخل فيه(٢) .

---

(١) ابن هشام : م٢ /١١٤٣ .

(٢) نفسه : م٢ /١١٤٤

تلك هى شروط المعاهدة ، وكان الشرط الثالث منها هو محل الخلاف الذى حدث بين المسلمين ، فكيف يقبل المشركون المرتدين من المسلمين ويؤونهم ، ولا يقبل المسلمون من يدخل فى الإسلام ؟

هذا شرط مجحف فى ظاهره ، ليس فيه إنصاف ولا عدل ، وهو الأمر الذى جعل عمر يقول : « فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ » بل هو الشرط الذى جعل المسلمين يهمسون ويعارضون فى قبول المعاهدة .

والحق الذى لا يمارى فيه اثنان ، أن أى مفاوض ليس له خبرة سياسية كافية ، ومعرفة دقيقة بمرمى هذا الشرط ، وما يكمن وراءه من المصلحة المحققة للمسلمين لابد أن يرفض هذا الشرط لأول وهلة ، ولا يقبله إلا أحد رجلين : إما رجل أبله غبى متواطىء مع المشركين ضد من يفاوض عنهم ، وإما رجل عبقرى فذ أدرك من خلف ذلك النص بتوفيق الله مالم يستطع غيره إدراكه . .

وكان الرسول ﷺ بعد توفيق الله له وعصمته إياه هو ذلك الألمعى الذى أدرك مالم يدركه غيره ، واهتدى إلى مالم يهتد إليه أحد لا من المسلمين ولا من المشركين .

وقد وضح ذلك فيما رواه الإمام مسلم فى صحيحه ، بأن من يرتد من المسلمين فقد أراحنا الله منه ، ولا داعى لأن يبقى بيننا ، فيقف على أخبارنا ، وينقلها إلى أعدائنا ، وأما من أسلم منهم فإن الله سيمنعه ويحميه وإن بقى بينهم .

ومن أجل ظاهر هذا الشرط المرير ، ومن أجل إزالة هذا اللبس من أذهان المسلمين ، ذهب عمر إلى رسول الله ، وسأله كما سأل أبا بكر من قبل لعله يجد تفسيرا للموافقة على هذا الشرط .

قال عمر : يا رسول الله ، أولسنا بالمسلمين ؟

فقال الرسول ﷺ : بلى .

قال عمر : أولست رسول الله ؟

فقال الرسول ﷺ : بلى .

قال عمر : أليسوا بالمشركين ؟

فقال الرسول ﷺ : بلى .

قال عمر : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

فقال الرسول ﷺ : « إنى عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعنى »[1] .

ولم يسمع عمر جديدا فى تلك الإجابة فقد كانت إجابة أبى بكر وكأنه سمعها من رسول الله ﷺ فسكت عمر على مضض ، ولكنه فهم شيئا جديدا ، وهو أن الرسول ﷺ مأمور بقبول المعاهدة فرضى واستسلم .

لقد كان الرسول حريصا على تنفيذ المعاهدة والالتزام بها لما كان يرى فيها من المصلحة للمسلمين ، وقد نفذ الشرط الثالث بذاته حتى قبل أن يوقع المعاهدة .

فبينما رسول الله ﷺ يفاوض سهيلا فى شروط الصلح حضر ابنه أبو جندل بن سهيل بن عمرو مسلما ، فقام أبوه إليه ، وأخذ يضرب وجهه ، ويجره ليرده إلى المشركين ، وقال : يا محمد ، هذا أول ما أقاضيك عليه .

فقال الرسول : « إنا لم نقض الكتاب بعد » .

فقال سهيل : إذن لا أصالحك على شىء أبداً[2] .

وينظر الرسول إلى أبى جندل ، ويقول له : « اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم »[3] .

ويلتزم المسلمون بالمعاهدة على كره منهم لها ، حيث لا يرون فيها إلا الإجحاف بحقوقهم ، ولا يحسون إلا بمرارة الظلم التى يتجرعونها

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢٠٣/٣ .

(٢) زاد المعاد لابن القيم : ٣٠٧/٢ .

(٣) ابن هشام : ٢٠٤/٣ .

من شروطها وحتى أبو جندل الذى أضرت به المعاهدة ، وأسلمه المسلمون إلى المشركين يعذبونه ويفتنونه رضى وسلم ، وعاد مع أبيه صابرا محتسبا كما أمره الرسول ﷺ .

وهم الرسول بالعودة إلى المدينة بعد توقيع المعاهدة ، وتثاقل المسلمون ، وأمرهم الرسول بأن يحلقوا رءوسهم وينحروا هديهم ، ويتحللوا من عمرتهم ، ولكنهم لم يفعلوا .

ودخل الرسول ﷺ على أم سلمة – رضى الله عنها – حزينا لما رأى من تثاقل الصحابة ، فسألته أم سلمة عن سبب حزنه فأخبرها فقالت : يا رسول الله ، أوتحب ذلك ؟

قال : نعم .

قالت : اخرج عليهم ، ولا تكلم واحدا منهم كلمة ، وناد حالقك يحلقك ، وانحر هديك ، واركب راحلتك ، وتوجه إلى المدينة .

فخرج رسول الله ، وفعل ذلك ، فأخذ الصحابة يحلق بعضهم بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما[١] .

والحقيقة إننى رغم طول وقوفى أمام هذا الحديث لعلى أجد سببا يبرر تثاقل أصحاب رسول الله عن تنفيذ ما أمروا به ، وهم الذين كانوا يسارعون فى هواه ﷺ ويجتهدون فى تنفيذ أمره لم أعثر على سبب .

ولعل هذا التثاقل كان على أمل أن تتاح لهم فرصة يؤدون فيها نسكهم ، ولا يرجعون بغير عمرة ، ولكن الرسول لما خرج إليهم ، وتحلل من عمرته انقطع ذلك الأمل الذى كان يراودهم ، وتأكدوا من عدم تمكنهم من العمرة هذا العام ، فتحللوا كما تحلل الرسولُ ﷺ .

وفى الحديث أمر آخر ينبغى أن يتنبه له الدعاة إلى الله – عز وجل – فهو أساس عظيم ، وأسلوب قويم من أساليب الدعوة ، وذلكم هو القدوة الحسنة

---

(١) رواه البخارى .

العملية ، فإن الرسول ﷺ لم يكد يفعل ما أمرهم به من قبل فتثاقلوا حتى سارعوا فى الاقتداء به ، وفعلوا كما فعل ، وهو هو نفس ما أمرهم به من قبل .

فالقدوة العملية أبلغ فى النفوس من ألف خطبة ، وأكثر تأثيرا فى القلوب من ألف موعظة .

وانصرف الرسول ﷺ يحف به أصحابه كما تحف الكواكب بالبدر رغم ما فى نفوسهم من شعور بعدم الرضا ، ولكنهم لا يملكون إلا التسليم ، وتوجهوا إلى المدينة ، ولعلهم كانوا يفكرون كيف سيجيبون إخوانهم الذين لم يخرجوا معهم إذا سألوهم عن عمرتهم .

ولكن الوحى لم يدع هذه النفوس المؤمنة فى حيرتها ، ولم يتركها تفكر فى كيفية الإجابة عما يوجه إليها من الأسئلة ، فكفاهم الإجابة ، ونزل على رسول الله قوله – تعالى – : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا ﴾(١) .

وعندئذ نادى رسول الله عمر بن الخطاب ، وتلاها عليه ، فقال عمر : « أوفتح هو يا رسول الله ؟ » .

قال : نعم .

وتأكد المسلمون بعد شك وتردد أن المعاهدة فتح مبين ونصر عزيز فهدأت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم ، وأحسوا بنشوة النصر تسرى فى أجسامهم .

واستقر المسلمون فى المدينة بعد عودتهم من الحديبية مطمئنى النفوس لما أخبرهم الله به من أن فى الصلح فتحا مبينا ، ولكن نفوسهم لم تزل قلقة بسبب حرمانهم من أداء العمرة التى لم يصد عنها أحد من قبل .

لم يزل الحرم مثابة للناس وأمنا منذ رفع قواعده إبراهيم بمعاونة ولده إسماعيل – عليهما السلام – لم يصد عنه أحد ، ولم يحل أحد بينه وبين قاصديه ، وكان

---

(١) سورة الفتح : الآيات ١ – ٣ .

الناس يلجئون إليه ليجدوا فى رحابه امن أنفسهم وطمأنينة قلوبهم ، فما بال المسلمين يصدون عنه ، ويحرمون من الطواف حوله ؟

وبينما المسلمون مستغرقون فى هذا التفكير إذ بهم يفاجأون بأمر يزيد من قلق نفوسهم ، وحيرة قلوبهم ، إنهم لا يشكون فى أن الصلح الذى تم بينهم وبين أهل مكة فتح مبين ، وخاصة وأن الله – عز وجل – هو الذى أخبرهم بذلك ، ولكن متى يرون هذا الفتح ويلمسون نتائجه ؟

هذا أبو بصير – عتبة بن أسيد – يجىء من مكة فارا بدينه ، ويلقى بنفسه بين يدى رسول الله ﷺ معلنا إسلامه ، طالبا أن يلجأ إلى المدينة ليحميه المسلمون ، ولكن كيف يتم ذلك والمعاهدة تحول بين المسلمين وبين حماية من يأتيهم مسلما من أهل مكة ؟

إن أبا بصير لا يستطيع أن يأوى إلى المدينة ، والرسول ﷺ لا يستطيع إيواءه لأن المعاهدة لا تسمح بذلك ، فلابد لأبى بصير من الخروج من المدينة ، وليبحث له عن مكان آخر ، والمسلمون يرون أخاهم فى حاجة إلى من ينصره ويؤويه – وهم قادرون على ذلك – ولكن شروط الصلح لا تمكنهم منه ، وينظر الرسول إلى أبى بصير ويقول : « يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، فانطلق إلى قومك » .

قال أبو بصير : يا رسول الله ، أتردنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟

ولم يزد الرسول ﷺ على تكرير مقالته لأبى بصير[1] .

رجع أبو بصير مع رسول قريش الذى بعثته ليسترد الرجل من المسلمين وفاء بشروط الصلح ، ووفى المسلمون ولم يغدروا ، وأصر أبو بصير على أمر بيته ، وانطلق مع العامرى متجهين إلى مكة ، وعند ذى الحليفة انتهز أبو بصير غفلة من العامرى وقتله ، وعاد إلى المدينة ، ودخل على رسول الله ﷺ وقال :

---

(١) ابن هشام : ٢٠٧/٣ .

يا رسول الله وفت ذمتك ، وأدى الله عنك ، لقد رددتنى مع القوم ، ولكنى امتنعت بدينى أن أفتن فيه أو يعبث بى .

ونظر الرسول مرة أخرى إلى أبى بصير ، وقد رأى فيه شجاعة المؤمن وصدق العزيمة والتصميم على المضى فى الطريق الذى اختاره لنفسه ، فقال : « ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد »[1] .

سمع أبو بصير هذه الكلمة من رسول الله ﷺ فزادته حماسا على حماس ، وزودته بقوة تضعف أمامها كل القوى ، وكأنه فهم أن الرسول يشير عليه بالهرب قبل أن ترسل مكة فى طلبه ، ولا مناص إذن من تسليمه ، وليس له هذه المرة عند قريش إن تمكنوا منه إلا القتل قصاصا بصاحبهم العامرى المقتول .

وانطلق أبو بصير إلى ساحل البحر ، و نزل بالعيص على طريق القوافل الذاهبة إلى الشام ، واتخذ لنفسه قاعدة ينقض منها على قوافل قريش .

وبلغ المسلمين المستضعفين فى مكة ما فعل أبو بصير ، فوجدوا أن فى الانضمام إليه فرصة ينبغى ألا تفلت من أيديهم ، فأخذوا يتسللون من مكة مستخفين قاصدين العيص لينضموا إلى أبى بصير ، ويكثروا بذلك جماعة المسلمين هناك حتى يفزعوا بذلك قريشا ، ويلقوا الرعب فى قلوب القوافل ، وقد بلغ عدد المسلمين المتجمعين فى العيص مع أبى بصير سبعين رجلا[2] .

واستنفر أبو بصير من انضم إليه من المسلمين ليتصدوا لقوافل قريش ووقفوا لهم بالمرصاد ، يقتلون من يظفرون به منهم ، ولا تمر بهم عير لقريش إلا اقتطعوها .

وبلغت تلك الأنباء المسلمين فى المدينة ففرحوا بها فرحا شديدا أزال ما كان فى نفوسهم من القلق على إخوانهم المسلمين ، وطمأن قلوبهم من الحيرة التى كانوا يعانون منها ، ولمسوا أول ثمرات المعاهدة من الشرط الذى كان قد

---

(١) البخارى فى كتاب الشروط .

(٢) ابن هشام : ٢٠٨/٣ .

أزعجهم ، وظنوا أنه إجحاف بهم وتعسف غير مناسب لأوضاعهم .

وأما قريش فقد انزعجت لتلك الأنباء بقدر فرح المسلمين بها بل أشد وطال تفكير الزعماء منهم لعلهم يهتدون إلى حل لتلك المشكلة التى حسبوها فوزا على المسلمين ، وأصر مفاوضهم على تنفيذها حتى قبل توقيع الاتفاقية ، وأدركت قريش أن الوضع يهدد مصالحهم الاقتصادية ، وأن قوافلهم أصبحت عاجزة تماما عن اتخاذ طريقها إلى الشام ، ولا شك أن الأمر لو استمر على ذلك لكانت مكة مهددة بالجوع والحرمان مما يشكل هزيمة منكرة أمام سكان الجزيرة الذين يترقبون نتيجة المعاهدة لينضموا إلى المنتصرين .

وكانت المعاهدة قد منحت المسلمين فرصة الالتقاء بالناس وشرح وجهة نظرهم لهم ، وعرض الدين الجديد عليهم بعد أن حرموا من ذلك عشرين عاما ، وتفتحت أعين الناس وقلوبهم على الحق الذى حيل بينهم وبينه بقوة السيف الغاشمة ، فدخل الناس فى دين الله أفواجا .

أحست قريش بالخطر الداهم يحيق بها ، تحمله إليها بنود تلك المعاهدة التى فرحت بها ، وحسبتها انتصارا سياسيا على المسلمين ، ووجدت أن أسوأ هذه الشروط بالنسبة لها هو الشرط الثالث الذى أصرت على التمسك به فى الوقت الذى شعر المسلمون بأنه ظلم صارخ نزل بهم .

إن المعاهدة مكنت أبا بصير بأن يتخذ لنفسه ولمن انضم إليه من المستضعفين مواقف تمكنه من تحقيق إرادته والدفاع عن عقيدته دون أية مسئولية على المسلمين ، وبالتالى دون أن تتمكن قريش من دفعه عما يريد ، ولو أن المعاهدة لم تتضمن هذا الشرط لتمكن أهل مكة من منع أبى بصير ولو عن طريق المسلمين الملتزمين بشروط الصلح .

إذن ليس أمام المكيين إلا خيار واحد هو التنازل عن ذلك الشرط حتى يستطيع المسلمون ضم هؤلاء الثائرين إليهم ، وحينئذ يصبحون ملتزمين بما بقى من شروط الصلح .

وقد فعلت مكة ذلك ، وكتبت إلى رسول الله ﷺ تناشده الله ، وتسأله

بالرحم أن يؤوى هؤلاء الفارين ، وتعلن أنها لا حاجة لها فيهم ، وترجو أن يقبل كل من جاءه مسلما من قريش .

وهكذا تنازلت قريش عن أهم شرط من شروط الصلح فى نظرهم ولمس المسلمون أول نتائج الفتح المبين الذى حققته المعاهدة المباركة ، وعاد المسلمون الثائرون إلى المدينة المنورة على أثر كتاب كتبه رسول الله ﷺ إلى أبى بصير ، ولكن أبا بصير لم يمتع بالحياة فى المدينة فى جوار رسول الله ﷺ ، حيث وافته منيته فى اليوم الذى وصل فيه خطاب رسول الله إلى العيص ، وقام أصحابه بدفنه هناك ، وتأمر على القوم أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، وعاد بهم إلى مقر الدولة وعاصمتها .

وهناك التزم العائدون بالمعاهدة ، وسرى عليهم ما يسرى على إخوانهم ، وظلوا ملتزمين بها ، محافظين على شروطها حتى نقضتها قريش بظلمها واعتدائها .

سفراء رسول الله إلى الحكام :

كانت السفارة فى الجاهلية محصورة فيما يقع بين القبائل العربية ، ولم يكن لأهل الجزيرة سفراء يبلغون عن أهلها ما يشاءون إلى الدول المجاورة أو الدول الخارجية ، لأن الجزيرة العربية لم يكن بها حكومة نظامية تتصل بالدول ، ويمثلها لديها سفراء ، وإنما كانت سفارتهم عن طريق التجارة والتجار ، وما حدث من أنواع السفارة على مستوى الدول كان نادرا لا يعبأ به ، وذلك مثل سفارة عمرو بن العاص إلى النجاشى بخصوص المهاجرين .

فلما جاء الإسلام ، وأمن الناس بمعاهدة الحديبية ، واتصل بعضهم ببعض ، ولم يعد هناك ما يخيف المسلمين من مباغتة قريش لهم ومهاجمتهم لديارهم ، عندئذ اتخذ الرسول ﷺ لنفسه سفراء يبلغون عنه الملوك والرؤساء فى خارج الجزيرة العربية . كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك والرؤساء والحكام كتبا ، وبعث بها مع هؤلاء السفراء يدعوهم فيها إلى الإسلام ، ويحثهم على الدخول فيه ، ويحملهم مسئولية التخلف عن الاستجابة لدعوته .

وكان الخطر كله بالنسبة للسفراء يكمن فى ثنايا تلك الكتب التى تنطوى

على التهديد والوعيد الشديد للملوك والرؤساء إذا لم يستجيبوا للدعوة الموجهة إليهم ، وكان هؤلاء وأولئك معروفين بالظلم والبغى لا يمنعهم من قتل الرسل الذين يحملون هذا التهديد إليهم مانع .

كانت سفارة هؤلاء الرسل مهمة شاقة ، وكانوا يقدرونها حق تقديرها ولم يغب عنهم شيء من عواقبها ، إنهم كانوا يحملون كتب رسول الله فى أيمانهم ويحملون أرواحهم إلى جوارها على أكفهم ، كان الاستخفاف والتهكم ، وكان الاحتقار والازدراء أقل ما يتوقعه هؤلاء الرسل من أولئك البغاة الظالمين ، بل ربما كان القتل والسجن مما خطر ببالهم وهم يتوجهون لأداء مهمتهم ، وذلك ما حدث فعلا لسفير رسول الله – شجاع بن وهب – إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، ملك الغساسنة ، وعامل قيصر على دولتهم الواقعة على حدود الشام ، حيث قتل الحارث شجاعا ، ولم يراع سفارته ، ولم يحترم رسالته .

ومع كل هذه التوقعات ، ومع كل ما كانت تحمله تلك السفارة من المخاطر ، لم يعتذر أحد ممن كلفوا بحمل تلك الكتب ، بل لم يتلكأ أحد منهم فى القيام بما كلف به .

كان هؤلاء الرسل سفراء بين الدولة الإسلامية وبين غيرها من الدول التى وجهوا إليها ، وكانت مهمتهم محصورة فى تبليغ تلك الرسائل إلى الملوك والحكام الذين أمروا بالتوجه إليهم ، والاستماع إلى إجابتهم أو حملها فى رسائل يكتبها الملوك والرؤساء إلى رسول الله ﷺ .

وكانت تلك السفارة هى أول سفارة تخرج من الجزيرة العربية فى مثل تلك المهمة الخطيرة التى كلفت بها ، حيث لم يتعود العرب الدخول على الملوك والمثول بين أيديهم ، وهم وإن كانوا يمرون ببلاد الشام مقر قيصر الروم ، وأحيانا ببلاد الفرس مقر كسرى فارس ، إلا أنهم لم يكن لهم صلة بتلك القصور ، ولم يكن هناك ما يضطرهم للدخول على هؤلاء الملوك أو الوقوف ببابهم ، فقد كانوا يذهبون إلى هذه البلاد تجارا يقصدون الأسواق ليبيعوا تجارتهم ثم يعودوا إلى بلادهم .

وللدخول على الملوك كما هو معلوم نظام خاص ، وعلى من يريد الدخول عليهم أن يتعلمه حتى لا يقع فى محظور ، ويتعرض لنقمتهم وسخطهم ، ولكن ذلك كله لم يمنع الرسل من الذهاب إليهم ، والدخول عليهم ، وتبليغهم الرسائل التى حملوها معهم .

كان المسلمون يعتقدون أن غطرسة هؤلاء الطغاة وظلمهم ناشىء عن بعدهم عن الإسلام الذى علم الحكام كيف يسوسون رعيتهم بالعدل والرحمة ، وكان هذا الاعتقاد من الدوافع التى جعلت الرسل يستهينون بظلم الطغاة وعتوهم ، ويستخفون بما أعدوا لأعدائهم من النكال والموت بل زادهم ذلك رغبة فى أن يبلغوهم دعوة الله لعل فيها ما يردعهم عن هذا الظلم ، ويبعدهم عن هذا الطغيان .

واختار رسول الله ﷺ من أصحابه نفراً لهم هيئة وهيبة وعليهم جلال ووقار ، وفيهم جرأة وشجاعة ، وذلك لأنهم رسله إلى ملوك الأرض فإذا لم يكونوا كذلك لم تكن لسفارتهم عند الملوك مهابتها ، فإن الملوك لا يرون إلا الظاهر ، ولا يعرفون إلا ما يرون ، كما أن هؤلاء الرسل سيبلغون عن رسول الله ، ويحملون دعوته ، فإذا لم يكونوا على تلك الحال كان الالتفات إليهم قليلا ، والاستماع لهم نادرا ، وعندئذ تضيع الفائدة ، ولا يتحقق المطلوب .

وفى المحرم من السنة السابعة للهجرة بعث ستة نفر فى يوم واحد إلى الجهات الآتية :

١ - عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة .

٢ - دحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر ملك الروم .

٣ - عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ملك الفرس .

٤ - حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر .

٥ - شجاع بن وهب إلى الحارث بن أبى شمر ملك الغساسنة .

٦ – سليط بن عمرو إلى هوذة بن على حاكم اليمامة[١] .

ولما علم ﷺ بأن الملوك لا يقبلون الكتب إلا إذا كانت مختومة ، اتخذ لنفسه خاتما يختم به الكتب ، ونقش عليه (محمد رسول الله) .

وخرج رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه ، وذلك بعد عودته من عمرته التى صد عنها يوم الحديبية فقال : « أيها الناس ، إن الله قد بعثنى رحمة وكافة ، فلا تختلفوا على كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم » .

فقال أصحابه : وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله ؟

قال : « دعاهم إلى الذى دعوتكم إليه ، فأما من بعثه مبعثا قريبا فرضى وسلم ، وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وجهه وتثاقل .

فشكا ذلك عيسى إلى الله ، فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التى بعث إليها »[٢] .

لم يمتنع هؤلاء الرسل عن القيام بما كلفوا به رغم جسامة الأمر ، وعظم المسئولية ، ولم يعتذر أحد منهم ليتنصل من تحمل تلك التبعة التى لا يعرف مصيرها إلا الله – سبحانه وتعالى – ورغم ما كان يتوقع من نتائج غير محمودة ، وما كان ينتظر من عواقب غير مأمونة إلا أن هؤلاء الرسل صدعوا بأمر القيادة والتزموا بتعليماتها ، وهم فخورون بقيامهم بمهمتهم ، راضون كل الرضا بما تتمخض عنه الأيام من الحوادث مادام ذلك فى سبيل الله .

جـ – الالتزام فى التشريع :

الشريعة ما شرع الله لعباده من السنن والأحكام سواء كانت تلك الأحكام فى التشريع العبادى أم الاجتماعى أم الاقتصادى أم الأخلاق ، والالتزام بهذه التشريعات أمر حتمى يفرضه الإسلام على أتباعه ، ورفض شىء من التشريع

---

(١) زاد المعاد لابن القيم (٦٠/١ – ٦٢) .
(٢) ابن هشام : (١٨٧/٤) .

خروج على الإسلام ، وتكذيب لأمر قد علم بالضرورة يؤدى بفاعله إلى الكفر والعياذ بالله .

والغريب المدهش أن أكثر التشريعات التى جاء بها الإسلام مخالفة لما ألفه العرب ، وتعودوه وشبوا عليه ، ولكنهم مع ذلك لم يقدموا هواهم ولم يرفضوا شيئا مما خالف مألوفهم ، بل سمعوا وأطاعوا ، وأخذوا أنفسهم بكل ما ألزمهم به الشرع ، وروضوها على التنفيذ من غير تردد ولا سؤال .

إن الإسلام هو النظام الوحيد الذى استطاع أن يتغلل فى أعماق النفس الإنسانية ، ويحول الناس عن كل ما أشربته قلوبهم إلى نظم وآداب وأخلاق وشرائع لم يعرفوها من قبل .

ولم يكن هذا التحول نتيجة لضغط خارجى ، أو إرهاب من السلطة الحاكمة ، ولكنه كان تجاوبا مع ما جاء به الإسلام من المبادىء التى لا تتنافر مع الفطرة السوية ، وتلبية لرغبة داخلية يحس بها كل إنسان فى أعماق نفسه وإن كان لا يعرف كيف يعبر عنها .

إن الإنسان مهما انحرف عن الجادة تظل مشاعر الخير مستترة فى حنايا قلبه ، ومهما طال عليه الزمن فإن تلك المشاعر ستبقى تتفاعل حتى تحين لها فرصة الظهور ، وعندئذ تبرز معبرة عن الجانب الخير فى جبلة الإنسان ، و الإسلام بما فيه من طاقات روحية هائلة وقدرات تربوية عظيمة استطاع أن يحرك تلك المشاعر الطيبة فى الإنسان الذى ألهته الحياة الصاخبة من حوله ، وصرّفته الأهواء والشهوات عن الجادة التى يبحث عنها بين هذا الركام و لكنه لم يوفق إليها .

لم يخلق الإسلام العرب خلقا آخر غير الذى كانوا عليه ، ولكنه أخذ بأيديهم ، وأنار بصائرهم ، وأيقظ مشاعر الخير فى قلوبهم ، فصاروا بذلك نوعا آخر غير ما ألفه الناس وعرفوه .

إن تحويل الناس عن عادات وتقاليد أفنوا فيها أعمارهم ، وأصبحت جزءا لا يمكن الانصراف عنه فى تقديرهم يعد فى حد ذاته قوة خارقة لا يتصورها الإنسان إلا فى عالم الخوارق والمعجزات .

ولقد استطاع الإسلام أن يحول العرب مع ما فيهم من بداوة وتعصب إلى أناس أقاموا دولة ، وأسسوا حضارة ، وحملوا مشاعل الهداية والخير إلى أصقاع الدنيا المترامية النائية .

وإن الإنسان ليعجب أشد العجب وهو يرى سكان الجزيرة العربية التى لم يحفل بها التاريخ ، ولم يعبأ بها المؤرخون هم الذين ينيرون ما أظلم من حياة الناس ، ويعيدون للإنسانية تراثها المفقود ، ويردونها إلى نهجها القويم .

ولا يتمالك المرء وهو يلمس تلك الحقائق إلا أن يتساءل ، كيف صاغ الإسلام هذه النفوس حتى غدت لا تتحرك إلا له ، ولا تؤمن إلا به ، ولا تبذل أموالها وأنفسها إلا فى سبيله ؟؟

وليس هذا مجرد خيال أو كلام لا يمت إلى الواقع بصلة ، ولكنه الحقيقة التى لا يستطيع إنسان أن يجحدها ، والسر فى هذا التحول الخطير فى حياة الناس الذين عرفوا الإسلام ودخلوا فيه ، والحقيقة التى أحدثت فى نفوسهم هذا التغيير الجذرى هى قدرة الإسلام العجيبة على التأثير فى كل من يتصل به ، وقوته الروحية التى تفرض سلطانها وتسيطر على القلوب والأرواح حتى لا يستطيع الإنسان معها أن يتصرف إلا طوع إرادتها وفى حدود هيمنتها وسلطتها .

ولهذا لم تستطع النفوس المؤمنة أن ترفض شيئا فرضه الإسلام مهما خالف مألوفها وتعارض مع تقاليدها وعاداتها .

لقد كانت الخمر أشهى ما تطلبه نفس العربى ، وألذ ما يستمتع به ، لا يخلو منها بيت ، ولا يستغنى عنها فى مجلس ، هاموا بها هياما جاوز الحد ، فتغنى بها الشعراء ، وتفنن فى تقديمها الندماء ، وإذا رأيت القوم وقد التفوا حول الأقداح ، وراح الشعراء يتبارون فى وصف الراح ، وتأملت عندما يحتسونها نشوة النفوس وكثرة الأفراح ، تأكدت أن القوم لن يتخلوا عنها حتى تتخلى عن الأبدان الأرواح .

تلك هى الحال التى كان العربى فى الجزيرة يعيشها ، ولعل ولوع العرب بالخمر إلى هذا الحد هو السر فى تحريمها على التدريج ، وتلك لفتة بارعة فى التشريع

فإن النفوس إنما تروض على ترك ما ألفت شيئا فشيئا حتى يكون ذلك أثبت لها إذا تركت فلا تعود إليه أبداً .

وكانت أول آية فى القرآن الكريم ، تعرضت لذكر الخمر هى آية النحل التى يقول فيها - تبارك وتعالى - : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ﴾[1] .

فذكر السَّكَر وهو الخمر فى مقابلة الرزق الحسن فيه تعريض بالخمر وبيان بأنها ليست من الرزق الحسن الذى ينبغى للمؤمن أن يتحراه .

ولقد حركت تلك الآية فى نفس عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - عوامل كامنة فابتهل إلى الله أن يبين فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت آية البقرة : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾[2] .

فتطلعت نفس عمر إلى زيادة بيان وتوضيح ، فدعا ربه ، اللهم بين لنا فى الخمر بيان شفاء ، فنزلت التى فى النساء : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾[3] .

وازداد شوق عمر إلى بيان قاطع واضح لا يحتمل التأويل ، ولا يعطى للنفس فرصة الاختيار ، فألح على الله فى طلب البيان ، فكانت الآية الفاصلة الحاسمة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ﴾[4] ؟

---

(١) سورة النحل : الآية ٦٧ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٢١٩ .
(٣) سورة النساء : الآية ٤٣
(٤) سورة المائدة : الآية ٩٠ ، ٩١ .

فلم يكد عمر - رضى الله عنه - يسمع تلك الآية حين تليت عليه حتى قال : انتهينا انتهينا[1] .

لم يكن عمر بعيدا عن الخمر وهو يطلب من الله أن يبين فيها بيان شفاء ولكنه كان غارقا فيها إلى أذنيه كما حدث هو عن نفسه ، كنت صاحب خمر فى الجاهلية أحبها وأشربها[2] . ولكنه رأى فيها إهدارًا لكرامة شاربها ، وامتهانا لنخوته وشهامته ، فعزف عنها ، وألح على الله فى أن يبين فيها بيانا يشفى صدره ، ويطمئن قلبه ، فكان التحريم القاطع فى نهاية الأمر .

ومع ولوع المسلمين بالخمر ، وتكالبهم على شربها ، واتخاذهم الرخصة فيما نزل من الآيات المتكررة قبل النهى عنها ، مع كل ذلك لم تكد آية التحريم تنزل على رسول الله ﷺ حتى أذعنت النفوس ، وخضعت القلوب مذعنة لأمر الله - تعالى - روى البخارى - رحمه الله - عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : « كنت أسقى أبا عبيدة وأبا طلحة وأبىَّ بن كعب من فضيخ زهو وتمر ، فجاءهم آت فقال : إن الخمر قد حرمت .

فقال أبو طلحة : قم ياأنس فهرقها ، فهرقتها » .

وروى الإمام أحمد فى المسند عن أنس قال : « كنت أسقى أبا عبيدة وأبىَّ بن كعب وسهيل بن بيضاء ونفرا من أصحابه عند أبى طلحة ، وأنا أسقيهم حتى كاد الشراب أن يأخذ فيهم ، فأتى آت من المسلمين فقال : أوما شعرتم بأن الخمر قد حرمت ؟ فما قالوا حتى ننظر ونسأل .

فقالوا : يا أنس ، الق ما بقى فى إنائك ، قال : فوالله ما عادوا فيها ، وما هى إلا التمر والبسر ، وهى خمرهم يومئذ » .

هكذا من غير مناقشة ولا مجادلة ، ومن غير أن يسألوا أو يتحققوا يقول أبو طلحة لأنس : قم يا أنس فهرقها .

---

(١) تفسير الطبرى : ٧/٣٣ .

(٢) ابن هشام : ١/٣٥٧ .

لو كان النهى عن غير الخمر لاحتاج إلى شيء من التردد والتثبت ، فكيف والنهى عن الخمر التى أشربت حبها القلوب ، ومالت إليها النفوس ، وأصبحت لازمة من لوازم المجالس ، وأنسا يطرب إليه كل جالس ، ومع ذلك يتلقى المؤمنون الأمر بالكف عنها وتركها فلا يترددون ولا يتثبتون بل ينفضون عنها ، ويأمرون الساق أن يريقها ، وينصرفون إلى حال سبيلهم ، وكأن لم يكن بينهم شراب ، وكأنهم لم يعرفوا الخمر من قبل .

إن نزول الآيات التى تناولت الخمر بهذه الصورة التربوية الفذة قد مهد السبيل ، وهيأ النفوس لتلقى الأمر بالتحريم من غير تردد ولا توقف فى التنفيذ ، إن الآيات قد سيقت فى نسق موح بتلك النتيجة الحتمية ، ألست ترى الآية الأولى تلمح بأن الخمر شيء آخر غير الرزق الحسن الطيب الذى أباحه الله لعباده ، وتليها الآية الثانية فتصرح بما فيها من الإثم الذى يفوق المنافع ، ثم تأتى الثالثة فتحرمها فى أوقات الصلاة ، فماذا بقى بعد ذلك ؟؟

إن أوقات الصلاة متلاحقة فى اليوم والليلة ، يعقب بعضها بعضا فمتى إذن يشربون الخمر ، ويأتون إلى الصلاة وهم يعلمون ما يقولون ؟

فليمسكوا عن الشراب حتى تنتهى أوقات الصلاة ، أو ليقللوا منها بقدر ما يستطيعون حتى لا تأخذ فيهم ، وفى كلا الأمرين ترويض للنفس على تركها ، وتهيئة لها على تلقى الأمر بتحريمها ، ولهذا لم يسألوا عنها ، ولم يفكروا كيف يتركونها .

يقول سماحة العلامة – أبو الحسن الندوى – : « نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحاتهم ، فحال أمر الله بينها وبين الشفاة المتلمظة والأكباد المتقدة ، وكسرت دنان الخمر ، فسالت فى سكك المدينة »[1] .

ويقول سيد قطب – رحمه الله – : « ولما نزلت آية التحريم هذه فى سنة ثلاث بعد وقعة أحد ، لم يحتج الأمر إلى أكثر من مناد فى نوادى المدينة : ألا أيها القوم ، إن الخمر قد حرمت .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ط ٤ ص ٨٨ .

فمن كان فى يده كأس حطمها ، ومن كان فى فمه جرعة مجها ، وشقت زقاق الخمر ، وكسرت قنانيه ، وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر »[1] .

ونحن لا نستطيع ، ولا يستطيع أحد أن يقول إن المجتمع الإسلامى كله بغير استثناء كان كذلك ، ولم يكن هناك مخالفة قط ، ولم يقع انحراف من بعض الأفراد ، لأن ذلك يخالف طبيعة البشر التى فطرهم الله عليها ، بل كانت مخالفات ، وكان هناك انحراف ، ولكن ذلك كان فى قلة نادرة لا تحسب فى إطار المجتمع الكبير شيئا مذكورا .

ولعل ما وقع من المخالفات فى الخمر وفى غيرها مما حرمه الشرع كان لإبراز حقيقتين لابد أن يعلمهما الناس عن هذا المجتمع الفريد الذى رباه الإسلام : أولاهما أن يعلم الناس أن المجتمع الذى التزم بهذه التشريعات وأخذ بها نفسه مجتمع بشرى ، وليس شيئا آخر غير بنى الإنسان حتى لا يعتذر أحد عن الأخذ بها بحجة أنها غير قابلة للتطبيق فالمجتمع الذى التزم بها مجتمع مثل مجتمعنا وفيه كل الخصائص والصفات التى فى كل المجتمعات البشرية .

والثانية ليتعلم الناس كيف يقيمون الحدود ، كيف يسوون فى إقامتها بين الغنى والفقير والقوى والضعيف .

فلو لم تقع هذه المخالفات لظن الناس أن المجتمع ليس من جنس البشر ، ولما عرفوا كيف يقيمون الحدود ويسوون فيها بين كافة الطبقات .

وفى التنظيم الاجتماعى يحرم الإسلام أنواعا من الزواج كان العرب قد ألفوها ، وتعايشوا بها ، والتشريع الإسلامى لم يعبأ كثيرا بإلف الناس وعاداتهم بقدر ما كان يهتم بتحقيق الصالح العام لأفراد هذا المجتمع ، والمصلحة العامة فى نظر الإسلام هى الغاية التى من أجلها وضع نظامه الاجتماعى ، وهى التى بها يصان المجتمع من التردى والانحلال والتفسخ والضلال .

والتشريع الإسلامى وهو يتناول الأوضاع الاجتماعية يتناولها من خلال

---

(1) فى ظلال القرآن م٢ /٩٧٥ دار الشروق .

الواقع الذى يعيشه أفراد هذا المجتمع أو بالأصح الذى ينبغى أن يعيشه أفراده ، فتجاهل هذا الواقع يجنح بالمجتمع وينحرف به إلى أوضاع شاذة لا تتواءم مع فطرة الناس وميولهم ، وينشأ بسبب ذلك أنواع من الفساد الخلقى الذى يهد كيان المجتمع ، ويقوض أركانه .

والمصلحة العامة فى موضوع الزواج لا تتحقق دائما وباضطراد بالزواج من واحدة ، لأن عدد النساء فى مجتمع ما قد يتضاعف بالنسبة لعدد الرجال ، فإذا تزوج كل رجل بامرأة واحدة وقع الحيف والظلم على بقية النساء بحرمانهن من المعاشرة الطاهرة مع أزواج شرعيين ويكون الظلم الأكبر بتعريضهن للمخادنة تلبية لإلحاح الميل الجنسى الفطرى فى الإنسان .

وكما لا تتحقق المصلحة العامة فى موضوع الزواج بالاكتفاء بواحدة ، كذلك لا تتحقق بترك الأمر فوضى بتزوج الرجل من يشاء بلا حدود ولا قيود ، لأن عدد النساء قد يتساوى مع عدد الرجال أو يزيد فى حدود معقولة وعندئذ لو ترك الأمر فوضى قد يغلب الأغنياء الفقراء ، فيجمعون من النساء ما يقدرون عليه ، ويبقى الفقير لا يجد من يتزوجها ، وحينئذ يتعرض للفتنة ويقع فى المحظور ، كما قد تتضرر الزوجات بعدم القدرة على العدل والإقساط من جانب الزوج .

لهذا وذاك أباح الإسلام التعدد ، وحدَّده بأربع لا يتجاوزهن الرجل مهما كانت الأسباب ، وقيده بالعدل فى النفقة والمعاملة والمعاشرة والمباشرة حتى يضمن للمرأة حياة عزيزة كريمة ، فإذا انعدمت القدرة على العدل فلا يجوز الزواج بأكثر من واحدة .

قال - تعالى - : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ﴾[1] .

فمجرد الخوف من عدم العدل لا يبيح التعدد ، ويلزم صاحبه الاكتفاء بواحدة حتى لا يقع فى المحظور .

---

(١) سورة النساء : الآية ٣ .

والآية الكريمة تشرع للمجتمع توازنا معقولا حتى لا يقع الحيف على أحد الجنسين ، وتقى أفراده من الاختلال والاضطراب .

لقد كانت المرأة فى الجاهلية – عند العرب وغيرهم على حد سواء – سلعة يتخذها بعض الناس للخدمة والامتهان ، ويتخذها بعضهم لقضاء الوطر والاستمتاع ، وكان كل مجتمع يتعامل معها حسب حاجاته إليها ، فمنهم من يستكثر مهما بلغ العدد ، ومنهم من يقلل ، والميزان فى كل الأحوال رغبة الرجل وتحقيق مصلحته فلما جاء الإسلام أقام نظام الأسرة على أسس قويمة وقواعد متينة فجعل العدل أساس المعاملة ، وجعل المحبة والمودة قاعدتين للعلاقات الزوجية ، وجعل قدر الطاقة حد النفقة ، وجعل المعروف والإحسان وسيلة المعاشرة .

وانطلاقا من هذه القواعد وتلك الأسس حرم أنواعا من الزواج لا تقوم على أساس من المصلحة المتبادلة بين الزوجين .

فحرم الشغار وهو أن يزوج الرجل ابنته لشخص على أن يزوجه ذلك الشخص ابنته وليس بينهما صداق ، أى مبادلة بغير عوض .

وفى هذا النوع من الزواج ما فيه من جعل المرأة سلعة يستمتع بها الرجل وقت حاجته دون أن يكون لها أية حقوق قبله ، وفيها من المضار ما فيها بحيث إذا أساء أحد الزوجين إلى زوجه فى المعاملة حرص الآخر على أن يعامل زوجه بمثل ما عوملت به ابنته وإن لم تجن ذنبا تستحق به تلك المعاملة السيئة .

وعلى هذا تكون تلك الطريقة مضرة للزوجة ، مضيعة لحقوقها ، لهذا حرم الإسلام الشغار ، عن ابن عمر – رضى الله عنهما – : « أن رسول الله ﷺ نهى عن الشغار »[1] .

وكذلك حرم الإسلام زواج المتعة وهو الزواج إلى أجل معلوم بحيث إذا انتهى الأجل وقعت الفرقة بين الزوجة والزوج دون أن يكون لها قبله أية حقوق .

---

(١) رواه البخارى .

وهذا النوع من الزواج تكون فيه المرأة آلة للاستمتاع ليس إلا ، وفيه امتهان لها وتحقير لمكانتها ، والإسلام لا يرضى للمرأة هذا الوضع السيء المشين ، فإنما هى نصف المجتمع ، وهى المدرسة التى تنجب الأبطال وتصنع الرجال ، فكيف تكون كذلك وهى سلعة يقضى الرجل معها شهوته ثم ينصرف عنها بغير التزام ، وأنى يتأتى منها ذلك وهى مهددة بالفرقة بعد حين غير مستقرة فى بيت الزوجية ، بل هى متعة متنقلة يفارقها هذا ليقتنصها ذاك ، ولو لم يكن فى هذا النوع من الزواج إلا تضييع الأولاد لكفى به بلاء يستوجب التحريم .

قال على لابن عباس – رضى الله عنه – : « إن النبى ﷺ نهى عن المتعة ، وعن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر »(١) .

وقد كان هذان النوعان من الزواج شائعين عند العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام حتى حرمهما الرسول ﷺ ضمن التنظيمات الاجتماعية التى وضعها ، فصدع المسلمون بالأمر رغم تعلقهم بهما ، ولم يتخلف منهم أحد إلا من لم يبلغه النهى ، فلما بلغه كف وأطاع .

وكان رجال فى الجاهلية تحت كل واحد منهم عدد غير معقول من النساء ودخلوا فى الإسلام بهذا العدد من الزوجات ، وكان للإسلام منهم موقف حاسم .

أحدهم : غيلان بن سلمة الثقفى وكان تحته عشر نسوة(٢) .

والثانى : عمير الأسدى وكان عنده ثمانى نسوة(٣) .

والثالث : نوفل بن معاوية الديلمى وكان لديه خمس نسوة(٤) .

فما موقف الإسلام من ذلك ؟

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه أحمد والترمذى .

(٣) رواه أبو داود .

(٤) رواه الشافعى فى المسند .

لقد أمرهم رسول الله ﷺ بأن يمسك كل منهم أربعا وأن يفارق ما زاد عن ذلك .

كان هذا هو واقع الناس فى المجتمع الجاهلى ، وكان هذا هو موقف الإسلام من هذه الفوضى الاجتماعية .

ونحن نرى من ذلك أن الإسلام قد أنصف المرأة ، وأنقذها من هذا الوضع المهين ، وساعدها لتأخذ وضعها الطبيعى فى المجتمع الذى تعيش فيه ، فلو أن الإسلام لم يتدخل وترك الأمر على ما كان عليه حين كان الرجل يتزوج عشر نسوة أو أكثر أو أقل فماذا كان يكون وضع المرأة حينئذ ؟

إن الإسلام حين يتدخل على هذا النحو يعالج المشكلة علاجا موضوعيا غير قابل للتعديل والتبديل كلما مر عليه حين من الدهر ، ويكود قد وضع للمشكلة حلا ثابتا مناسبا تتحقق به المصلحة العامة لكلا الجنسين الذكر و الأنثى على حد سواء ، وكما بينته من قبل .

يقول المرحوم سيد قطب : « فقد جاء الإسلام إذن ، وتحت الرجال عشر نسوة أو أكثر أو أقل - بدون حد ولا قيد - فجاء ليقول للرجال : إن هناك حدا لا يتجاوزه المسلم - هو أربع - وإن هناك قيدا - هو إمكان العدل - وإلا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم .

جاء الإسلام لا ليطلق ، ولكن ليحدد ، ولا ليترك الأمر لهوى الرجال ولكن ليقيد التعدد بالعدل ، وإلا امتنعت الرخصة المعطاة »[1] .

والسؤال الذى يفرض نفسه هو ، كيف واجه المسلمون هذا الموقف ؟ وما موقفهم حين حرمهم الإسلام من الاستمتاع بمن زدن على أربع ؟ وماذا كان جوابهم عندما أمرهم الرسول بإمساك أربع ومفارقة الباقيات ؟؟

لقد واجه المعددون هذا الموقف فى شجاعة ، وجعلوا عواطفهم خلف ظهورهم ، ولم يكن منهم إلا السمع والطاعة ، فأمسك كل منهم أربعا وفارق

---

(١) فى ظلال القرآن : م١ /٥٧٨ ، ٥٧٩ .

الزائدات على ذلك دون أن يتردد أو يعترض .

لا شك أنه موقف يحتاج إلى كثير من التدبر والتفكير ، تبرز فيه العواطف كأشد ما يعرف الإنسان من توقد العواطف وسيطرتها ، لاسيما إذا كانت النسوة مخلصات لزوجهن متحببات إليه ، مطيعات لأمره ، لم ير منهن غدرا ولا خيانة فكيف ؟ ومن منهن يقدر على فراقها بتلك السهولة ؟

ولكن تلك العواطف الملتهبة ، وهذه المحبة المتبادلة لم تكن قط حائلا دون تنفيذ أمر القيادة أو التردد فى قبوله والالتزام به .

وللتشريع الإسلامى مذهب فى الاقتصاد انفرد به ، لم يسبقه إليه تشريع ، ولم يلحقه فيه مذهب ، والمتأمل فى أسس وقواعد الاقتصاد الإسلامى يتأكد من خلال تأمله أنه مذهب فريد ، لا يوصف بالاشتراكية ، لأنه يحافظ على الملكية الفردية ويحترمها ويحرمها على غير مالكها إلا بحق ، ولا يوصف بالرأسمالية ، لأنه يحدد طريقة الكسب ويضع الشروط والمواصفات التى تبيحها .

ليس الاقتصاد الإسلامى اشتراكيا لأنه يحترم رأس المال ويعترف به ، ويعتبر الاستيلاء عليه بغير حق اعتداء محرما ، وليس رأسماليا لأنه يفرض للفقير حقا معلوما فى الأموال ، ويحرم الرشوة ، ويلعن المحتكر ، ويحارب الاستغلال ويعلن الحرب على المرابين .

لقد كانت الأوضاع الاقتصادية فى الجزيرة العربية قائمة على النظام الربوى وكان ذلك ناشئا عن تأثير اليهود فى الجزيرة ، وهم الذين كانوا يملكون رؤوس الأموال الضخمة ، وكانوا يقرضون العرب بفوائد باهظة كما هو معروف عنهم فى جميع العصور والأوطان التى سكنوها ، وقد تأثر العرب بتلك المعاملة التى تدر عليهم أرباحا هائلة دون أن يتعرضوا للمغامرات التجارية التى تتأثر بها رؤوس الأموال كسبا وخسارة .

إنهم حينما يتعاملون بالربا يضمنون لأموالهم مكسبا خالصا لا يعتوره شك ، ولا يكتنفه خوف ، وترتب على التعامل بالربا أنواع من المعاملات التى لا تقل بشاعة عنه كالاحتكار والغش والخداع .

وكان كبار التجار يستغلون رؤوس أموالهم فى إجبار الفقراء المحتاجين على الخضوع لما يحبون ، ويوجهونهم كيفما يشاءون ، ويسخرونهم فى استثمار أموالهم وهم لها ضامنون .

وجاء الإسلام فحرم كل هذه المعاملات الفاسدة ، ووضع قواعد جديدة للاقتصاد الإسلامى ، فأقامه على التعاون والتكافل والتراحم ، وشجب كل معاملة تخالف تلك الأسس ، واعتبرها خروجا على النظام الإسلامى .

وقبل المسلمون هذا النظام الجديد بنفوس راضية ، واستقبلوا هذا التغيير الجذرى فى حياتهم الاقتصادية ببساطة وتسليم مهما أعقبه من خسائر مادية جسيمة نتيجة تحريم التعامل بالربا وهو النظام المتعارف عليه عندهم .

لقد كان التعامل بالربا يدر على المتعاملين به أرباحا طائلة وفيرة من غير جهد مبذول ، وكانوا يتقون به شر الهزات المالية المدمرة التى تترتب أحيانا على الإتجار ككساد الأسواق وهبوط الأسعار وغير ذلك .

ومع ما كان فى التعامل بالربا من ربح فاحش ومضمون ، فإن المؤمنين قد ضحوا بهذا الربح ، وقنعوا بالمكاسب التى تأتيهم عن طرق التجارة الحلال الطيب ، ورضوا بالقليل فبارك الله لهم فيه وأصبح كثيرا ، والتزموا بأمر الله – جل شأنه – : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾[1] .

والجانب الأخلاقى فى الإسلام له حظ وافر ، فالإسلام يدعو إلى مكارم الأخلاق ، ونبى الإسلام بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، والمؤمن يبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم ، وأقرب المؤمنين مجلسا من رسول الله ﷺ يوم القيامة أحاسنهم أخلاقا الموطأون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون .

وعلى هذه القواعد انطلق الإسلام يدعم الأسس الأخلاقية بين المسلمين ، ويرتقى بالمجتمع الإسلامى ارتقاء لم يعرف فى مجتمع قبله .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٧٨ .

روى المؤرخون أن رسول الله ﷺ وهو يعرض الإسلام على قبائل العرب لقى بنى شيبان ، وفيهم مفروق بن عمرو ، فعرض الرسول عليه الإسلام ، فقال مفروق : إلام تدعو يا أخا قريش ؟

فتلا الرسول ﷺ عليه الآية : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون ﴾(1) .

فقال مفروق : دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك(2) .

لم يكن المجتمع العربى فى الجاهلية قد ألف هذه الفضائل وإن عرفها ، ولم يكن متمسكا بها وإن أدرك فضلها ، ولكن الإسلام قد فرضهاعليهم فرضا ، وألزمهم بالتحلى بها والتخلى عن أضدادها فالتزم ولم يحد ، لقد أمر الإسلام بغض البصر عن النساء الأجنبيات فغضوا أبصارهم فنشأ عن ذلك مجتمع الفضيلة والطهر ، وأمر بالاستئذان عند دخول البيوت وإلقاء السلام على من فيها فوجدت المحبة والمودة والتراحم ، وأمر بالإحسان إلى المسىء فاجتمعت القلوب والتأم الشمل .

لم تكن هذه الأخلاق مبادىء نظرية سطرت ولم تطبق ، ولكنها كانت ككل المبادىء التى جاء بها الإسلام برامج عملية ، ومناهج تربوية التزم بها المسلمون ، وطبقوها على أنفسهم قبل أن يطالبوا بها غيرهم .

وأبو بكر الصديق – رضى الله عنه – الرجل الثانى فى الإسلام بعد رسول الله ﷺ يأخذ بها نفسه ، ويضرب بذلك المثل الأعلى لمن يريد التأسى ، بل ورسول الله ﷺ يسبق أبا بكر فى ذلك فيكون القدوة العملية للمسلمين جميعا .

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن أعرابيا جاء إلى النبى ﷺ يستعينه فى شىء ، فأعطاه شيئا ، ثم قال : أحسنت إليك ؟

---

(1) سورة النحل : الآية ٩٠ .
(2) حياة محمد ط ٩ ص ١٣٦ ، مختصر سيرة الرسول ص ١٥١ .

قال الأعرابى : لا ولا أجملت .

فغضب المسلمون ، وقاموا إليه .

فأشار إليهم ﷺ : أن كفوا .

ثم قام فدخل منزله ، ثم أرسل إلى الأعرابى ، فدعاه إلى البيت ، فزاده شيئا فرضى .

فقال ﷺ : إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك وقلت ما قلت ، وفى أنفس المسلمين شىء من ذلك ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك .

قال : نعم .

فلما كان الغداة أو العشى جاء .

فقال رسول الله ﷺ : إن صاحبكم هذا كان جائعا فسألنا فأعطيناه ، فقال ما قال ، وإنا دعوناه إلى البيت فأعطيناه فزعم أنه رضى ، أكذا ؟

قال الأعرابى : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

فقال النبى ﷺ : ألا إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه ، فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا .

فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى فأنا أرفق بها .

فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض فجاءت فاستناخت ، فشد عليها رحلها ، واستوى عليها .

وإنى لو تركتكم حين قال الرجل ما قال ، فقتلتموه ، دخل النار[1] .

وهكذا يضرب الرسول ﷺ لأصحابه مثلا فى التحلى بالمكارم والبعد عن الرذائل ليقتدوا به ، فى هذا الجانب العظيم من جوانب التربية الأخلاقية العالية

---

(١) الوفا بحقوق المصطفى لابن الجوزى ٢/٨٢ ، ٨٣ .

حتى استحق بذلك أن يصفه ربه – جل ثناؤه – بقوله – تعالى – : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾(1) .

ثم ماذا عن أبى بكر – رضى الله عنه – ؟

لقد كان يقتدى برسول الله ﷺ فى كل أحواله وأفعاله وخلقه وأعماله ، وأننا لنلمس ذلك بوضوح فى قصة الإفك ، حيث يطعن فى عرضه وشرفه ، وتجرح كرامته فى أعز الناس بعد رسول الله عنده .

ولقد تأكد – رضى الله عنه – أن مسطح بن أثاثة ممن تكلموا بالفاحشة وأشاعوها ، وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقرابته وفقره ، فلما بلغه ما بلغه عنه حلف لا ينفق عليه ، ولا ينفعه بنفع بعد الذى قال عن عائشة ، وأدخله على أبى بكر من الهم بتلك التهمة الخطيرة .

وليس هناك ما يلام عليه أبو بكر فى ذلك ، بل هو أقل ما يتصوره الإنسان ممن يرمى فى عرضه وشرفه ، وإننى أعتقد أن ما أخذ به أبو بكر نفسه من تعاليم الإسلام وآدابه هو الذى عصمه عن قتل مسطح والإيقاع به ، وإلا فإن القتل أقل ما يمكن أن يقابل به رجل خاض هذا الخوض فى مثل البيئة التى يعيش فيها مسطح وأبو بكر .

ومن المعلوم أن العربى كان يدفع عن عرضه لو بذل فى ذلك روحه لأن العرض عندهم شىء ثمين لا يفرط فيه حرمهما كانت ظروفه وحالته ومن أجل هذا كانوا يئدون بناتهم أحياء خشية أن يجلبن لهم العار .

فما فعله أبو بكر – رضى الله عنه – إذن من الحلف على ألا ينفق على مسطح هو شىء لا يخرج عن الخلق والمروءة ، ولكن الإسلام كان ينشد الأفضل والأمثل دائما وهو يربى أتباعه .

نعم ، إن حرمان مسطح من نفقة أبى بكر وقد قال ما قال شىء لا يعاب به أبو بكر ، ولا يتعارض مع الآداب ، ولكن ما ينبغى أن يكون عليه أبو بكر

---

(1) سورة القلم : الآية ٤

وأمثاله من مقابلة السيئة بالحسنة ، ومن العفو والصفح هو الذى يستحسن أن يوجه إليه المسلمون .

لهذا لما حلف أبو بكر ألا ينفق على مسطح نزل قوله - تعالى - : ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم ﴾[1] .

ولم يكد يسمعها أبو بكر - رضى الله عنه - حتى قال : بلى والله ، إنى لأحب أن يغفر الله لى .

وعاد إلى ما كان يفعل من قبل ، وأعاد إلى مسطح نفقته التى كان يبذلها له طمعا فى غفران الله ورحمته .



(١) سورة النور : الآية ٢٢ .

٣ - حماية الإسلام والدفاع عنه :

وهذا هو الواجب الثالث من واجبات الجنود ، وهو لا يقل أهمية عن سابقيه ، ولقد كانت تربية الجنود على الواجبين السابقين والاهتمام بهما ، والتأكد من حرصهم على إخلاص ولائهم لقيادتهم والتزامهم بأوامرها ، كان ذلك كله تمهيدا للقيام بهذا الواجب العظيم .

إن الإسلام لم ينشىء جيشا رغبة فى الحرب وحبا للسيطرة على الغير وإلا لما قال الله - تعالى - لقائد الجيش ﷺ : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾[1] .

والإسلام لم يدخل المعارك التى خاضها طمعا فى استعباد الناس وقهرهم لسلطانه ، وإلا لما أعلن دستوره الخالد ذلك المبدأ الذى يقرر حرية الأديان ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾[2] .

وإنما شرع الإسلام الجهاد ، واهتم بأمر الجيش ، ورباه تلك التربية الروحية والعقلية والجسمية كما أسلفنا[3] ليكون الدرع الواقى والسلاح الرهيب والقوة المانعة الذابة عن حمى الإسلام والرادعة لمن يعاديه ويقف فى طريقه .

إن الذين يسالمون المسلمين ، ولا يعوقون سير الدعوة إليه ، ولا يناصرون عليه عدوا أولئك لهم الأمن وإن لم يدخلوا فى الإسلام ، أما الذين يناصبونهم العداء ، ويعرقلون مسيرة الدعاة إلى الله ويعضدون أعداء الإسلام ، فأولئك يعرضون أنفسهم لنقمة الجيش الذى وهب نفسه وحياته لإعلاء كلمة الله .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٦١ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .

(٣) يراجع القسم الأول من هذا الكتاب .

لم يكن هذا الجهد المبذول فى تربية الجيش ، ولا هذا الحسم والمفاصلة فى تحديد هذه المعانى وضبطها عبثا يفسره كل إنسان حسب هواه ، ولا لهوا يتسلى به المتنطعون فى أوقات فراغهم ، بل كان تحديد الإسلام لمعنى الولاء ، وتمحيص الإخلاص بحزم للقيادة المؤمنة الرشيدة ، وكان رفضه الشركة فى الولاء مهما كان الشريك ، وكذلك كان تركيز معنى الالتزام فى نفوس الجنود ، وتربيتهم على احترام الأوامر الصادرة إليهم ، وعدم قبول التردد فيها ، كان ذلك كله إعداداً للجنود للقيام بمهمة عزيزة وتوجيها لهم إلى غاية سامية كل السمو ، تلك هى حماية الإسلام والدفاع عن رسالة السماء .

إن حماية الإسلام والدفاع عنه غاية مطلوبة من كل مسلم فالذين يقفون متفرجين والإسلام يصرع بأية صورة من الصور ليسوا بمسلمين ، والذين يحوقلون ويتوجعون والإسلام يمتحن وهم قادرون على إنقاذه ولا يفعلون ليسوا من الإسلام فى شيء مهما زعموا أنهم مسلمون .

وأدهى من هؤلاء وأولئك الذين يشجعون الظلمة على انتهاك حرمات الإسلام والفتك بالمسلمين ، ولا ينفكون عن الهتاف والتصفيق للطغاة المجرمين ، ويحلفون بعد ذلك أنهم مسلمون ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون .

لقد كان الإسلام عزيزا بعزة المسلمين ، منيعا لايرام بقوتهم ، لم يستطع أحد أن يقهره أو يفكر فى الدخول معه فى معركة ، حيث كانت النتيجة معروفة مسبقا ، ولما حاول الصليبيون ومن والاهم تجربة حظهم معه لم يهنئوا بنصر ، ولم يستقروا فى بلد من بلاده ، ولم تعرف راحة البال إلى قلوبهم سبيلا ، بل كانوا يخرجون من معركة ليقاسوا أشد منها هولا وفزعا ، وكانوا يلتقطون أنفاسهم فى مكان ليستعدوا للهث والبُهر فى مكان آخر .

تلك كانت حالة أعداء الإسلام حينما كان المسلمون معتصمين بحبل الله ، كلمتهم سواء ، وجيشهم قوى ، وسلطانهم واحد ، فكيف استطاع أعداء الإسلام بعد ذلك النيل منهم ؟؟

ذلك هو السؤال الذى يجب أن نتمعن فيه ، ونوليه كثيرا من العناية والاهتمام ، لأننا إذا عرفنا الوسائل التى تمكن بها أعداؤنا من النيل منا تلافيناها ووضعنا لها العلاج الناجع للتغلب عليها .

والحقيقة أن أعداء الإسلام لم يستطيعوا أن يحققوا التغلب على المسلمين بقوتهم العسكرية لأن وجود قوات احتلال فى بلاد المسلمين يثير عواطفهم ويؤجج غيظهم ، ويفجر منابع القوة فى نفوسهم، وقد لمس الأعداء ذلك بأنفسهم فعجلوا إلى أنواع شتى من الحروب الباردة التى لا يستعمل فيها البارود ، ولا يسمع فيها أزيز الطائرات ولا فرقعة القنابل ولكنها حروب هينة لينة تصيب من الإنسان مقتلا دون أن يشعر هو ولا من حوله بذلك ، وينتكس فيها الإنسان فيصبح غريب اللسان غريب العقل ، غريب القلب يحب أعداءه ويبغض أحباءه .

وتلك هى أخطر ما عرفت البشرية من أنواع الحروب ، لأنها تقتل الإنسان وهو حى بين الناس يمشى ويأكل ويشرب ، وتلك هى مظاهر الحياة عند البسطاء ، نعم ، إنه يأكل ويشرب ويمشى كما يأكل ويشرب ويمشى أبناء جلدته ، ولكنه لا يفكر بعقله كما يفكرون ، ولا يحس بأحاسيسهم كما يحسون ، ولا يميل بقلبه إلى عقيدته ووطنه كما يميلون .

لقد استطاعت الحروب الباردة التى استعملها الأعداء ضد المسلمين أن تمسخ عقولهم ، وتشوه ألسنتهم ، وتطمس على قلوبهم ، فهم لا يفكرون إلا بعقول الأعداء ، ويفضلون لغتهم على لغة الآباء ، ولا تلين قلوبهم إلا عند ذكرهم ، وهذا هو الذى سبب دهشة المخلصين وحيرتهم حتى أصبحوا يبحثون عن علاج لتلك الأدواء التى ابتلى بها المسلمون .

إنهم يرون فى كل يوم حربا من طراز لم يألفوه ، وفى كل ميدان معركة ليس لها نظير ، وأسلحة فتاكة صنعت خصيصا لإبادة المسلمين .

فهناك الغزو الفكرى الخطير ، والإغراء الجنسى الهابط ، والإلحاد والتحلل ، والدس فى مناهج التعليم ، كل هذه ألوان من الحروب التى استحدثها الأعداء ليسلخوا المسلمين عن دينهم ، ويبعدوهم عن مصادر قوتهم وعزهم ويذللوهم لأهوائهم وأفكارهم .

ويحسن بنا أن نتناول هذه الألوان بشيء من الإيجاز يتناسب والمقام ، ثم نبين كيف يتقيها المسلمون ويعملون على إحباطها .

أ - الغزو الفكرى :

لا يزال الغزو الفكرى أخطر أنواع الغزو رغم اختراع الأسلحة الفتاكة بأنواعها المختلفة ، إنه أفتك من القنابل الذرية لأنه يشوه الحياة ولا ينهيها ، وأخطر من الأسلحة الكيماوية لأنه يجعل الإنسان عدوا لدينه ووطنه وعشيرته وليس ذلك فى مقدورها ، إنه لون جديد ناعم من ألوان الحرب التى لجأ إليها الأعداء بعد فشلهم فى معارك السلاح والكفاح .

إنه غزو منظم مكتوب ، نقرؤه على صفحات الجرائد والمجلات فى صورة قصة شيقة أو نكتة مسلية أو مقال أدبى أو حوار فنى أو أغنية داعرة ، وهو غزو مسموع منمق تحمله إلينا الإذاعات عبر الفضاء فى القوالب السالفة نفسها ، وهو غزو مشاهد مزوق يبثه التلفاز فى صور حية متحركة من النساء العاريات والشباب الخليع وأبطال الرياضة المخنفسين ونجوم الخيالة (السينما) المفتونين وكواكب الغناء المستهترين المجانين .

إنه غزو اقتحم كل قلب ، وطرق كل باب ، وتسلل إلى كل نفس ، وعشش فى كل بيت ، وليس هناك من يزعم أن هذا الغزو الرشيق لم يصل بعد إلى داره إلا نفر يسير نرجو أن يجعلنا الله منهم وأن يثبتنا جميعا على الحق الذى آمنا به وعرفناه .

ولقد ظهرت آثار هذا الغزو على كثير من المسلمين ، حتى أصبحت ظواهرهم إعلانا سافرا ودعوة ملحة لقبول هذا الغزو أساسا لعلاقات الناس ومعاملاتهم ، وأصبح الذين ينكرون ذلك ، ويدعون إلى التحذير منه ، وينبهون الأمة على خطره منبوذين فى مجتمعاتهم الممسوخة التى تعتبر فى نظر المنصفين تزييفا لخصائص هذه الأمة وافتراء على مقوماتها ، وراح أولئك الممسوخون المشوهون يرمون المصلحين بالرجعية والتخلف والجمود .

إن هؤلاء الممسوخين الذين يفتخرون بتراث غيرهم ، ويتباهون بما لم تصنعه أيديهم ، ويتخذون من الغزاة أصدقاء على حساب عقيدتهم وتقاليدهم ، إن هؤلاء هم المعتوهون حقا ، وسيكونون هم الضحية الأولى لذلك الغزو الخبيث ، ويومئذ يعضون أصابع الندم ، ولات ساعة مندم ، وعليهم ينطبق قول شوقى :

ملأ الجو هتافا بحياتى قاتليه
ياله من ببغاء عقله فى أذنيه

هذا الغزو هو المعروف الآن بعمليات غسيل المخ ، ومهمته أن ينتزع المعارف الأصيلة والمبادىء القويمة ، والأفكار الصحيحة من عقول الناس ليحل محلها معارف زائفة ، ومبادىء دخيلة ، وأفكار سقيمة .

إن وظيفة هذا الغزو الحقيقية هى تطويع الإنسان الذى يتعرض له ليكون آلة سهلة التحريك فى يد الغزاة ، يغرسون فى عقله أفكارهم فلا يؤمن بغيرها ، ويرددون أمامه ، مبادئهم فلا يتكلم إلا بها .

يعرضون عليه حضارتهم ، ويزيفون التاريخ لئلا يرى غير صورتهم ويقتلعون من قلبه حب وطنه ، ويلقنونه حبهم والإخلاص لهم .

يقدمون له ذلك كله فى صور خادعة ، وكلمات معسولة ، وتصنع فى المعاملة لا يدركه إلا ذوو البصائر المستنيرة ، ولا يزالون به حتى يكون تفكيره بعقولهم ، وكلامه بلسانهم ، وولاؤه لحضارتهم ومبادئهم وعندئذ يصبح ذلك الشخص وبالا على أمته ، وبلاء على بنى جلدته ، وعندئذ يطمئن الغزاة إلى أن هذه الأمة التى أثمر فيها هذا الغزو أصبحت فى جيوبهم ، يحركونها بأصابعهم ، ويربطون مصيرها بكيانهم ، ويجدون من أبنائها من يحقق لهم رغبتهم ومصالحهم .

ب – الإغراء الجنسى :

وهذا النوع من الإفساد ناعم الملمس ضارى النتائج ، لين المظهر قاسى المخبر ، يتذرع دعاته بالتقدم ، ويتظاهرون بحرية المرأة و يستترون خلف الحضارة ، وليس لهم من وراء ذلك غاية إلا نبذ الفضائل والتخلى عن مكارم الأخلاق وإشباع نزواتهم المحمومة ، وإطفاء غرائزهم البهيمية .

ولست أدرى ، من المرأة التى صرخت فى هؤلاء لينقذوها ؟ ومن تلك التى استغاثت بهم لينجدوها ؟؟

يالك من مخلوقة مظلومة ! لقد أخرجوك من خدرك المصون زاعمين أنهم يريدون تحريرك ، ومتى كنت مملوكة حتى يحرروك ؟

إن المرأة منذ خلق الله الخلق حرة طليقة ، تنجب الرجال الأفذاذ ، وتصنع الأبطال الأشاوس ، ولقد حفظك الله ، وأمر بصيانتك لتقومى بالمهمة العظيمة المنوطة بك ، وضرب عليك الحجاب ليصونك من عبث العابثين ، ومجون الماجنين ، وأحاطك بالإجلال والتوقير كما تحيط الصدفة باللؤلؤة لحمايتها من كل معتد أثيم .

فما بال هؤلاء المسعورين يغيرون عليك فى غفلة من أبنائك البررة ، ويخرجونك من قصرك المنيع ، وينزلونك عن عرشك الرفيع ، ويتركونك فى الشوارع هائمة حائرة لا تدرين إلى أين تذهبين .

ولست بذلك أدعو إلى ما يزعمه الزاعمون من جعل المرأة كما مهملا أو سلعة تباع وتشترى ، أو دمية تزين بها المتاحف والقصور ، أو قطعة من أثاث فاخر تزخرف بها الغرف والصالونات .

معاذ الله أن يكون الإسلام داعيا إلى شىء من ذلك ، أو يكون المسلمون الواعون يفهمون ذلك الفهم .

إن الإسلام هو أول من أنصف المرأة يوم كانت لا يلتفت إليها أحد ، ولا يعبأ بها مخلوق ، وهو الذى وقف إلى جوارها يشد أزرها وينزلها تلك المنزلة الرفيعة .

الإسلام هو الذى اعتبر المرأة صنو الرجل ، فأعطاها من الحقوق كل ما أعطاه الرجل ، وكلفها بالواجبات كما كلفه ، وجعل لها من الأجر والمثوبة على ما تعمل من الصالحات مثل الذى جعل له ، قال – تعالى – : ﴿ ومن يعمل من

الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ، ولا يظلمون نقيرا ﴾[1] .

والإسلام هو الذى قدم بر الأم على بر الأب ، حيث أمر الرسول ﷺ ببرها ثلاثا ، وأمر فى الرابعة ببر الأب ، والإسلام هو الذى جعل الجنة فى رضاها وتحت أقدامها ، وخص النساء فى القرآن الكريم بسورة من طوال سوره ، فصل فيها أحكامهن ، وفرض لهن حقوقا ، وأوجب عليهن واجبات .

إن الإسلام حين ينادى بإكرام المرأة والمحافظة عليها ، وحين يصونها من الأيدى العابثة الملوثة ، وحين ينأى بها عن التبذل والمهانة ، لا يريد إلا أن تظل المرأة جوهرة ثمينة ، مصونة الشرف رفيعة القدر غالية المنزلة .

أرأيت لو أن إنسانا يملك لؤلؤة ثمينة أو ألماسة نادرة ، فهل تراه يلقى بها فى الطريق أم يختار لها المكان المناسب الذى يصونها عن أيدى اللصوص ، ويحفظها من عيون الحاسدين ، ويبعدها عن عبث العابثين ، قل لى بربك ، أى الأمر تفعل إذا كنت تملك تلك اللؤلؤة الثمينة ؟

وإننا لو استفتينا أى عاقل فى شأن من يلقى بالأشياء الثمينة فى عرض الطريق ، لأفتى بأنه أحمق سفيه يجب الحجر عليه ، وحرمانه منه .

والإسلام يعتبر المرأة من أنفس المخلوقات وأثمنها لهذا أمر بالمحافظة عليها وصيانتها .

ماذا يريد دعاة السفور والاختلاط ؟

إنهم يقولون : نريد أن نسوى بين المرأة والرجل فلا يكون هناك فرق بينهما .

وهم بذلك يشوهون صورة المجتمع الرائعة المنسقة المنسوجة من الذكر والأنثى وهل هناك معنى لهذا إلا أن يصبح المجتمع كله – بعد التسوية – من نوع واحد ، فإما أن يكون كله رجالا ، وإما أن يكون كله نساء ، وهذه محاولة فاشلة

---

(١) سورة النساء : الآية ١٢٤ .

لا يقبلها الرجال ولا النساء العاقلات ، ولا أعتقد أن هناك أحد يقبل بهذا ، فلا المرأة ترضى أن تكون رجلا ، ولا الرجل يقبل أن يكون امرأة .

إن الله - عز وجل - بحكمته ، خلق كلا النوعين ، وأعطى لكل نوع خصائصه ومميزاته ، وحبب إلى كل منهما هذه الخصائص وتلك المميزات حتى بلغ ذلك الحب حد التعصب للجنس ، ولهذا يغضب الرجل ويثور حينا يوصف بأنه كالمرأة ، ويشتد غضب المرأة ويزيد انفعالها عندما يقال إنها كالرجل ، وليست ثورة الرجل ، وليس انفعال المرأة إلا لأن كلا منهما قد أحس بالإهانة والازدراء حين سلبت خصائصه ومميزاته ، ونسب إلى خصائص ومميزات لا تتفق مع طبيعته .

تلك حقيقة تحدث تلقائيا وبدون شعور فى كل عصر وفى كل حين حتى مع هؤلاء الذين ينادون بالمساواة ، ويحملون لواء تلك الدعوة المأفونة .

إن جمال المجتمع وروعته لا تتم إلا بوجود الصنفين معا ، فلكل منهما وظيفته التى لا يستطيع غيره القيام بها ، ولكل منهما قدراته وإمكاناته التى يعجز غيره عن أدائها .

ولو تصورنا مجتمعا كله من الرجال أو النساء ، لكان فى هذا المجتمع من النقص بقدر ما ينتقص من الصنف الآخر ، فصورة المجتمع المتوازن وحقيقة الجمال فى أى مجتمع تكمن فى وجود الذكر والأنثى ، وتمتع كل منهما بخصائصه ومميزاته بحيث لا يطغى جنس على جنس ، ولا نتهاون فى صنف من أجل صنف .

ماذا يريد دعاة المساواة بين الرجال والنساء ؟ وماذا يقصدون من رفع هذا الشعار ؟

إنهم فى الحقيقة لا ينصفون المرأة ولا يحررونها كما يزعمون ، ولكنهم فى الواقع يقضون على هذا الجنس ، ويمحونه من الوجود ، إن حقيقة المساواة التى يريدونها ليس وراءها إلا إلغاء أحد الجنسين ، وأكثر ما يكون الإلغاء فى المقيس لا فى المقيس عليه ، وإذا تمت المساواة على هذا النحو نكون قد فقدنا نصف

المجتمع على الحقيقة حيث تكون المرأة قد ألغيت من المجتمع لتحل محل الرجال ، وتقوم بوظائفهم .

ومهما حاول دعاة هذه الفتنة فإنهم لن يستطيعوا تغيير حقيقة المجتمع وجوهره ، فالرجل هو الرجل لا يستغنى عن المرأة ولا تستقيم الحياة بالنسبة لها إلا به ، والمرأة هى المرأة لا تستغنى عن الرجل ، ولا يتم نظام المجتمع إلا بها ، وكلاهما فى الحقيقة هما المجتمع السوى القائم على الجمال والحق والعدل والخير .

ولكن ومع شديد الأسف ، لقد أصبحت هذه الدعوات الوافدة على بلادنا الإسلامية وفود الحمى محل نظر واقتناع من كثير من الناس ، حتى غدت خلقا اجتماعيا يدل على ظرف فاعله ولباقته وحسن تصرفه .

ولا تكاد تجد رجلا لا يقدم لك زوجته لتتعرف عليها وتصافحها إلا نادرا ، والرجل الذى يضن بزوجته أن تخالط الرجال ، وتأبى عليه مروءته أن يصافح النساء يعيش فى هذا المجتمع غريبا ، بل هو فى نظر هؤلاء جلف غليظ ، قليل الذوق ، لم يعرف نظم المجتمعات محروم من أعرافها وتقاليدها التقدمية .

ج - الإلحاد والخروج على الدين :

وهناك دعاة الإلحاد والخروج على الدين والتخلص من أعبائه وتكاليفه ، والتجرؤ على ذات الله - تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا - وقد بلغت الوقاحة بمجلة تمثل جيشا فى دولة تدعى أنها عربية ومسلمة أن تقول : الله والرسل والأديان ، دمى يجب أن تعرض فى متحف التاريخ لتتفرج عليها الأجيال المتلاحقة .

وينادى بعض الكتاب فى بلد عربى آخر بعد الهزيمة المنكرة التى منيت بها الجيوش العربية فى عام ١٩٦٧ م بوجوب نبذ الدين ، والتخلص من نظمه وتعاليمه مدعين أن الدين هو السبب فى تأخرنا وهزيمتنا ، ويقولون : إننا لم نصل إلى هذا الحد من التخلف إلا لتمسكنا بالدين ، وإن أوروبا لم تبلغ ما بلغت من التقدم والرقى إلا منذ جعلت الدين دبر أذنها ، وتركت مبادءه خلف ظهرها .

وتكررت تلك الدعوة الانهزامية حتى ألفها الناس ، وأصبحت شعارا يهتف به كل عدو لدود للإسلام والمسلمين ، وساعدت على ذيوعها وانتشارها وسائل الإعلام الخاضعة لتخطيط اليهود ومن والاهم ، وركز الملاحدة على هذه المعانى بغير استحياء .

ونحن نتساءل ، أى دين هذا الذى كنا متمسكين به حين أصبنا بتلك الهزيمة ؟

إنهم ولا شك يقصدون الدين الإسلامى الذى أصبح بهذه الصورة من الضعف والهزال ، ومع ذلك فهم يخشونه ويقدرونه قدره .

وهم لا يريدون من وراء ذلك إلا أن نترك البقية الباقية من تعاليم هذا الدين ، والتى أصبحت تؤدى ممن يؤدونها بصورة آلية صرفة لا تغنى عن صاحبها شيئا ، ولا ترد عنه معتديا .

إن ما بقى من الإسلام عند المسلمين لا يزيد على طقوس ودعوات ومع ذلك نتهم بإننا متمسكون بالدين ، إننا لا نعرف فترة من فترات التاريخ كان المسلمون فيها أكثر تساهلا فى دينهم من تلك الفترة التى ينادى فيها بنبذ الدين ، وهل بقى لدينا شيء منه حتى ننبذه ؟

ونتساءل مرة أخرى ، لماذا لم توجه هذه الدعوة لغير المسلمين ؟

إن اليهود لا يزالون يصرون على تقاليدهم الدينية رغم فسادها ، وقد طالعتنا الصحف بأن بنت موشى ديان – وهى مجندة فى الجيش الإسرائيلى – رفضت أن تأكل طعاما مطهوا يوم السبت الذى سبق المعركة مباشرة بحجة أن الدين اليهودى لا يبيح لهم أكل ما طهى على النار يوم السبت . ونقرأ كذلك فى مفاهيم إسلامية للكاتب جلال كشك بأن رئيس دولة إسرائيل ورئيس وزرائه رفضا أن يركبا سيارة عند تشييع جنازة تشرشل ، لأن ذلك كان يوم السبت ، وقد مشيا على أقدامهما مسافة طويلة من الكنيسة إلى المقابر رغم أنهما كانا يتجاوزان السبعين من العمر ، لأن دينهما يحرم عليهما ذلك يوم السبت .

وكذلك النصارى يصرون على التبشير وإدخال الناس فى دينهم ويبذلون فى ذلك بلايين الدولارات ، وثمين الأوقات ، ويسخرون له خيرة أبنائهم ، وخلاصة أفكارهم ، فلماذا لم توجه الدعوة إلى هؤلاء وأولئك لترك دينهم ؟ أوليس هؤلاء هم الذين يطلب منا أن نقلدهم ونسير فى ركابهم ؟؟

إن المقصود إذن هو الإسلام لا غير .

لقد تكررت تلك الدعوة فى كل مجال وفى كل مناسبة وغير مناسبة ، وفى كل صحيفة وكتاب وحديث ومحاضرة حتى ظن البسطاء أنها الحق الذى يجب أن يطاع ، وأصبح المسلم يستحى أن يظهر دينه وأصبح الرجل المتدين رمزا للبله والدروشة ، والمرأة المحافظة عنوانا للهزؤ والسخرية ، وأصبح الإسلام بعقيدته وعباداته ، وتشريعاته ومعاملاته ، وقيمه وفضائله ، وآدابه وأخلاقه مضغة فى أفواه السفلة والرعاع بتحريض ممن يحملون لواء هذه الأراجيف من أعداء الدين وأبنائه المتأثرين على حد سواء .

لماذا كل هذه الحملة المسعورة على الإسلام بالذات ؟ وأين المتمسكون بدينهم الآن حتى تشن هذه الحملات بلا هوادة ؟؟

إن القاصى والدانى والعدو والصديق ، يصرخون ويشكون من عدم التمسك بالدين ، وإهمال تعاليمه ، وإن الدراسات الواعية والإحصاءات الوافية تؤكد أن ما يعيشه المسلمون الآن من الصغار والهوان إنما هو بسبب البعد عن الدين والانفلات من ربقته ، ولو أن الدين هو سبب ما نحن فيه من الهزائم والنكبات لما انتصر به أسلافنا ولما أسسوا هذه الحضارة التى لا تزال معالمها تشهد بجدارة المسلمين فى كل مكان فتحوه وحلوا به سواء كان ذلك فى أوروبا أم فى آسيا وأفريقيا .

إن المناداة بنبذ الدين مكيدة دبرها الأعداء ، وهى وإن اقتنع بها كثير من أبناء جلدتنا إلا أنها لم تستطع الوصول إلى قلوب المؤمنين ، لأنها منافية لأبسط قواعد التفكير البشرى السوى ، ولئن كانت أوروبا قد بلغت ما بلغت بعد مفارقتها الدين فإن ذلك لا يكون قاعدة للرقى والتقدم لكل من يريد ذلك .

إن المسلمين قد سبقوا أوروبا فى مضمار التقدم والرقى ، وبلغت الحضارة الإسلامية شأواً بعيداً فى وقت كانت أوروبا فيه غارقة فى بحار الجهل والظلمات ، وعبرت الحضارة الإسلامية إلى أوروبا فاستنارت بنورها واهتدت بهديها ، ونسجت على منوالها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه .

ولم يتقدم المسلمون هذا التقدم ، ولم يؤسسوا تلك الحضارة إلا وهم معتصمون بدينهم ، عاملون بمبادئه ، متمسكون بعقيدتهم .

أليس هذا دليلا على أن تمسكنا بديننا ، واعتصامنا بعقيدتنا هما سر تقدمنا وتحضرنا ورقينا ؟

إن الدين الذى تحللت منه أوروبا فنهضت تلك النهضة العلمية الكبيرة ليس هو الدين الذى جاء به عيسى – عليه السلام – ولكنه الدين الذى اخترعه القسيسون حين غيروا وبدلوا وحرفوا الكلم عن مواضعه فكان لذلك عقبة فى طريق التقدم والرقى ، فلما ثاروا عليه ، وحطموا خارفة وصاية رجال الدين ، وفضحوا فرية الوساطة بين الله – عز وجل – وبين خلقه ، وأطلقوا العقول وحرروها من حجر رجال الكنيسة كان لابد أن تتقدم أوروبا وتنهض ، لأنها أزالت من طريقها ما وضعه الكهنوتيون من العوائق لإيقاف النهضة ، وعرقلة التقدم .

ويجب أن نعلم أن تقدم أوروبا لم يكن لتحللها من الدين ومفارقتها له ، وإنما كان لأنها سلكت السنن الطبيعية التى جعلها الله سبيلا للوصول إلى الغاية ، واتخذت الخطوات العملية لتحقيق أهدافها ، ولو أننا تمسكنا بديننا ، واعتصمنا بعقيدتنا ، وسلكنا الوسائل التى جعلها الله – سبحانه – أسبابا للوصول إلى المقصود لبلغنا أوج الحضارة ، ووصلنا إلى ذروة من التقدم لم يصل إليها أحد بعد .

على أننا ينبغى أن نفهم أن ما وصلت إليه أوروبا من التقدم والرقى والحضارة هى مدينة فيه للحضارة الإسلامية العريقة التى عبرت إليها عن طريق الأندلس ، وحملها إليها قواد الحملات الصليبية التى أتيح لها فرص الاتصال

بالمسلمين والاستفادة من جوانب الحضارة الإسلامية الأصيلة القائمة على أساس من العقيدة الصحيحة والمدعمة بمبادىء الدين الإسلامى الحنيف .

هذا هو الحق الذى شهد به العدو قبل الصديق ، واعترف به المنصفون من الأوروبيين أنفسهم ، فكيف إذن نفسر هذا الصراخ الذى ينطلق من حناجر الحاقدين الذين ينادون بنبذ الدين والبعد عن تعاليمه ؟

ليس هناك تفسير لذلك إلا أن هؤلاء يريدون منا أن ننحرف عن وسائل عزتنا لنعيش أبد الدهر أذلة صاغرين ، حتى يتمكنوا من القضاء على مقوماتنا ليسهل عليهم تسخيرنا ، ويسلس لهم قيادنا وهم فى بلادهم آمنون .

د – الدس فى مناهج التعليم :

إن مناهج التعليم هى الأسس التى ننشىء عليها أبناءنا ، فيرضعون من لبنها فى طفولتهم ، ويتتلمذون عليها فى صباهم ، وهى التى تنقش على صفحات قلوبهم وعقولهم المبادىء التى يدينون بها ، ويخلصون لها .

علم أعداء الإسلام هذه الحقائق فلم يفرطوا فيها ، وآمنوا بقوة تأثيرها فاستغلوها ، والحق أن مناهج التعليم مرتع خصب لأولئك الدساسين ينفثون فيها سمومهم القاتلة ، ويتسللون من خلالها إلى قلوب المتعلمين وعقولهم ، فيغرسون فيها ما يشاءون مما يسهل مهمتهم ، ويعينهم على بلوغ مآربهم .

فكم من مؤتمرات عقدت ، وكم من بحوث قدمت ، وكم من دراسات أعدت ، وكم من ملايين من الدولارات أنفقت ، كل ذلك ليتمكن أعداء الإسلام من وضع الخطط المناسبة لإخراج المسلمين عن إسلامهم ، وإن لم يدخلوا فى أى دين بعد ذلك ، وكانت نتيجة ذلك كله أن افتتاح المدارس ووضع المناهج التعليمية لها هو أقرب الطرق وأسلمها لتحقيق الغرض المنشود .

لقد قرر المبشرون – وهم ألد أعداء الإسلام – هذه الحقيقة ، واعترفوا بأن المدارس ومناهج التعليم هما أهم ما يعتمدون عليه لتحقيق أهدافهم ، والوصول إلى غايتهم .

يقول المبشر هنرى جسب : إن المدارس شرط أساسى لنجاح التبشير ، وهى بعد هذا وسيلة لا غاية فى نفسها ، لقد كانت المدارس تسمى بالإضافة إلى التبشير (دق الأسفين) وكانت على الحقيقة كذلك فى إدخال الإنجيل إلى مناطق كثيرة لم يكن بالإمكان أن يصل إليها الإنجيل أو المبشرون من طريق آخر(١) .

لقد خدع هؤلاء الدساسون البسطاء من الناس بمعسول كلامهم ، وأقنعوهم بأن مناهج التعليم فى الغرب قائمة على أسس علمية تجريبية لا تقبل الشك ، واستسلم هؤلاء السذج لذلك الخداع ، ومكنوا من نقل هذه المناهج إلى بلادنا من غير فحص ولا بحث ، ناسين أو متناسين ما بيننا وبين الغرب من خلاف فى العقيدة ، وتباين فى البيئة وتناقض فى المبادىء والفكر وبون شاسع فى المثل والتقاليد والعادات ، وتلك هى الأسس الرئيسية التى يجب مراعاتها عند وضع المناهج .

لقد نسينا هذه الأسس الرئيسية عند وضع المناهج ، وفرحنا بما جلب لنا من بلاد أعدائنا لمجرد أنها بضاعة أجنبية مستوردة ولم نبال أموافقة هى لعقيدتنا ومبادئنا أم لا .

يقول الأستاذ الصواف – حفظه الله – : « ولتحقيق حقدهم الأسود سلكوا سبلا متشعبة ، ووضعوا قواعد متعددة ، ورسموا مخططات خبيثة ، ولكنها جميعا تمتص وتسقى من جذع أصيل واحد هو التعليم ومناهج التعليم ، فهو أصل الأصول لإفساد العقائد والعقول »(٢) .

مناهج التعليم التى سينشأ عليها الطفل ويشب هى من أهم ما اعتنى به أعداء الدين الإسلامى ، وحرصوا على أن توضع بمعرفتهم وتحت إشرافهم ، ولعل هذا هو السر فى أن الأمم المتحدة قد أنشأت مؤسسة خاصة للتعليم تشرف عليها من خلال تلك المؤسسة (اليونسكو) حتى تطمئن إلى سير التعليم على النحو

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٦٧ .

(٢) المخططات الاستعمارية للصواف ص ٢٩٢ .

الذى تريده هى ، لا على النحو الذى يريده أهل البلاد التى توضع لها مناهج التعليم .

ولهذا أيضا استكثر المبشرون من افتتاح المدارس على اختلاف مستوياتها ابتداء من روضة الأطفال وانتهاء بالجامعات التى انتشرت فى كل بلد عربى أو إسلامى ، وكان اهتمام المبشرين بمدارس الصغار أكثر من عنايتهم بالمدارس الأخرى لأن تأثير التعليم فى الأطفال أكثر وأعظم من تأثيره فى البالغين والكبار ، وهذا هو السر بلا نزاع فى أن المؤتمرات التبشيرية المتكررة ، والتى كانت تعقد فى كثير من بلاد الشرق الأوسط التى ابتليت بالاستعمار ، كانت تؤكد دائما على الاهتمام بتعليم الصغار .

وفى هذا المعنى يقول المبشر دانبى : « إن المدارس المسيحية تحاول أن تنقل الطلاب إلى جوها الخاص ، ويهيىء لهم جوا مسيحيا ، وتحملهم فيه على ممارسة التقوى المسيحية ، والسلوك المسيحى ، وخصوصا مادام الطالب طفلا ، وهكذا ينشأ الطالب ، وتنشأ معه فلسفة مسيحية للحياة »[1] .

إن المبشرين الآن لم يعودوا يشغلون بالهم بمثل هذه الموضوعات فقد ربوا على أيديهم تلاميذ مخلصين ، يقومون بهذا الدور خير قيام دون أن يتهم أحد من المبشرين أو تتجه إليه أنظار النقاد والمفكرين .

والحقيقة التى لا يمارى فيها أحد هى أننا أصبحنا مفتونين بحب الغرب ، بل وبكل ما يأتى من بلاد الغرب سواء كان ذلك اخترعات آلية ، أم نظم اجتماعية أم مذاهب سياسية أم مبادىء وأفكار جهنمية ، ويكفى لأن نتقبل أى شيء أن يقال لنا : إنه مستورد من الغرب .

وعلم الغربيون نقطة الضعف هذه فى نفوسنا ، وتأكدوا من أن مفتاح كل عقدة أصبنا بها مخبوء فى كلمة الغرب والغربيين ، فاستغلوا ذلك أبشع استغلال ، ورمونا بكل ما يدمر عقيدتنا ، ويفسد مبادءنا وثقافتنا حتى انسلخنا من

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٦٧ ، ٦٨ .

شخصيتنا ، ولبس بعضنا جلود غيرنا ، وظهرنا فى المجتمع بلا خجل ولا حياء غربيين أكثر من الغربيين ، كل هذا ولم نسمع نكيرا ، ولم نقرأ نذيرا والأدهى من كل ذلك أننا غمسنا أبناءنا بأيدينا فى هذه الظلمات المتراكمة ، فسلك أبناؤنا فجا غير الذى نسلك ، وقطعوا واديا غير الذى نقطع ، فاختلفت الأفكار ، وتباينت الآراء ، وحدث التنازع ، وكان الفراق ، وأخذ الآباء يجنون ثمرة ذلك عقوقا من الأبناء ، وجفوة لا يكاد يلتئم معها ود ، ولا يجتمع فيها شمل ، وهم فى ذلك كله معذورون ، (فكل إناء بالذى فيه ينضح) .

لقد كان الواجب أن يبتعد أولئك الذين لم يتتلمذوا على هذه المناهج عن هذا التيار الجارف ، وأن يبعدوا أبناءهم وبناتهم عنه ولكنهم مع الأسف قذفوا بأولادهم فى أتونه بعد أن نجاهم الله منه .

وأوحت هذه المناهج للنشء إيحاءات خطيرة ومريرة ، وجنينا من ثمارها صابا وعلقما ، من تشويه للدين ، وتضليل للنشء ، وافتراء على التاريخ .

وترتب على دراسة هذه المناهج فى مدارسنا ما يأتى :

١ - استخفاف الشباب بالدين ، وتجهمهم لكل ما يأتى عن طريقه ، ورفضهم كل ما يتعلق به ، وكانت النتيجة الحتمية لذلك هى احتقار العلماء ، والكذب عليهم ، وتشويه سمعتهم بالحق وبالباطل .

وتجلى ذلك عمليا حتى فى معاملة رجل الشارع لكل متدين متمسك بالآداب الإسلامية ، كما ظهر ذلك فى التمثيليات ودور الخيالة (السينما) وذلك عندما يصورون العلماء فى صورة الدراويش أو الدجالين أوالحريصين على بيع ضمائرهم لقاء دريهمات ، وكذلك حين يظهرونهم فى صورة مشوهة ممسوخة ليكونوا مثارا للهزء والسخرية والاحتقار ، لا هم لهم إلا ملء بطونهم ، ولا غاية إلا الاحتيال والخداع والنصب .

والمؤلم الذى يندى له الجبين ، وتتمزق منه نياط القلوب أننا لم نسمع صوت احتجاج يرد هذه الموجة الطاغية أو يوقفها عند حد لا من العلماء ولا من غيرهم ، وكأن هذا هو الواقع الذى يعيشه العلماء والمسلمون .

نعم ، لقد سمعنا وسكتنا ، ورضينا وسلمنا ، حتى أصبح الناس فى كل مجلس من المجالس إذا أرادوا أن يتندروا أو يتفكهوا لا يجدون مادة الفكاهة والضحك إلا عند المشايخ والعلماء .

صحيح إن هناك طائفة من هؤلاء وأولئك وضعت نفسها فى مواضع الشبهات ، ومنهم من يفعل ما يتندر به ويتفكه بل وأكثر منه ولكن ما ذنب العلم والقرآن ؟ ولماذا يمثل دائما بحملته وحفاظه ؟

إن الذين انحرفوا من هؤلاء يوجد أضعافهم فى كل طائفة من الطوائف فما بال التركيز على هؤلاء وحدهم ؟؟

ليس هناك جواب إلا أن الذين يفعلون ذلك لا يقصدون إلا السخرية من الدين ، ولا يريدون إلا إبراز العلماء والمشايخ فى وضع ينفر المسلمين منهم فلا يقتدون بهم ، ولا يستمعون إلى نصائحهم فينصرفون عنهم ، ويتخذونهم ذريعة لما يرتكبون من الرذائل والآثام .

وذلك هو الهدف المقصود لأعداء الدين ، فإذا تم لهم ذلك وتمكنوا منه يكونون قد وصلوا إلى غايتهم من تدمير المجتمع ، وترك أفراده بغير قيادة ولا قدوة ، ويخلوا لهم الجو ، فيوجهون كما يشاءون ، ويعبثون بالقيم والأخلاق كما يحبون .

٢ – وكانت الثمرة الثانية لهذه المناهج الفجة الغرور الذى أصاب الشباب حين نفثت هذه المناهج سمومها فى عقولهم وقلوبهم ،وأوهمتهم أنهم حصّلوا من العلوم والمعارف مالم يدركه غيرهم ، وأنهم جمعوا من الفنون والمقاصد ما عجز عنه آباؤهم .

وكانت النتيجة الحتمية لذلك استهانة الشباب بقدر آبائهم ، واستخفافهم بأفكارهم وآرائهم ، وكيف لا وآباؤهم لم يدرسوا شيئا مما درسوا ، ولم يتعلموا فى أوروبا ولا فى أمريكا ، ولكنهم تعلموا فى الكتاتيب وتتلمذوا على أيدى المشايخ والفقهاء ، وأين هؤلاء من أساتذة الغرب وعلمائهم ؟

لقد أصبح المغرورون من شبابنا يستحيون من الانتساب إلى آبائهم ، ولا يحبون الإقامة والعمل فى بلد ولدوا فيه لأن أهله يعرفون الكثير عن حياتهم ، وغدا أحدهم يخجل من رؤية والده ويتمنى لو يموت حتى لا يعير به .

وراح الآباء يتجرعون فى أسى مرارة هذا العقوق فى صور شتى وجنوا ثمرات ما غرسته أيديهم حنظلا وعلقما .

إن هؤلاء الآباء كانوا يتمنون عودة أولادهم ليفرحوا بجهودهم ، ويباركوا كفاحهم من أجل خدمة وطنهم ، ولكن سرعان ما تبدد ذلك الحلم الجميل عندما رأوا أبناءهم قد غيروا وبدلوا وتنكروا لماض لولاه ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه .

لقد كان الآباء يعلقون على أبنائهم آمالا كبيرة فى أن يعوضوهم عن الحرمان الذى تحملوه من أجل تربيتهم فخابت آمالهم عندما رأوا تنكرهم وعقوقهم .

إن الآباء قد أنفقوا أموالهم من أجل سعادة أبنائهم فما بال الأبناء يضنون عليهم بالنفقة ، ولا يقدمون لهم أية مساعدة تغنيهم عن مسألة الناس ، وتعوضهم ولو عن بعض ما أنفقوه عليهم .

اللهم إنا نعوذ بك من نكران الجميل ، وتناسى المعروف ، وعقوق الوالدين .

٣ – ثم كانت الثمرة الثالثة وهى جهل الشباب بأمجادهم ، وتزييف التاريخ فى عقولهم ، وذلك حين أوهمونا بأن أمتنا أمة ضارية فى البلادة ممعنة فى الجهل ، ليس لها تاريخ مشرف ولا ماض مضىء .

إنها أمة فقيرة معدمة ، لا تملك ما يقيم أودها ، ويحفظ عليها حياتها ، وهى أمة تعيش فى خرافات وأوهام لا تعرف العلم ولا تحتفى بالعلماء ، وإن الإسلام قد استغل فقرها وجهلها ووجهها لمقاتلة أعداء اصطنعهم ، عندهم الأقوات موفورة ، والأرزاق غير محصورة فخرجت جيوشهم من قلب الجزيرة تبحث عن الطعام ، وتنشد الرخاء .

ومن أجل الطعام والرخاء قاتلوا بوحشية منقطعة النظير ، فاستعمروا البلاد ، وأذلوا العباد ، حتى إذا ما توفر لهم الطعام الذى بحثوا عنه ، والرخاء الذى كانوا يحلمون به ، ركنوا إلى الدعة ، وأخلدوا إلى الراحة فدالت دولتهم ، وانتهت سلطتهم .

هكذا شوهت المناهج الموضوعية بأيدى أعدائنا تاريخنا بأسلوب يتنافى مع أبسط مبادىء الخلق والمروءة والأمانة العلمية ، وصدق الأغرار من شبابنا هذا الدس ، وآمنوا به أكثر من إيمانهم بوجودهم ، وحقهم فى التمتع بحرية الفكر والبحث العلمى ، وكيف لا يصدقون وهو من صنع أوروبا وأمريكا التى هى أمهر البلاد فى صناعة كل شىء حتى صناعة الكذب .

وكانت النتيجة الحتمية لتلك الثمرة الفجة العفنة هى وجود طبقة من الشباب لا تعتز بوطنها ، ولا تكن الولاء لدينها ، وافتخرت بفتات مسموم قدمه لها أعداؤها ، فأعطت خالص ولائها لمن خدعها وافترى على أمجادها ، وشبابنا معذورون ، لأن هذه المناهج جهلتهم ولم تعلمهم ، وشككتهم ولم تغرس اليقين فى قلوبهم (والناس أعداء لما جهلوا) .

وقد تربى على هذه المناهج ، وتتلمذ على أيدى المشككين فئات من الناس اعتمد عليهم أعداء الإسلام لثقتهم فيهم ، واطمئنانهم إليهم ، فاستتروا خلفهم ، وبرز للعيان أبناء جلدتنا ، وأشقاؤنا فى الدين والوطن ، وأخذ هؤلاء يفترون على الإسلام دون أن يشك فيهم أحد ، أو يحذر منهم إنسان ، ورحنا نتلقى الطعنات القاتلات من إخوتنا فى الدين ورفاقنا فى القومية والوطنية .

ودارت المعركة ضارية بين الإخوة والأصدقاء ، وسقط صحيتها أبناء بررة وإخوة أوفياء ، وانشغل بعضنا ببعض ، وأتيحت بذلك للعدو فرصة نادرة مكنته من الاطلاع على عوراتنا ، وحققت له هدفين طالما تمنى تحقيقهما .

أما الأول : فقد تأكد من إخلاص ربائبه الذين رباهم على عينه واصطنعهم لنفسه ، وقد تمثل هذا الإخلاص فى دفاعهم عن الأفكار التى تلقوها فى مدرسته وعلى أيدى أساتذتهم الغربيين .

وقد بلغ هذا الإخلاص حدا لم يكونوا يتوقعونه ، حين سجنوا الأبرياء من إخوتهم ، وشنقوا المخلصين من بنى جلدتهم ، وعذبوا واضطهدوا الأوفياء من بنى عمومتهم ، ولم يكن ذلك كله إلا لإرضاء سادتهم .

وأما الثانى : فسرورهم الذى لا يقدر ، وغبطتهم التى لا توصف ،وهم يرون العقيدة التي ضاقوا بها ، والدين الذى هدد سلطانهم ، وزعزع أركان دولهم يترنح تحت وطأة تلك الضربات العنيفة التى تعرض لها من هؤلاء التلاميذ الأوفياء .

إن الدس فى مناهج التعليم غاية مقصودة لأعداء الدين و قد حرصوا على أن يتفقدوها الحين بعد الحين ، حتى إذا انكشفت حيلهم وانفضحت مؤامراتهم سارعوا إلى التغيير وعدلوا خططهم حسبما تقتضيه الظروف .

وكذلك إذا انكشفت وجوه اللاعبين ، وثبتت خيانتهم لأوطانهم تداركوا ذلك بتبنى وجوه جديدة حتى تستمر المسيرة ، ويضمنوا السلامة لمبادئهم وأفكارهم .

وقد عمد هؤلاء إلى افتتاح المدارس ليضعوا مناهجها كما يشاءون ، وبالشكل الذى يحبون ، وكانت عنايتهم بمدارس البنات أشد ، واهتمامهم بوضع مناهجها أقوى ، لأن البنات اليوم هن أمهات المستقبل ، وإذا رضعت إحداهن هذا اللبن المسموم فسوف ترضعه أبناءها زعافا قاتلا ، وستكون كل فتاة تخرجت من هذه المدارس مدرسة وحدها ، وبذلك يكونون قد فتحوا فى كل بيت مدرسة أو أكثر تعمل لحسابهم ، وتحقق آمالهم ورغباتهم دون أن يتحملوا إيجار المبنى أو مرتبات المدرسين والموظفين .

ومن أجل هذا يقول المبشر جسب : « إن مدارس البنات فى بلاد الإسلام هى بؤبؤ عينى ، لقد شعرت دائما أن مستقبل الأمر فى سوريا إنما هو بمناهج تعليم بناتها ونسائها » .

لقد بدأت مدرستنا (للبنات) ولكن ليس لها بعد بناء خاص بها ، وهى

قد أثارت اهتماما شديدا فى أوساط الجمعيات التبشيرية[1] .

ولهذا لم يتأخر المبشرون فى افتتاح مدارس البنات ، فقد افتتحوا أول مدرسة للبنات فى الإمبراطورية العثمانية عام ١٨٣٠ م وكان ذلك فى بيروت ، ثم واصلوا جهودهم فى ذلك فافتتحوا مدارس للبنات فى مصر والسودان وسوريا والهند والأفغانستان[2] .

وهذا هو الذى يفسر لنا سر تلك الحملات المسعورة على المناهج الإسلامية فى البلاد التى وقعت تحت نير الاستعمار كالهند والعراق ومصر وإيران و الأردن والسودان .

وكما كانوا يهتمون بتعليم البنات بصفة عامة ، فإنهم كانوا يهتمون اهتماما بالغا بالمدارس الداخلية التى يكون لهم فيها السلطة المطلقة على الفتاة ، فإنهم عن طريق المدارس الداخلية كانوا ينتزعون الفتاة انتزاعا كاملا عن بيئتها التى تعتبر المحضن الحصين لها ، والتى كانت تحيط الفتاة بالكثير من التعاليم الدينية التى تجعل أثر المدارس التبشيرية عليها ضعيفا بحيث لا يتمكنون من تشويش المعلومات الدينية فى نفس الفتاة وعقلها .

كذلك وجهوا عناية خاصة لبنات العائلات الكبيرة التى كان الرجال فيها بيدهم مقاليد البلاد يسيرونها كما يشاءون ، فكان لابد من توجيه هؤلاء الرجال إلى الطريقة التى تسهل مهمة المبشرين وتيسر بالتالى مهمة المستعمرين ، ولم يكن هناك وسيلة أكثر تأثيرا فى بيوت هؤلاء من المرأة ، فوجب أن تعد إعدادا يمكنها من القيام بهذا الواجب الخطير ، والذى يستطيعون عن طريقه الوصول إلى الغاية التى رسموها ، وحددوا معالمها .

تقول المبشرة أنَّا ميليغان : « فى صفوف كلية البنات فى القاهرة بنات آباؤهن باشاوات وبكوات ، وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحى ، وليس ثمة طريق إلى حصن

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٨٧

(٢) نفسه .

الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة »[1] .

ويقول الأستاذان الفاضلان خالدى وفروخ تعليقا على هذا الكلام : « من أجل ذلك طلب المبشرون الأمريكيون منذ عام ١٨٧٠ م مبلغ ثلاثين ألف دولار لمدرسة دينية للبنات فى بيروت وعللوا طلبهم هذا بقيمة المرأة فى الحياة البيتية ، وأن تلك المدرسة ستساعد على تنصير سورية فى المستقبل »[2] .

هذه نماذج من فنون الحرب المختلفة الأشكال والألوان ، وكلها تسير فى اتجاه واحد ، وتعمل لتحقيق غاية واحدة هى تدمير العالم الإسلامى دينيا وفكريا وسياسيا وأخلاقيا ليخضعوه للنفوذ الاستعمارى الغاشم .

فما واجب المسلمين نحو ذلك ؟ وكيف يواجهون هذه الأساليب ليدافعوا عن دينهم ، ويحموا عقيدتهم ؟؟

كيف نواجه هذه الأساليب ؟

عرضنا فيما مضى ألوانا شتى مما شنه أعداء الإسلام على هذا الدين من الحرب الضارية التى هدّدوا بها حصونه وزلزلوا أصوله فى نفوس كثير من المسلمين .

فمن الغزو الفكرى الذى حولوا به مفاهيم الناس ، إلى الإغراء الجنسى الذى حطموا به معنويات الشباب وأفسدوا أخلاقهم ، إلى الدعوة إلى الإلحاد وتشكيك الناس فى عقيدتهم وشريعتهم ، ثم إلى الدس فى مناهج التعليم ، ومحاولة السيطرة عليها ليوجهوا النشء من خلالها الوجهة التى يريدون .

والسؤال الذى يطلب الإجابة هو ، كيف يواجه المسلمون كل هذه الأساليب ؟

لا شك أن من أهم واجبات الجنود فى الإسلام التصدى لهذا الزحف الأثيم ، والوقوف فى وجهه حتى لا يستشرى ، فيزعزع العقيدة فى نفوس

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٨٧ .

(٢) المصدر والصفحة السابقين .

المؤمنين ، وإننا نعتقد أن هذا الكيد المحبوك مهما كان مدبروه ، ومهما بلغ من نفوس الناس فإنه لا يلبث أن يزول وينمحى كل أثر له إذا وجد من يبصر المسلمين بحقيقة دينهم ، وينير لهم الطريق ليتأكدوا من حقيقة المتآمرين عليهم .

على أنه ينبغى أن نعلم أنه لن يخلو جيل من الأجيال من موجهين يقيضهم الله - عز وجل - ليفقهوا المسلمين فى دينهم ويوقفهم على ما يراد بهم ، ويكشفوا المؤامرات التى تدبر لهم .

وإنه لمن لطف الله بعباده أن يهيىء لهذه الأمة فى هذه الظلمات رجالا عاملين يقفون فى وجه هذا الكيد ، ويصممون على التصدى له مهما كانت العقبات ، ويصرون على كشف هوية هؤلاء الذين ولدوا على أرض عربية وليسوا بعرب ، وتسموا بأسماء إسلامية وما هم بمسلمين ، واتجه هؤلاء المصلحون بفضح هذه الأساليب مهما تعددت ، وإظهار مخبوئها مهما تسترت .

وبدأ القوم بأنفسهم فامتنعوا عن الرضوخ لتلك الحرب ، وقاموا فى كل ميدان ، واستعصوا على كل فكر دخيل ، ودرسوا أساليب الأعداء ليستعملوا معهم الأسلحة نفسها التى استعملوها ضد المسلمين .

ونشط المصلحون فى ميادين الحياة المختلفة ، واتصلوا بجمهرة الناس وأذاعوا أفكارهم فى أساليب مختلفة كالمحاضرات والندوات والمناظرات وانتهزوا الفرص ليجمعوا المسلمين ، ويبصرونهم بما يراد بهم ، ونشرت هذه الأفكار الإسلامية الصرفة فى كتب ونشرات ، والصحف والمجلات وتبناها تلامذة هؤلاء المصلحين ، فحملوها إلى كل بيت ، ونادوا بها فى كل مكان .

وبدأت ثمرات هذا الغرس الطيب تظهر فى كل مجال ، وتحتل وضعها المناسب فى كل صعيد ، فى الجامعات والمدارس ، والمصانع والمعامل والمتاجر والمزارع ، والتف الناس حول هذا الفكر الحر الأصيل النابع من مبادىء الإسلام الحنيف .

ونشأ فى أحضان ذلك العمل الإسلامى المجيد جيل مؤمن قاوم ولم يتردد ، واعتز بتراثه ولم يرض بغيره ، واعتصم بدينه ورفض كل ما سواه .

لقد تأكد هؤلاء المصلحون بأن الغزو الفكرى لا يقوى على اقتحام العقول التى فهمت حقيقة الإسلام ، وتفقهت فى مبادئه وأصوله ، واقتنعت به عقيدة وشريعة ومنهجا للحياة صالحا لكل زمان ومكان ، فأخذوا الناس بذلك ، وألفوا الكتب لتثبيت مبادىء الإسلام فى عقول المسلمين وقلوبهم وردوا على الشبهات والأباطيل التى زورها الغزاة والمفترون على هذا الدين فانفضح أمرهم وبارت تجارتهم .

وانطلق الدعاة يحذرون الناس من هذا الغزو الخبيث ، ويشرحون عقيدة الإسلام السمحة ، ويبينون مبادءه المعطاءة التى تغنينا عن كل دخيل ، وتضمن لنا الأمن والرخاء والسعادة وهى الأمانى التى يفقدها العالم اليوم ، وهكذا أغلق الدعاة منافذ ذلك الغزو فانزوى قابعا فى عقول حامليه ولو إلى حين .

إن واجب الجنود المسلمين أن يتسلحوا بالعلم والتفقه والدراسة الواعية البصيرة حتى لا يخدعوا بأقوال دبجها الأعداء ، أو يخضعوا لأفكار لا تمت إلى الإسلام بنسب ولا صهر ، إننا بالعلم نستطيع أن نرد هذا الغزو على عقبيه ، ونحبط المؤامرات التى تحاك لنا فى الظلام ، ونعيد المسلمين إلى المصادر الصحيحة التى يتلقون منها معلوماتهم ، وبالعلم نستطيع أن نكشف الأباطيل التى تدس علينا ليشوهوا بها سماحة الإسلام ويسر مبادئه ، وبالعلم نرفض دعوة الإلحاد والاستخفاف بالدين ، لأنها دعوة تتنافى مع الفطرة السوية التى فطر الله الناس عليها .

إن الإلحاد مع كثرة دواعيه ، وضخامة الأبواق الداعية إليه شىء لا يثبت أمام التحقيق العلمى ، لأن كل شىء فى هذا الكون يدعونا إلى الإيمان بخالق الكون ، وإن الاكتشافات العلمية الحديثة تؤكد اتجاه الإنسان وميله الفطرى إلى الإيمان بإله واحد ، بل وتدعو إليه .

ولقد أدرك الإنسان منذ حقبة طويلة من الزمان تلك الحقيقة ونطق بها قبل أن يثبتها العلم ويدعو إليها ، فقديما وقبل أربعة عشر قرنا قال أمية بن أبى الصلت :

أيا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

فدعوة الإلحاد والاستخفاف بالأديان دعوة منبوذة مرفوضة لا يقول بها إلا معتوه ، ولا يؤمن بها إلا أحمق ، والعلم هو الحقيقة التى لا يمارى فيها المؤمن والملحد على حد سواء ، لهذا فنحن نحتكم إليه .

وبالعلم نضع مناهج التعليم ، ونكتشف ما دس فيها على الدين ، وما اختفى فى ثناياها من التزوير والكذب على تاريخنا ، ونعلم الناس الحقائق التى لا غنى لهم عنها حتى نرد كيد الكائدين فى نحورهم .

وأما الإغراء الجنسى فقد وضع له المربون المسلمون العلاج الناجع من صميم مبادىء الإسلام وتعاليمه ، فدعوا الشباب إلى الزواج المبكر ليعصموا أنفسهم من التردى فى الفسق ، ومن لم يستطع ألزموه بجانب هام من جوانب التربية الإسلامية ، وهو جانب التربية الروحية التى دعا إليها الإسلام ككثرة الصيام لأنه يضيق مجارى الشيطان فى جسم الإنسان ، وقيام الليل لأنه يربط المؤمن بالله – تعالى – والإكثار من ذكر الله وتلاوة القرآن ، لأن ذلك يجعل المؤمن موصول القلب بربه دائما ، وذكر الموت وما يعقبه من الوحدة والوحشة وظلمة القبر وعذابه ثم الحساب والعقاب للعاصين أو الثواب والنعيم للطائعين ، لأن ذلك يزهد الإنسان فى الدنيا ويشغله عن التفكير فى اللهو وارتكاب المعاصى فإذا ما اختلس الشيطان منه ساعة غفلة تذكر وأناب ، وعلم أن الله مطلع عليه يراقبه ، فيمسك إذا لم يرتكب المعصية ، ويتوب ويندم إذا وقع فيها .

على هذا النحو فهم الجنود المسلمون واجبهم نحو دينهم ، وتسلحوا بما يمكنهم من مواجهة عدوهم ، وبذلك استطاعوا أن يحبطوا كل مؤامراته ويسلطوا الأضواء على ما أخفاه فى صدره ليستيقظ النائم ويتنبه الغافل .

ولا نستطيع أن نقول إن المسلمين جميعا قد استفادوا من تلك اليقظة الفكرية والصحوة الدينية ، لأننا لازلنا نرى منهم من يدعو بدعوى الجاهلية ويتبنى الفلسفة العلمانية ، ولكننا نستطيع أن نجزم بأن الذين استفادوا من برامج التوعية التى قام بها الدعاة والمصلحون عدد غير قليل ، وهم – ولله الحمد – كافون لسد تلك الثغرة والقيام بهذا الواجب الدينى الذى فرضه الإسلام على أتباعه .

ولقد استطاع هؤلاء فعلا أن يقيموا سدا منيعا فى وجه تلك الدعوة الوافدة ، فعوقوا مسيرتها ، وأفسدوا خطتها ، وفضحوا ما كان خافيا من أسرارها ، وبهذه الجهود المضنية ، وبتلك اليقظة الداعية أوقفوا هذا المد الخطير ، وعطلوا سير هذا الزحف الأثيم .

وهنا تنبه رواد الفتنة وأحسوا بردود الفعل تقف حائلا بينهم وبين كل ما أرادوه من غزو العقول وإفساد الضمائر والانحراف بالمسيرة الخيرة إلى مهاوى الفسق والضلال .

فماذا كان موقفهم من هذا النفر من المؤمنين ؟

لا شك أن الغيظ قد أكل قلوبهم ، وأن الحقد قد فرى أكبادهم ، فأعلنوها حربا شعواء حامية الوطيس ، استعملوا فيها الحديد والنار ، وكل مالا يخطر للإنسان على بال ، وأخذ المبادرة إلى المعركة التلامذة المخلصون ، فحاربوا بشراسة لم يعرف التاريخ لها مثيلا .

وبدأت المعركة بالوعيد والتهديد ، فلم يفلح ذلك بالسلاح الذى أصدأه طول العهد ، فطوروها إلى السجن والتشريد ، وصمد المؤمنون ، ولم يتزعزعوا ، فاستعملوا من الأساليب الوحشية مالم يعرف لها البشر نظيرا فى تاريخهم الطويل فنزعوا الأظافر وأحرقوا الجلود ، ونفخوا البطون ، ومزقوا الظهور ، ونصبوا المشانق فقتلوا الأبرياء من المفكرين والعلماء ، ويتموا الأطفال ، ورملوا النساء ، وجعلوا فى كل بيت مأتما ، وأقاموا فى كل شارع جنازة ، وفى كل قلب لوعة وحسرة ، وواجه المؤمنون ذلك كله بالصبر والاحتساب ، ولم يزدهم طغيان الظالمين إلا إيمانا وتسليما ، ولم يكن ما تحملوه من ألوان العذاب ، ولا ما أصيبوا به من القتل والسجن والتشريد ليصرفهم عن دينهم وهم الذين باعوا أرواحهم لله ، وعاهدوه على حماية الإسلام والدفاع عنه مهما كلفهم ذلك من النفس والنفيس .

إن الدفاع عن الإسلام وحمايته من اعتداء المعتدين فرض على المسلمين لا يسقطه جور جائر ولا عدل عادل ، والصمود فى هذه الجبهات لرد الشبهات

وإيضاح الحق والثبات عليه لا يقبل الله – عز وجل – من المسلم سواه ، كل على قدر طاقته ، وإن دراسة شبهات المبطلين والرد عليها ، وتخصص طائفة من العلماء لبيان فسادها ، وغرس المفاهيم الإسلامية الصحيحة فى عقول الناس كبديل عنها كان على المسلمين حتما مقضيا .

ولست أقصد بالدفاع السب والشتم ورمى الأعداء بالكفر والإلحاد والنقائص ، ولكنى أقصد الدراسة الواعية الجادة النافعة التى تمكن الشباب من دحض افتراءات المفترين ، والتخطيط البارع الذى يلاحق الغزاة فى كل مكان ، ويغلق عليهم كل درب حتى يفروا أو يستسلموا ، والوقوف على الأساليب التى يستعملها الخصم لاستخدامها فى الرد عليه وإفساد خططه .

فمقارعة الحجة بالحجة ، واستعمال الوسائل العلمية الحديثة ، والإقناع المستند على الدليل العقلى ، وضرب الأمثلة من واقع الحياة لإثبات صحة ما نقول والاهتمام بتربية النشء تربية سليمة مع إحاطتهم بالرعاية الكاملة والعناية الشاملة التى تحول بينه وبين التردى فى فخاخ المخادعين .

ودراسة التاريخ الإسلامى على ضوء الأصول والقواعد التى وضعها العلماء لدراسة السنة النبوية الشريفة لتنقيته من الشوائب التى علقت به ودسها المغرضون بين أحداثه ، وإعادة كتابته بأسلوب عصرى جذاب مؤثر بحيث يشد القلوب بجاذبيته ، ويستقر فى العقول بروعة أحداثه وتدريسه للناشئين بطرق تربوية ملائمة لظروفهم وعقولهم كل ذلك من أنجح وسائل الدفاع عن الإسلام .

فلابد إذن من وجود طائفة من العلماء تتصدى للغزو الفكرى ، ترد شبهاته ، وتوضح قدرة الإسلام على مواجهة هذا الغزو ، وتقرر أصالته كدين جاء لإنقاذ البشرية الضالة ، وتثبت للعالم أن فى ديننا ما يغنينا عن الاستيراد ، وما يكفينا لإقامة حضارة إنسانية عالمية يسعد بها الناس كل الناس ، وينعمون فى ظلالها بتذوق المعانى التى حرموا منها تحت وطأة الحضارة المادية التى يعيشون فيها محرومين من الأخوة والمحبة والإيثار .

ولابد من وجود طائفة من المصلحين ترد الإنسانية الحائرة إلى رشدها الذى فقدته ، وتوقظ عقلها الذى عطلته ، ونعيدها سيرتها الأولى ، فترفض الإتجار بالأجساد ، والمساومة على الأعراض ، وتدلل بالحجة والبرهان على أن الإغراء الجنسى ليس من طبيعة الإنسان ، وإنما هو غريزة حيوانية بهيمية تتنافى وحقيقة الإنسانية التى تتمتع بالعقل ، وتتسم بالهدوء والاتزان .

ولابد من وجود طائفة مؤمنة تثبت فساد الكون واضطرابه إذا لم يديره إله واحد قادر لا يعجزه شيء ، كما تثبت فساده إذا تعددت الآلهة ، وتقرر وضوح عجز الطبيعة عن إيجاد نفسها ، فكيف توجد غيرها ؟ وفاقد الشيء لا يعطيه .

كذلك توضح حاجة العالم وافتقاره إلى رسالات السماء ، وعجز العقل البشرى مهما استطاع أن يخترق أسباب الفضاء عن إدراك المغيبات التى لا سبيل إلى الوصول إلى معرفتها إلا عن طريق الرسالات ، وتبين فى النهاية أن العدالة الإلهية تقتضى وجود يوم يرجع الناس فيه إلى ربهم ، فيحاسبهم على ما قدموا فى دنياهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، قال – تعالى – : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[1] وقال – عز من قائل – : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾[2] .

ولابد كذلك من وجود طائفة تقف بسلاحها إلى جوار هؤلاء المفكرين والعلماء لحمايتهم وصد عدوان المعتدين على الدين ، ومواجهة الطغيان تجاهد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وإقامة الدولة الإسلامية التى يفيء إليها المؤمنون ، فيجدون فى ظلها أمنهم ، ويطمئنون فى رحابها على دينهم فيعبدون الله كما أمرهم ، ويقيمون حدوده ، وينفذون شريعته ، ويتكون منهم المجتمع المثالى فى عقيدته وشريعته ، وفى أخلاقه ومبادئه ، وفى عاداته وتقاليده ، تحقيقا لوعد الله الذى لا يتخلف ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨١ .

(٢) سورة الزلزلة : الآية ٨ .

الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[1] .

لابد من وجود كل هذه الطوائف فى المجتمع الإسلامى ، ولابد أن يعمل كل فى مجال تخصصه ، لأن التخصص سمة بارزة من سمات العصر الذى أصبح كل شىء فيه يجرى بمقادير ، ولأن التخصص يؤدى إلى إنجاح ما يقوم به المتخصص من الأعمال .

أما عدم التخصص فإنه عين الفوضى ، نعم ، هو عين الفوضى لأن كل فرد فى المجتمعات التى لا تهتم بالتخصص يعمل كل شىء ، ويتكلم فى كل شىء ، ويتدخل فى كل شىء فهو طبيب ومهندس وفقيه ولغوى وخطيب ومحارب وبالاختصار هو كل شىء فى المجتمع الذى يسمح له بمزاولة كل شىء ، وناهيك عن الفوضى التى تكون فى مجتمع يقوم فيه كل إنسان بكل شىء .

إن عدم التخصص قد يؤدى إلى أخطاء تضر من حيث نريد النفع ، نعم ، يجب أن تتخصص كل طائفة فى مجال من مجالات العمل الإسلامى حتى تتقنه ، وحتى تستطيع أن تفحم من تتصدى له من المعاندين

إن وجود هذه الطوائف فى المجتمع الإسلامى للدفاع عن الإسلام وحمايته ، وإجادة كل طائفة فى مجال تخصصها ، وبخاصة الجيش الذى هو القوة أو الطائفة التى تحمل السلاح فريضة لازمة ، حض عليها الإسلام فى آيات القرآن الكريم ، وأجمع عليها علماء المسلمين .

قال الله – تبارك وتعالى – : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾[2] .

إن مفهوم الآية الكريمة يبين لنا أن النفير للدفاع عن الإسلام بالمعنى العام الذى ذكرته واجب ، وسواء كان النفير لقتال الأعداء أم لطلب العلم الذى

---

(١) سورة النور : الآية ٥٥ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٢٢ .

يتمكن به صاحبه من معرفة دينه والدفاع عنه برد الشبهات وتوضيح الحقائق العلمية التى يستدل بها على أحقية الإسلام ، فهذا كله من الدفاع المطلوب شرعا من المسلمين ليحموا به الإسلام من سطوة الأعداء .

يقول الشوكانى – رحمه الله – : « ذهب جماعة إلى أنه من بقية أحكام الجهاد لأنه – سبحانه – لما بالغ فى الأمر بالجهاد والانتداب إلى الغزو كان المسلمون إذا بعث رسول الله ﷺ سريته إلى الكفار ينفرون جميعا ، ويتركون المدينة خالية ، فأخبرهم الله – سبحانه – بأنه ما كان لهم ذلك أى ما صح لهم ولا استقام أن ينفروا جميعا ، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرقة ، ويبقى من عدا هذه الطائفة النافرة .

ويكون الضمير فى قوله : ﴿ ليتفقهوا ﴾ عائدا إلى الفرقة الباقية ، والمعنى أن الطائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو ، ومن بقى من الفرقة يقفون لطلب العلم ، ويعلمون الغزاة إذا رجعوا إليهم من الغزو ، أو يذهبون فى طلبه إلى المكان الذى يجدون فيه من يتعلمون منه ليأخذوا عنه الفقه فى الدين ، وينذروا قومهم وقت رجوعهم إليهم .

وذهب آخرون إلى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد وهى حكم مستقل بنفسه فى مشروعية الخروج لطلب العلم والتفقه فى الدين ، جعله الله – سبحانه – متصلا بما دل على إيجاب الخروج للجهاد .

فيكون السفر نوعين : الأول السفر للجهاد ، والثانى السفر لطلب العلم[1] .

وكلام الشوكانى هذا يدل على وجوب الخروج لطلب العلم والتفقه فى الدين لأن الله – عز وجل – ربطه بما يدل على وجوب الخروج للجهاد ، ومنطوق الآية الكريمة يؤيد هذا المعنى ويؤكده ، فإن الله – جل شأنه – يقول : ﴿ فلولا نفر ﴾ والنفير هو الخروج للقتال ، ثم علل ذلك النفير بقوله

---

(١) فتح القدير : ٤١٦/٢ .

- تعالى - : ﴿ ليتفقهوا فى الدين ﴾ وهذا صريح فى أن التفقه فى الدين نوع من الجهاد الواجب على المسلمين .

وأما ابن كثير - رحمه الله - فيفسر النفير فى حياة الرسول ﷺ بالخروج معه للغزو ، ويكون المعنى عندئذ ، ليتفقه الخارجون مع رسول الله بما ينزل عليه من الوحى ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو ، ثم يقول : « وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحى إما للتفقه وإما للجهاد فإنه فرض كفاية على الأحياء »[1] .

ويقول ابن جرير الطبرى بعد أن ذكر عدة أقوال فى تفسير الآية : « إن أولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : لتتفقه الطائفة النافرة بما تعاين من نصر الله أهل دينه وأصحاب رسوله على أهل عداوته والكفر به »[2] .

ويقول المرحوم - سيد قطب - : « والذى يستقيم عندنا فى تفسير الآية ، أن المؤمنين لا ينفرون كافة ، ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون ، لتتفقه هذه الطائفة فى الدين بالنفير والخروج للجهاد والحركة بهذه العقيدة ، وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم بما رأته وما فقهته من هذا الدين فى أثناء الجهاد والحركة » .

ثم يقول - رحمه الله - : « والوجه فى هذا الذى ذهبنا إليه - وله أصل من تأويل ابن عباس - رضى الله عنهما - ومن تفسير الحسن البصرى ، وهو اختيار ابن جرير وقول لابن كثير - أن هذا الدين منهج حركى لا يفقهه إلا من يتحرك به ، فالذين يخرجون للجهاد هم أولى الناس بفقهه بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية فى أثناء الحركة به .

أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون لأن يتلقوا ممن تحركوا لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا ، ولا فقهوا فقههم ، ولا وصلوا من أسرار هذا

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢/٤٠٠ .
(٢) تفسير الطبرى : ١١/٧٠ .

الدين إلى ما وصل إليه المتحركون ، وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله ﷺ والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفقه والتفقه »[1] .

وإذا كان هذا هو اختيار ابن جرير وسيد قطب - رحمهما الله - فإنى لا أرى ما يمنع من حملها على أن تكون حكما مستقلا لبيان مشروعية الخروج لطلب العلم - كما نقل الشوكانى عن جماعة من المفسرين - ويكون ذلك هو اختيارهما وهذا هو اختيارنا .

وتكون الآية الكريمة جاءت بهذا الأسلوب لبيان أن الخروج لطلب العلم نوع من الجهاد الواجب على المسلمين ، وتكون الآيات فى جملتها بيانا لأنواع الجهاد المختلفة .

ألم تر أن الآيتين السابقتين على هذه الآية وهما : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه .... ﴾ إلى قوله : ﴿ ... ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾[2] .

والآية اللاحقة لها وهى ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ﴾[3] حاثات على قتال الأعداء ، مستنفرات للخروج للجهاد لإعلاء كلمة الله ؟ وأن الآية التى نتكلم عنها وهى ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾[4] سيقت بين آيات الجهاد لتحث على نوع آخر منه قد لا يفطن له الناس وكثيرا ما يقعدون عنه ظنا منهم أنه ليس من الجهاد ، وذلكم هو طلب العلم لرد الشبهات ودحض حجج المرتابين .

وليس الدفاع عن الإسلام بجدال الملحدين ، ورد شبه المبطلين أقل عند الله من الدفاع عنه وحمايته بالسيف ، والسلاح وقتال المشركين .

---

(١) فى ظلال القرآن : م٣ /١٧٣٤ .
(٢) سورة التوبة : الآيتان ١٢٠ ، ١٢١ .
(٣) سورة التوبة : الآية ١٢٣ .
(٤) سورة التوبة : الآية ١٢٢ .

يقول ابن القيم – رحمه الله – : « فالفروسية فروسيتان : فروسية العلم والبيان ، وفروسية الرمى والطعن .

ولما كان أصحاب النبى ﷺ أكمل الخلق فى الفروسيتين فتحوا القلوب بالحجة والبرهان ، والبلاد بالسيف والسنان » .

ثم قال : « وقد أمر الله – سبحانه وتعالى – رسوله ﷺ بجدال الكفار والمنافقين وجلاد أعدائه المشاقين والمحاربين ، فعلم الجدال والجلاد من أهم العلوم وأنفعها للعباد فى المعاش والمعاد ، ولا يعدل مداد العلماء إلا دم الشهداء »(١) .

وبهذا يتقرر أن الدفاع عن الإسلام فى جميع الجبهات التى يفتحها علينا أعداء الإسلام فريضة ، وأن الجهاد فى الإسلام لا يقتصر على حمل السلاح فقط ، بل يشمله ويشمل الجهاد باللسان وبالقلم على حد سواء .

وهكذا نغزو أعداءنا غزوا فكريا مضادا ، ونرد شبهات المنحرفين والمضللين ، وندحض حجج الملحدين والمفترين ، ونقاتل الذين يقفون فى وجه عقيدتنا ، ويحولون بيننا وبين نشر دعوتنا .

سؤال وجواب :

ويجدر بنا بعد أن انتهينا من الكلام عن واجبات الجنود أن نطرح بعض الأسئلة التى تثار كثيرا والتى سببت إشكالات نفسية ودينية عند كثير من الشباب لنرى فيها الرأى الصواب ، ونعرف فيها حكم الإسلام حتى نكون على بصيرة من أمرنا ، وتلك الأسئلة هى :

١ – هل لكل مسلم الحق فى إصدار الأوامر ؟

٢ – وهل كل أمر يصدر من شخص مسلم يجب أن يطاع وينفذ ؟

٣ – وما حكم من يرد بعض هذه الأوامر ولا يتقيد بها ؟

طرح على هذه الأسئلة بعض الشباب ، ورغبوا فى توضيح الأمر حتى

---

(١) رسالة الفروسية : ص ١٩ .

لا يلتبس على الناس فى هذه الأيام التى كثرت فيها الفرق ، وتشعبت فيها الآراء واجتهد فيها من ليس أهلا للاجتهاد ، وحتى ترتب على دلك اضطرابات دينية ونفسية ، وأحدثت نوعا من الصراع الداخلى فى نفوس الشباب المتدينين الذين يحاولون الالتزام بأوامر الدين الحنيف .

وللإجابة عن هذه الأسئلة ينبغى أن نقدم بين يديها شيئا من الإيضاحات الهامة التى لابد منها فى هذا المقام ، إذ لابد أن نعرف أولا نوع هذه الأوامر ، هل هى شرعية مؤيدة بالنصوص ، أم هى اجتهادية صادرة عن اجتهاد ونظر من الآمر ، وليس فيها نص شرعى ؟

ولابد أن نعرف ثانيا هوية ذلك الآمر ، هل هو ممن تأهلوا لإصدار مثل هذه الأوامر ، أم هو شخص عادى قرأ بعض الكتب وتفقه بعض الفقه ، ترأس جماعة من الناس فظن أنه لذلك يجب أن يطاع ؟

بعد أن نعرف ذلك يمكننا الإجابة عن الأسئلة السابقة فأقول وبالله التوفيق :

الأوامر الشرعية المؤيدة بنصوص صريحة من الكتاب الكريم أو السنة المطهرمن حق كل مسلم أن يذكر بها ، ومن الواجب على المأمور أن يسمع ويطيع لأن طاعة هذه الأوامر طاعة لله – عز وجل – وذلك داخل فى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والآمر به مثاب – إن شاء الله – والمأمور عليه أن ينفذ وإلا كان عاصيا أثيما ، وذلك تحقيق لقوله – تعالى – : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ﴾[1] وعملا بقول الرسول ﷺ : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم »[2] يجب أن يتم الأمر والنهى وإلا أثم المسلمون جميعا .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

(٢) رواه البزار والطبرانى فى الأوسط .

أما إذا كانت الأوامر مبنية على اجتهاد شخصى ، ليس له أصل فى الدين ، ولا يعود إلى شيء من أصوله فلا يجب على المسلم تنفيذ شيء من هذه الأوامر مهما كان الآمر رئيسا أو أبا أو شيخا أو غير ذلك ، فإذا كان الأمر بمعصية ظاهرة فإنه يحرم على المسلم الطاعة فى ذلك ، لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، قال رسول الله ﷺ : « لا طاعة فى معصية الله ، إنما الطاعة فى المعروف »[1] .

وهنا موضوع لابد من الوقوف أمامه ، ذلكم هو الأمر الذى يحقق مصلحة للمسلمين وإن لم يرد به نص ، فذلك يجب على من يأمر به أن يبين نوع المصلحة وأهميتها وصلتها بالدين ومدى ما تحققه من النفع لجماعة المسلمين .

وعلى المأمور أن يتأكد من تحقيق المصلحة قبل أن ينفذ ، ولا يكتفى بمجرد كون الأمر صادرا إليه من إنسان يثق فيه ، بل لابد من أن يظهر لها وجه المصلحة ، فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لما أمر سعد بن أبى وقاص بعدم تقسيم سواد العراق توقف المسلمون ، ولم ينفذوا الأمر مع كونه صادرا ممن وثقوا فيه ، وبايعوه أميرا عليهم بل على الأمة الإسلامية كلها .

فلما ناقشهم عمر ، وبين لهم ما فيه من مصلحة محققة للأمة وللمسلمين وتبين لهم الحق خضعوا ونفذوا الأمر بغير تردد .

فإذا كان تنفيذ الأمر يحتمل نوعا من الخسائر وإن لم يتحقق ذلك فلابد من الموازنة بين ما يحققه من المصلحة وما يترتب عليه من الخسائر ، فإذا ترجحت المصلحة نفذ وإلا فلا .

وإنما قلنا ذلك لأن أمثال هذه الأوامر داخل فى باب الاجتهاد وليس الاجتهاد متروكا لهوى الناس مهما كانت مكانتهم ومنزلتهم ، وليس لكل أحد الحق فى الاجتهاد ، ذلك لأن للاجتهاد شروطا لابد أن تتحقق فيمن يريد الاجتهاد ، ومن أهم هذه الشروط ما يأتى :

---

(١) رواه مسلم .

١ - العلم بكتاب الله - عز وجل - .

٢ - العلم بسنة رسول الله ﷺ .

بمعنى معرفة الناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد والمحكم والمتشابه والعام والخاص من الكتاب والسنة .

٣ - العلم بلغة العرب وأوجه استعمالها والأساليب التى كان العرب يستعملونها على اختلافها .

٤ - العدالة : ونقصد بها عدم تورط المجتهد فى الفسق بالعمل أو الإقرار بما يقدح فى عدالته وتقواه .

٥ - فقه النفس[١] : ونعنى به الورع والتقوى ، وإدراك الأمور بتصور إسلامى صحيح يمكنه من الحكم عليها .

فإذا تحققت هذه الشروط فى شخص اعتبر مجتهدا ، وكان من حقه أن ينظر فى أحوال المسلمين ، ويأمرهم بما يحقق المصلحة وإن لم يكن فيها نص بعينها ، بل المطلوب هنا أن يكون المأمور به داخلا تحت نصوص عامة جاءت على لسان الشارع ﷺ .

وفى هذه الحال يكون الالتزام بالأوامر التى تحقق المصلحة العامة بحسب طاقة كل مسلم وقدرته ، لأن القيام بها وتنفيذها ليس من الواجبات العينية بل هو من التعاون على البر والتقوى ﴿ لا يكلف الله نفسها إلا وسعها ﴾[٢] .

فإذا لم يكن هناك من يستطيع القيام بها إلا شخص واحد من المسلمين تعين عليه القيام بها ، وإلا ضاعت المصلحة ، وفى تضييعها ما فيه من المفاسد التى تلحق جماعة المسلمين .

ومن هذا العرض السريع نتبين الأمور الآتية :

١ - ليس لكل فرد من المسلمين أن يصدر أوامر إليهم لينفذوها إلا أن تكون

---

(١) أخذنا هذه الشروط الخمسة بغير تعليق من كتاب البرهان للجوينى ٢/١٣٣١ ، ١٣٣٢ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٨٦ .

مؤيدة بالنصوص الشرعية من الكتاب والسنة على أن تكون هذه النصوص صريحة فيما يأمر به .

٢ – إذا كان النص يحتمل التأويل ، بمعنى أنه يحتمل أكثر من معنى أو لم يكن فى المسألة نص بعينه ، ولكنها داخلة تحت نصوص عامة يجب أن يكون الآمر فى تلك الحالات من العلماء المعتبرين الموصوفين بالورع والتقوى المعروفين بتمسكهم بالكتاب المجيد والسنة المطهرة والسائرين على نهج السلف الصالح – رضوان الله عليهم أجمعين – .

٣ – على المسلم فى هاتين الحالتين السمع والطاعة وتنفيذ ما يؤمر به من الأوامر التى تحقق المصلحة للمسلمين .

٤ – إذا كانت الأوامر صادرة عن شخص لم تتحقق فيه شروط الاجتهاد وليس فيها نص شرعى صريح ، فلا يجب على المسلمين تنفيذها .

أما إذا كانت مخالفة لنص شرعى ، وظهرت فيها المعصية فيحرم على المسلمين تنفيذها بل يجب عليهم ردها والتنبيه على ما فيها من المخالفة .

٥ – الحكم على من يؤخذ قوله أو يرد مرجعه إلى جماعة العلماء العاملين بالكتاب والسنة لا إلى جمهرة المسلمين مهما كان عددهم .

وليسوا من المجتهدين أولئك الذين يحملون الأدلة مالا تطيق لفهم فهموه بعقولهم غير موافق لروح الشرع بسبب عدم جمع أدلة الموضوع الذى يبحثونه والتحقق منها .

وليسوا من المجتهدين كذلك أولئك الذين يلوون أعناق الأدلة ليًّا يخالف نصوصا شرعية لمجرد تحقيق مصالح ولو زعموا أنها لجماعة المسلمين .

ولا يفهم من كلامنا هذا أننا نريد تعطيل هذا الجهد الكبير لعلماء المسلمين أو نغلق بابه فى وجوههم ، كلا ، ولكننا نريد أن يكون المجتهد أهلا لهذا العمل الإسلامى الجليل حتى يثق الناس فيما يقول ، ويأخذوا عنه وهم مطمئنون .

ونحن بذلك نفتح باب الاجتهاد على مصراعيه أمام كل ذى أهلية له بحيث لا يغلق إلى يوم الدين – إن شاء الله تعالى – .

الباب الثالث

حقوق الجنود

إن التكليف بالواجبات يقتضى أن يقابله آداء للحقوق ، دلكم هو منطق الحق والعدل اللذين قام على أساسهما الدين الإسلامى ، وذلكم هو منطق الفطرة السوية التى ترفض الظلم ، وتأبى الاعتساف إذ ليس من الحق والعدل أن تكلف إنسانا ما بواجب من الواجبات ثم بعد أن يؤديه تعطيه ظهرك ، وتدير له كتفيك ، ثم تمط شفتيك وتولى دون أن تعطى هذا الأجير أجره .

ذلكم ولا شك هو عين التعسف والظلم ، بل هو خلق غير كريم يأباه الله ورسوله والمؤمنون ، ويرفضه ذوو العقول السليمة ، وكل الأسوياء من الناس على حد سواء .

والإسلام دين له نظامه الاجتماعى الخاص الذى يجعل الحقوق مقابل الواجبات ، ولهذا فهو لا يرضى هذه المعاملة التى تفرض على الناس ولا تفرض لهم ، والإسلام يعتبر هذا النوع من التعامل فى أبسط أحواله قلة ذوق ، وتمردا على النظام الفطرى للإنسان .

والرسول ﷺ حرص كل الحرص على أن يعلم المسلمين الذوق ، وينمى فيهم حاسة التقدير لمشاعر الآخرين يقول ﷺ : « من صنع إليكم معروفا فكافئوه »[1] .

إن المكافأة على صنع المعروف تدفع صانعه إلى المزيد منه ، لأنه يحس أن المجتمع الذى يعيش فيه يقدر عمله ، ويحفظ له صنيعه وينظر إليه بعين الرضا

---

(١) رواه أبو داود .

والاحترام ، وهذا نفسه يزيد من عدد صانعى المعروف ، فيتضاعف عددهم كلما أحسوا بتقدير المجتمع لهم ، وبقدر كثرة صانعى المعروف ، يقل أهل الشرْ ويتطهر المجتمع من فسادهم ، ويصبح مجتمعا خير النزعة ، كريم النفس ، ينفر من الشر ، بقدر إقباله على المعروف والخير ، وهذا هو ما يطلبه منا ديننا الحنيف .

وليس من الواجب أن تكون المكافأة مادية ، بل يكفى فيها أن تكون معنوية ولو بالكلمة الطيبة التى يقدرها الإنسان ، وقد تكون الكلمة الطيبة عند بعض الناس خيرا من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

وإلى هذا المعنى السامى الجليل يشير الرسول ﷺ حين يقول : « من قال لأخيه جزاك الله خيرا ، فقد أجزل »[1] أى أن الكلمة الطيبة مكافأة جزيلة يقدمها الإنسان لمن صنع إليه معروفا ، لهذا يجب الحرص عليها ، وبذلها لكل من يستحقها دون استخفاف بشأنها .

وإذا كان هذا هو الشأن فى الأمور البسيطة ، والمجاملات الشخصية فكيف يكون الحال مع من بذلوا ولاءهم لقيادتهم ، ومحضوا التزامهم لدينهم ، ودافعوا عن عقيدتهم بأنفسهم وأموالهم ؟

لا غرو إذن أن يكون حقهم أعظم ، وجزاؤهم أوفر ، وجائزتهم أكبر : لهذا فإن الإسلام قد جعل لجنوده الذين أخلصوا له ، وأدوا واجبهم نحوه حقوقاً فرضها ، وألزم أولى الأمر بالقيام بها .

وهذه الحقوق تتلخص فيما يأتى :

١ – الرفق بهم .

٢ – احترام آرائهم .

٣ – القيام على مصالحهم .

وسأتناول كل واحد منها بالتفصيل فيما يأتى – إن شاء الله – .

---

(١) الترمذى والنسائى وعندهما لقد أبلغ فى الثناء .

الفصل الأول

١ - الرفق بالجنود :

فعلى القيادة أن تكون رفيقة بالجنود ، فلا ترهقهم ، ولا تحملهم من العمل مالا يطيقون إلا أن تكون ضرورة أو يتطوعوا هم بالقيام بذلك بدون تكليف .

وعلى القيادة أن تختار لهم المنازل السهلة ، وتتجنب المسالك الوعرة وأن تسير بهم فى الطرق المزللة ، ولا تسلك بهم فجاجا مهلكة ، وأن تعطيهم فرصة العودة إلى أهليهم بين الحين والحين ، ولا تجمهرهم فى أرض العدو زمنا يضر بهم وبعائلاتهم .

والرفق مبدأ من مبادىء الإسلام الأساسية ، حرص المسلمون على اتباعه فى كل ظروفهم ، جعلوه أساس معاملتهم مع القريب والبعيد ، والمسلم وغير المسلم .

وليست قصة الشيخ اليهودى مع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - عن الأذهان بعيدة ، فإنه حينما رآه يطرق بيوت الناس ، ويتكفف ليعيش ، ضرب له حصة ثابتة فى بيت مال المسلمين بعد أن أعطاه من بيته ما قدر عليه ، ثم قال لخازن بيت المال : « انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم » ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه[1] .

ومر - رضى الله عنه - وهو راجع فى مسيرة من الشام على قوم قد أقيموا فى الشمس ، يصب على رءوسهم الزيت فقال : ما بال هؤلاء ؟ فقالوا عليهم الجزية لم يؤدوها ، فهم يعذبون حتى يؤدوها .

---

(١) الخراج ص ١٢٦ .

فقال عمر : فما يقولون هم ، وما يعتذرون به فى الجزية ؟

قالوا : يقولون لا نجد

قال – رضى الله عنه – فدعوهم ، لا تكلفوهم مالا يطيقون ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تعذبوا الناس ، فإن الذين يعذبون الناس فى الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة »[1] وأمر بتخليتهم .

هذا هو شأن الإسلام فى كل معاملاته مع أبنائه وأهل ذمته من غير أبنائه ، وذلك لأن الرفق ما دخل فى شيء إلا زانه ، ولا نزع من شيء إلا شانه ، والله – عز وجل – قد رفق بهذه الأمة فى تشريعاتها وفى معاملاتها ، وفى نظمها ، يقول – تبارك وتعالى – : ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾[2] ويقول – سبحانه – : ﴿ يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ﴾[3] .

ويقول ﷺ : « يسروا ولا تعسروا »[4] ، وما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما[5] .

فالرفق على هذا قاعدة من قواعد المعاملات فى الإسلام ، وهى الطابع الغالب على أوضاع المسلمين ، وإذا كان هذا هو الطابع العام فى المعاملات فى الإسلام فإنه أحرى أن يكون ذلك واجبا يأخذ به المسئولون فى الدولة الإسلامية أنفسهم على كل حال .

ولقد كان رسول الله ﷺ قدوة للخلفاء من بعده فى تطبيق ذلك المبدأ الهام ، يروى أنس بن مالك – رضى الله عنه – « أنه خدم رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لشيء فعلته لم فعلته ؟ ولا لشيء تركته لم تركته ؟ » .

وكان ﷺ يقول لعائشة – رضى الله عنها – : « يا عائشة ارفقى فإن الله

---

(١) الخراج : ص ١٢٥ .

(٢) سوره الحج : الآية ٧٨ .

(٣) سورة البقره : ١٨٥ .

(٤) رواه البخارى .

(٥) متفق عليه .

إذا أراد بأهل بيت خيرا أدخل عليهم الرفق » [رواه أحمد] .

هذا هو المبدأ العظيم فى الإسلام نلاحظه كما أشرت قبل فى كل شيء ، فلا يخلو منه أمر من أمور المسلمين ، فهو فى العبادات ، وهو فى المعاملات ، وهو فى الجهاد .

أ - **ففى العبادات** : نلمس الرفق بالمسلمين ، فالصلاة فريضة تؤدى من قيام ، ولا تقبل من القادر إلا قائما فإذا عجز عن القيام لم يجبر عليه إجباراً ، بل نرى الرفق واللين يقدمان للمصلى فهو يصلى قاعدا أو مضطجعا أو على جنب كيفما تيسر له ، ولا يصلى قائما وهو غير قادر أبداً .

وإذا كان مسافراً وفى السفر ما فيه من المشقات والمتاعب تخفف الصلوات فيصلى الرباعية منها ركعتين فقط ، وتسقط عنه النوافل الراتبة ، ومع هذا فله أجر الصلاة تامة وأجر ما كان يصليه معها من النوافل .

فإذا لم يجد الماء ليتوضأ للصلاة أو وجده ولكنه لا يستطيع استعماله لشدة البرد أو لمرض أصابه فإنه ينتقل إلى التيمم يرفع به حدثه الأصغر والأكبر ، وله أن يمسح على الخفين أو على الجورب يوما وليلة إن كان مقيما فإذا كان مسافرا مسح ثلاثة أيام بلياليهن .

وكما لمسنا الرفق بالمسلمين فى الصلاة فإننا نجده كذلك فى الصيام ، فالصيام ركن من أركان الإسلام ، وفريضة ماضية إلى يوم الدين ، ولكن إذا عجز المسلم عنه لكبر فى السن أو لمرض لا يرجى برؤه منه سقط عنه الصوم وأطعم عن كل يوم مسكينا ، وكذلك إذا كان مسافرا فله أن يفطر ، وإذا كان مريضا فله كذلك أن يفطر ، فإذا أقام المسافر وبرىء المريض فعليهما القضاء .

ويظهر الرفق بالرعية فى أجلى صوره عندما تكون المرأة حائضا أو نفساء ، أو حاملا أو مرضعا فإنها تفطر حينئذ وتعيد بعد أن يزول عنها المانع .

وأما الزكاة فهى فريضة على الموسرين فقط ، ولا تجب على المعدمين ، ولا على من يكون دخله فى حدود نفقاته ، فهى لا تجب إلا إذا بلغ المال نصابا

وحال عليه الحول دون أن ينقص منه شيء ويكون زائدا عن حاجة صاحبه وحاجة عياله .

فإذا كان يحتاج المال للزواج أو لبيت يسكنه فلا زكاة فيه مادام المال فى حدود الحاجة المطلوبة لسد الضرورات[1] .

والحج فريضة واجبة على المسلم المستطيع ولا تجب على غيره ، والاستطاعة كما قال العلماء تتحقق بأمور :

١ – صحة البدن .

٢ – أمن الطريق .

٣ – المال الذى يكفيه ويكفى من تجب عليه نفقته كفاية زائدة على الحاجات الضرورية كالملبس ، والمسكن ، والمركب ، والزواج ، وآلة الحرفة .

فإن احتاج المال لمسكن يسكنه ، أو خادم هو فى حاجة إلى خدمته ، لم يلزمه الحج ، وإن احتاج إليه ليتزوج به وقد خاف أن يقع فى الحرام فعليه أن يتزوج وليس عليه أن يحج ، بل لو احتاج المال ليشترى به بضاعة يكسب منها نفقته ونفقة من يعول لا يلزمه الحج[2] .

وهكذا يكون الحج فريضة خاصة على المستطيعين ، فأما غيرهم لا يجب عليهم لأن هذه الفريضة يتحمل فى سبيلها من يؤديها مشقات عظيمة لهذا فهو فى حاجة إلى الصحة البدنية ، ويحتاج إلى نفقات عظيمة فهو فى أمس الحاجة إلى المال الزائد عن ضرورياته ، كما يلزمه السفر إذا كان بعيدا عن مكة فلهذا وجب أن يكون الطريق آمنا .

فإذا نقص شرط من هذه الشروط لم تتحقق الاستطاعة ، وبالتالى لا يجب عليه الحج ، وتسقط عنه تلك الفريضة حتى تتوفر الاستطاعة .

---

(١) فقه السنة : ٣/١٩ .

(٢) نفسه : ٥/٣٣ بتصرف .

وبهذا يتحقق معنى الرفق فى العبادة فى أكمل صوره إذ لا يتصور أن يكون هناك رفق أكثر من ذلك .

ومن هذا العرض السريع نفهم معنى حديث الرسول ﷺ « إن هذا الدين متين ، فأوغلوا فيه برفق ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فإن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى »(١)

ب - **وفى المعاملات** : وضع الإسلام للمعاملات نظاما تميز به عن سائر أنواع المعاملات التى عرفتها الدنيا ، وتعامل على أساسها الناس ، فهو يتميز عن النظام الاشتراكى من حيث إنه يحترم رءوس الأموال ، ويجعلها حراما على غير صاحبها إلا برضاه ، ومع ذلك جعل للفقراء فى أموال الأغنياء حقا معلوما فريضة لا يمنعها إلا عاص متمرد .

وهو يتميز على النظام الرأسمالى من حيث إنه قيد مصادر الدخل كما حدد موارد الصرف فحرم الربا والغش والاحتكار وكل كسب لا يأتى عن طريق مشروع ، وبعد ذلك أباح للإنسان أن يكسب كما يشاء ، وأن يمتلك من الأموال ما يستطيع امتلاكه من غير تحديد ، وأن ينفق فى أى وجوه الخير شاء دون أن تتدخل الدولة فى شىء من ذلك .

وبنى الإسلام نظام التعامل بين الناس على أساس التراضى والتسامح والرفق ، وتقدير ظروف من نتعامل معهم ، فتأجيل المعسرين فى الديون أحب إلى الله من تشديد القبضة عليهم واضطرارهم إلى الاستدانة من شخص آخر لتسديد ما عليهم ، وفى ذلك يقول - تبارك وتعالى - : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾(٢) .

بل هناك درجة يحث عليها الإسلام أسمى من هذه الدرجة وأعلى قدرا عند الله - عز وجل - يذيّل بها القرآن الكريم تلك الآية السابقة التى تناولت حالة

---

(١) رواه أحمد والبزار .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٨٠

الإعسار ، ويرغب فى التعامل بها ، وذلك قوله – عز من قائل – : ﴿ وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[1] أى إن تتركوا رأس المال المقترض وتدعوه لله – عز وجل – فتضعوه عن المدين فهو خير لكم من أخذه من المعسر الذى لا يجد ما يقضى به دينه .

وفى هذا المعنى جاءت الأحاديث الشريفة ، عن أبى أمامة أسعد بن زرارة قال : قال رسول الله ﷺ : « من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله ، فلييسر على معسر ، أو ليضع عنه »[2] .

وعن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة قال : ماذا عملت لى فى الدنيا ؟

فقال : ما عملت لك يارب مثقال ذرة فى الدنيا أرجوك بها (قالها ثلاث مرات) .

قال العبد عند آخرها : يارب إنك كنت أعطيتنى فضل مال ، وكنت رجلا أبايع الناس ، وكان من خلقى الجواز ، فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر .

قال : فيقول الله – عز وجل – : أنا أحق من ييسر ، أدخل الجنة »[3] .

وإلى جانب الرفق فى التقاضى يحث الإسلام على حسن الأداء ، وبذلك لا يكون التوجيه للدائن فقط ، بل يجب أن يكون كذلك للمدين حتى يكون هذا الخلق شاملا لجميع المتعاملين ، وبذلك يكون خلقا للمسلمين أجمعين .

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رجلا أتى النبى ﷺ يتقاضاه فأغلظ له ، فهم به أصحابه ، فقال رسول الله ﷺ : « دعوه فإن لصاحب الحق مقالا » .

ثم قال ﷺ : « أعطوه سنا مثل سنه » قالوا : يا رسول الله لا نجد

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٠ .

(٢) رواه الطبرانى ، وابن كثير تفسيره .

(٣) متفق عليه .

إلا أمثل من سنه ، قال : « أعطوه فإن خيركم أحسنكم قضاء »(١) .

عن عبد الله بن سلام – رضى الله عنه – قال : لما أراد الله هُدى زيد بن سَعْيَة قال زيد : ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته فى وجهه ، سوى اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهل الجاهل ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما .

فكنت انطلق إليه لأخالطه ، وأعرف حلمه ، فخرج يوما ومعه على بن أبى طالب ، فجاءه رجل كالبدوى ، فقال : يا رسول الله ، إن قرية بنى فلان أسلموا ، وحدثتهم أنهم إن أسلموا أتتهم أرزاقهم رغدا ، وقد أصابتهم سنة وشدة ، وإنى مشفق عليهم أن يخرجوا من الإسلام ، فإن رأيت أن ترسل لهم بشيء يعينهم .

قال زيد : أنا أبتاع منكم بكذا وكذا وسقا وأعطى النبى ﷺ ثمانين دينارا فدفعها النبى ﷺ إلى الرجل وقال : أعجل عليهم بها فأغنهم .

قال زيد : فلما كان قبل المحلّ – أى موعد حلول الدين – بيوم أو يومين أو ثلاثة ، خرج رسول الله ﷺ إلى جنازة فى نفر من أصحابه فجبذت رداءه جبذة شديدة حتى سقط عن عاتقه .

ثم أقبلت بوجه جهم غليظ فقلت : ألا تقضينى يا محمد ، فوالله ما علمتكم بنى عبد المطلب لمطل .

فارتعدت فرائض عمر بن الخطاب كالفلك المستدير ، ثم رمى ببصره فقال : أى عدو الله ، أتقول هذا لرسول الله ﷺ وتصنع به ما أرى ، وتقول ما أسمع ؟ فوالذى بعثه بالحق ، لولا ما أخاف فوته لسبقنى رأسك .

ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر فى تؤدة وسكون ، ثم تبسم وقال : أنا وهو أحوج إلى غير هذا ، أن تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التباعة .

---

(١) متفق عليه .

اذهب يا عمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعا من تمر[1] .

ومن الرفق فى المعاملات السماحة فى البيع والشراء والاقتضاء فإن الله - تبارك وتعالى - يحب من العبد أن يكون سمحا فى معاملاته كلها ، والرسول ﷺ يدعو له بالرحمة فيقول : « رحم الله رجلا سمحا إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى »[2] .

إن الرفق بالناس وبخاصة أصحاب الحاجات منهم ، والتسامح معهم ولو كانوا غير مسلمين ، من العوامل التى ترغب الناس فى هذا الدين ، وتجعلهم يقبلون عليه ، ويدخلون فيه طائعين ، وإننا لنلمس أثر الرفق فى حديث رسول الله ﷺ مع الأعرابى .

روى أبو هريرة - رضى الله عنه - أن أعرابيا جاء إلى النبى ﷺ يستعينه فى شىء ، فأعطاه شيئا ثم قال : أحسنت إليك ؟

قال الأعرابى : لا ولا أجملت .

فغضب المسلمون ، وقاموا إليه .

فأشار إليهم النبى ﷺ أن كفُّوا ثم قام ، فدخل منزله ، ثم أرسل إلى الأعرابى فدعاه إلى البيت فزاده شيئا فرضى .

فقال : إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك وقلت ما قلت ، وفى أنفس المسلمين شىء من ذلك ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى ، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك .

قال : نعم .

فلما كان الغد أو العشى جاء ، فقال رسول الله ﷺ : « إن صاحبكم هذا كان جائعا ، فسألنا فأعطيناه ، فقال ما قال ، وإنا دعوناه إلى البيت فأعطيناه ، فزعم أنه قد رضى ، أهكذا » ؟ .

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى : ٢/٨٥ .

(٢) رواه البخارى .

قال الأعرابى : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

فقال النبى ﷺ : « ألا إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه ، فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا . فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى فأنا أرفق بها . فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض فجاءت فاستناخت ، فشد عليها رحلها ، واستوى عليها .

وإنى لو تركتكم حين قال الرجل ما قال ، فقتلتموه دخل النار »[1] .

إن الرفق هنا هو الذى أنقذ الأعرابى من النار ، وأخذ بيده إلى الجنة ، وتلك هى مهمة المرسلين ، ومن بعدهم من المصلحين .

وقد شمل الرفق جميع جوانب الحياة عند المسلمين ، وبخاصة أولئك الضعفاء الذين ليس لهم غنى عن الرفق بحال من الأحوال حتى الخدم فقد أمر الإسلام بمعاملتهم معاملة كريمة يشعرون فيها بإنسانيتهم ، ويحسون أنهم إخوة لمن جعلهم الله تحت أيديهم ولهذا لم يُرْو أن الرسول ﷺ نهر خادما أو سائلا أو ضرب قط أحدا بيده ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله .

عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ خادما له قط ، ولا امرأة قط ، ولا ضرب بيده إلا أن يجاهد فى سبيل الله[2] .

وعن أنس – رضى الله عنه – قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما سبنى سبة قط ، ولا ضربنى ضربة ، ولا انتهرنى ، ولا عبس فى وجهى ، ولا أمرنى بأمر ، فتوانيت فيه فعاتبنى عليه .

فإن عاتبنى أحد من أهله قال : « دعوه ، فلو قدر شىء كان »[3] .

ألست ترى فى هذا الأثر منتهى الرفق والتسامح ، ولا شك، أنه وثيقة

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى . ٨٢/٢ ، ٨٣ .

(٢) الوفا بأحوال المصطفى : ٧٨/٢ .

(٣) المصدر نفسه · ٨٤/٢ .

خطيرة يحملها إلينا أنس نفسه صاحب القضية ، وليس بعد شهادة أنس فى هذا المجال شهادة ، فهو خادم رسول الله ﷺ وهو الذى عومل بهذه المعاملة التى يحدثنا عنها ، وإنها لو لم تكن عن أنس لشككنا فيها ، ولتوهمنا أن فيها من المبالغة مالا يخفى .

فأى خادم يقوم بخدمة أهل بيت تلك المدة الطويلة من الزمان عشر سنين لا يسمع ممن يخدمه سبة واحدة ، ولا يرى منه عبوسا مهما فعل ، ولا معاتبة مهما حصل ، فهل تتصور أن يكون هناك انتهار أو تعنيف أو ضرب ؟

وهذا وأيم الله منتهى الرفق بالرعية ، بحيث لا يتصور أحد أن يكون فوقه رفق .

حـ - **الرفق فى الجهاد** : الجهاد فى عرف المسلمين هو الحرب المقدسة التى يكون الهدف منها إعلاء كلمة الله ، ونشر الدعوة التى جاء بها رسول الله فالجهاد إذن حرب ودماء ، وقتل وأسر .

وهو بهذا المعنى لا يتصوره الإنسان إلا أن يكون كله عنفا وشراسة ، وبذل أقصى الجهد لتحقيق أكبر قدر ممكن من الإيقاع بالعدو وإبادته ، وعندما نتصور معركة من المعارك يريد كل طرف فيها أن يحقق الانتصار على عدوه بإنزال أكبر الخسائر فى صفوفه ، سواء كان ذلك بالقتل والأسر ، أم بالتحريب والتدمير ، فإننا لا نتصور أبدا أن يكون هناك رفق بالمقاتلين .

بل إن القيادة نفسها لو أرادت والحالة هذه أن ترفق بجنودها لرفض الجنود ذلك الرفق الذى يأتى فى غير أوانه ، ويوضع فى غير موضعه ، فكيف نتصور إذن وجود الرفق فى الجهاد ؟

إن الرفق بالجنود أثناء الجهاد يتحقق بأمور ذكرها سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فى كتابه الذى أرسله إلى النعمان بن مقرن أمير جيوش المسلمين فى معركة نهاوند ، وذلك حيث يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى النعمان بن مقرن سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فإنه قد

بلغنى أن جموعا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند . فإذا أتاك كتابى هذا فسر بأمر الله ، وبعون الله ، وبنصر الله بمن معك من المسلمين ، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم ، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ، ولا تدخلهم غيضة ، فإن رجلا من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار »[1] .

وخطب – رضى الله عنه – يوما فقال فى خطبته : ألا وإنى لم أرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفسى بيده لأقصنه منه .

فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ، أفرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لتقصنه ؟

قال : إى والذى نفس عمر بيده ، إذاً لأقصنه منه ، وما لى لا أقص منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه ؟

ثم قال – رضى الله عنه – : « ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، و لا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم »[2] .

ومن خلال هذين النصين نرى أن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يحدد بكل وضوح ما يجب على أمراء الجيوش أن ينعوه مع جنودهم بحيث لا يرهقونهم ، و لا يحملونهم فوق طاقتهم ، لأن الإعداد النفسى عامل مهم من عوامل كسب المعارك فإراحة الجنود قبل دخول المعركة يؤهلهم نفسيا لخوضها قادرين ، ويعدهم معنويا لمواجهة عدوهم موفورى القوى ، ويمنحهم من القدرات والإمكانات ما يحقق لهم النصر إن شاء الله – تعالى – .

وقد فهم عمر بن الخطاب ذلك فأوصى به قواده ، فقال : لا توطئهم وعرا فتؤذيهم ، بمعنى لا تنزلهم فى أرض صلبة يصعب السير فيها ، لأن ذلك يؤذيهم حيث يكلفهم جهدا كبيرا يبذلونه فى اجتياز تلك الأرض التى يشق السير فيها .

(١) الفاروق عمر : ٢/٢٤ – ٢٥ .
(٢) مناقب عمر : ص ٩٤ – ٩٥ .

إن ذلك الجهد محسوب على الجنود لأنه يستنفد من قوتهم الشىء الكثير ، ولو أنهم ادخروه لحين يلقون عدوهم لتمكنوا من قهره والتغلب عليه ، حيث يلقونه وقوتهم مدخرة ، وجهدهم موفور فيزيد ذلك فى نكايتهم عدوهم ، ونيلهم منه ، وهم جامون مستريحون .

إن الجيش إذا أفنى جل قوته فى طريقه إلى عدوه ، وبذل معظم جهده فى مسيرته إلى ميدان المعركة ، يكون قد قدم نفسه إلى عدوه غنيمة باردة ، وبخاصة إذا أدرك العدو ذلك فبادر بخوض المعركة قبل أن يستجم الجيش الذى أنهكته الوعور التى سلكها وشلت قدرته الصعاب التى نهجها .

وقال عمر – رضى الله عنه – فى وصيته : ولا تدخلهم غيضة ، والغيضة هى المكان الذى يجتمع فيه شجر كثير مع الماء ، أو بتعبير المعجمات الغيضة : مجتمع الشجر فى مغيض الماء ، وهذا المكان بهذه الصفة أكثر من وعر ، لأن الوعر يصعب السير فيه ، والغيضة يستحيل السير فيها فكيف يسير جيش قوامه عشرات الآلاف ، ومعهم سلاحهم وما يحتاجون إليه لركوبهم وحمل أمتعتهم فى مكان قد غمره الماء ، والتفت فيه الأشجار ، فأصبح الماء عائقا والشجر حائلا .

لا شك أن هذا المنزل يحتاج من الجيش إلى جهد أكبر ، ليجتازوه ، كما يتطلب وقتا أطول ليخرجوا منه ، وإذا كان الأمر كذلك فإن الجيش بعد هذا الجهد سيلقى عدوه منهارا هزيلا ، لا يقوى على المقاومة ، بل لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، فكيف يحارب عدوا قد استعد لملاقاته ؟ وكيف يدخل معركة وقد استنفدت كل إمكاناته ؟؟

فالرفق هنا يتطلب أن يكون القائد بصيرا ، يرتاد المسالك السهلة ويختار الطرق المعبدة ، فإذا أراد أن يستريح فعليه بالنزول فى الأماكن التى يجد الجيش فيها راحته ، ويستعيد ما فقد من قوته أثناء مسيرته .

إن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – وهو أمير المؤمنين يتحمل مسئولية كل ما يقوم به عماله على الأقاليم ، كما يتحمل مسئولية ما يفعله قواده مع جيوشهم وكيف لا يتحمل عمر مسئولية ما يقوم به عماله وقواده ، وهو الذى

كان يتحمل مسئولية بغلة تعثر بالشام أو شاة تموت على شاطىء الفرات(١) .

إنه يشعر بأن المسئولية الأولى تقع على عاتقه ، ويوقن بأنه لن يفلت من السؤال بين يدى الله عن كل ما يقع فى رعيته .

وقد كان – رضى الله عنه – أحرص ما يكون على تحقيق الرفق بالمسلمين فإذا علم أن و اليا أو قائدا اشتد على الناس ، وآذاهم ، وكلفهم مالا قبل لهم به حاسبه ثم عزله من غير أن يتردد فى دلك .

خرج – رضوان الله عليه – ذات يوم إلى السوق ، فجاء رجل ، فجعل يقول : واعمراه ! قال : فسألناه عن خبره .

فقال : إن عاملا من عماله أمر رجلا أن ينزل فى واد ينظر كم عمقه .

فقال الرجل : إنى أخاف .

فعزم عليه ، فنزل فلما خرج كزَّ فمات .

فنادى ، واعمراه .

فبعث عمر إلى الوالى ، أما لولا إنى أخاف الله أن تكون سنة بعدى لضربت عنقك ، ولكن لا تبرح حتى تؤدى ديته . والله لا أوليك أبداً(٢) .

إن هذا الوالى لم يكن رفيقا بمن معه من الرعية ، وقد رأى عمر فى تصرفه خرقا وحمقا لا يليقان بأمير يلى مصلحة المسلمين ، من أجل ذلك هدده بالقتل وعزله من منصبه .

وهذا أمير جيش ولاه عمر ، فسار بالجيش حتى بلغ جبلا ، وانتهى الجيش إلى نهر ليس عليه جسر .

فقال أمير الجيش لرجل من أصحابه : انزل فانظر لنا مخاضة نجوز فيها وذلك فى يوم شديد البرد .

---

(١) مناقب عمر : ص ١٦١ .

(٢) مناقب عمر : ص ٧٦ وكزَّ أى انقبض ويبس .

فقال الرجل : إنى أخاف إن دخلت الماء أن أموت .

فأكرهه ، فدخل ، فقال : يا عمراه يا عمراه ثم لم يلبث أن هلك .

فبلغ ذلك عمر وهو فى سوق المدينة فقال : يا لَبّيكاه يا لَبّيكاه .

وبعث إلى أمير ذلك الجيش فنزعه .

وقال : لولا أن تكون سنة بعدى ، لأقدت منك .

لا يعمل لى عملا أبداً(١) .

إن أمير الجيش فى موقف حرج ، ماذا يفعل والنهر أمامه يحول بينه وبين مواصلة سيره وتقدمه ، وليس عليه جسر يستطيع العبور عليه فهو فى حاجة ماسة لوسيلة يجتاز بها ذلك النهر .

والأمير يعلم أن له حق السمع والطاعة على جنوده ، فقصد رجلا بعينه وطلب منه أن ينزل ليبحث عن مكان سهل يمكن للجيش أن يعبر منه ، ولكن الرجل اعتذر فكان على الأمير أن يقبل عذره ، وأن يعفيه من تلك المهمة . ولكن الأمير استغل سلطته ، والجندى لم يرفض لأنه يعلم أن السمع والطاعة حق الأمير ، فصدع بالأمر ، وكان المحظور .

لقد كان من الواجب على الأمير ألا يكره أحدا على شىء تخشى عاقبته وكان عليه أن يطرح الأمر على رجاله فإن تطوع أحد كان ذلك خيرا وإن لم يتطوع أحد أقرع بين القادرين على القيام به فمن خرجت قرعته قام بتنفيذ المهمة .

إن خطأ الأمير وقع من إكراهه الرجل على القيام بأمر لا يطيقه ، فقد يكون مريضا والماء يؤذيه ، فلماذا نكلفه مالا طاقة له به ؟ .

ومن هنا حمل عمر مسئولية الحادث على ذلك الأمير الذى أكره الجندى على مالا يقدر عليه ، ومن جهة أخرى فإن هذا التصرف من الأمير يدل على خرق فى

---

(١) مناقب عمر : ص ١٢٠ .

الرأى وضعف فيه لا يؤهل الإنسان لأن يكون أميرا فإذا كان قد تصرف هذا التصرف ، وهو بعد فى عافيه لم ير العدو ولم يواجهه فكيف سيتصرف عند مواجهة العدو وخوض المعركة .

إن الأمير ينبغى أن يكون على مستوى المسئولية التى يكلف بها ، كما ينبغى أن يكون أرفق القوم بهم ، فإذا بلغ به العنف أن يضحى برجاله لغير ضرورة ، وإن يزج بهم فى المهالك دون حاجة إلى ذلك فإن أبسط ما يعامل به هو عزله عن دلك الجيش الذى أعطاه ولاءه ، وأسلم إليه زمامه دون أن يقابل ذلك بالحفاظ عليه ، وتجنيبه موارد الهلكة .

إن القائد المحنك هو الذى يكون الجندى عنده أغلى من كل نتائج المعركة ، فهو لا يضحى به إلا لتحقيق غاية رفيعة ، تعود على الإسلام والمسلمين بالتمكين والنصر العزيز .

وهذا هو المعنى الذى صرح به أمير المؤمنين فى كتابه للنعمان بن مقرن حين قال له : فإن رجلا من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار .

نعم ، إن رجلا واحدا من المسلمين يجب أن يكون أحب إلى القائد من مائة ألف دينار ، وما مائة ألف دينار هذه فى مقابل رجل آمن بالله ورسوله ، وخرج لإعلاء كلمة الله مضحيا بنفسه وما يملك ، إن هذا الجندى لو حافظنا عليه قد يغنم لنا مئات الآلاف من الدنانير ، وقد يكون غناؤه فى المعركة يزيد على غنيمة مئات الآلاف منها .

إن هذه الكلمة من أمير المؤمنين – رضى الله عنه – تدل على قيمة الرجل فى الإسلام ، وعلى مكانته فى الأمة التى تربى فى أحضانها ، ونشأ بين شبابها ، إنها أمة تعرف منزلة الرجال ، وتقدرهم أقدارهم ، على أنه ينبغى أن نعلم أن الإسلام لا يقيس الرجال بهذه المقاييس المادية التى تعارف عليها الناس اليوم ، وأصبحت عندهم هى المعيار الذى يقدر على أساسه الناس .

فالإسلام لا يعرف الرجال بأموالهم ، ولا يقدرهم لحسبهم ، وإنما يعرفهم بتضحيتهم من أجل دينهم ، ويقدرهم بالأعمال الصالحة التى يتقربون بها إلى الله

– عز وجل – فقد يكون الرجل ثريا وجيها ، وقد يكون له من الحسب والنسب مالا يكون لغيره ، ولكنه لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وقد يكون الرجل فقيرا معدما ، وليس له حسب يفتخر به أو نسب يرجع إليه ، ولكنه عند الله أثقل من جبل أحد .

إن التضحيات التى يقدمها الجنود المسلمون ، والأعمال الخيرة التى يقومون بها فى مجتمعهم هى المقياس الصادق الذى يعامل على أساسه الفرد فى المجتمع الإسلامى والإسلام قد سوى بين الناس فى كل شىء ، ولم يفاضل بينهم إلا بالتقوى .

ولهذا لما جاء الخبر إلى أمير المؤمنين بانتصار المسلمين على عدوهم فى معركة نهاوند ، سأل أمير المؤمنين السائب بن الأقرع الذى حمل إليه بشرى النصر عمن استشهد من المسلمين فأخبره بأن قائد المعركة النعمان بن مقرن كان أول شهيد ، ثم فلان وفلان وفلان لأعيان الناس وأشرافهم .

ثم قال : وآخرون من أفناد الناس ممن لا يعرفهم أمير المؤمنين .

فبكى عمر ، وأخذ يقول : وما ضرهم ألا يعرفهم أمير المؤمنين ؟ لكن الله يعرفهم ، وقد أكرمهم بالشهادة ، وما يصنعون بمعرفة أمير المؤمنين[1] .

ومن هنا نعرف أن الرفق بالرعية حق من حقوقها شرعه الإسلام ، وأخذ به حكام المسلمين أنفسهم ، وعاملوا به رعاياهم من غير تفريق بين غنى وفقير وحر وعبد ، وذكر وأنثى ، حتى كان الرفق فى المعاملة بجميع ضروبها سمة من سمات المجتمع الإسلامى .

ويكفينا فى ذلك قول الرسول ﷺ ، فقد روت أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بيتى هذا : « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا ، فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا ، فرفق بهم ، فارفق به »[2] .

---

(١) البداية والنهاية : ١١١/٧ .

(٢) رواه مسلم .

٢ - احترام آرائهم :

يربى الإسلام أبناءه تربية تضمن لهم الحياة الكريمة وتنمى شخصياتهم بطريقة تؤهلهم للقيام بواجبهم نحو بناء المجتمع الذى ينشده الإسلام ، فكل فرد فى هذا المجتمع مسئول عن ثغرة من ثغرات المجتمع الذى يعيش فيه ، ومن واجبه أن يؤدى هذا الدور بكل جدارة فإن قصر أو تخاذل فهو محاسب على ذلك بين يدى الله - تعالى - يوم لا ينفع مال ولا بنون .

لم يكن هذا الكلام نظريا كما نسمعه الآن فى كل مكان ، ولكنه كان واقعا عاشه المسلمون ، وتعاملوا به فيما بينهم ، ولكى يكون ذلك واقعا عمليا منح الإسلام كل فرد من أبنائه عوامل تمكنه من القيام بتلك المهمة التى لا يستقيم حال الأمم إلا بها .

إن الإسلام وهو يكون دولته لم يرد من أتباعه أن يكونوا صورا متحركة يميلون حيث يشار إليهم بالميل ، ويوافقون حيث يراد منهم الموافقة ، ويمتنعون حين لا يكون المسئول موافقا ، ولكنه يريد منهم أن يكون كل شخص منهم حارسا أمينا على نظام الدولة ، يرعاه من الطغاة ويحميه من الانتهازيين ، ويدفع عنه من يحاول تحويل مسيرته عن خطها المستقيم .

وذلك لأن الإمعات الذين يفعلون ما يفعله الناس ، ويكون كل واحد منهم نسخة مما يريده الحكام هؤلاء لا يستحقون الحياة لأنهم وضعوا أنفسهم بأنفسهم مع الببغاوات التى تردد ما تسمع دون أن تعى منه شيئا ، وتحاكى ما يفعل أمامها من غير أن يكون له مدلول معين عندها .

وهؤلاء الإمعات هم الذين يستمد منهم الطغاة طغيانهم ، وهم الذين يمكنون المستبدين من التمادى فى استبدادهم ، وهم فى النهاية معاول الهدم

في مقومات الأمم وحضارتها ، ولهذا جاء في الأثر : « لا يكن أحدكم إمعة يقول : أنا مع الناس ، إن أحسنوا أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ولكن وطنوا أنفسكم إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تتجنبوا إساءتهم » .

وفي حديث ابن مسعود – رضي الله عنه – : « لا يكونن أحدكم إمعة ، قالوا : وما الإمعة ؟ قال : الذي يقول أنا مع الناس »[1] .

والإمعة هو الشخص الذي لا رأي له ، يسير خلف كل ناعق ، ولا يعرف إلا ما يقوله الناس ، وهؤلاء الإمعات ، لا أثر لهم في المجتمع الذي يعيشون فيه ، حيث يعيشون أذنابا يتأثرون ولا يؤثرون ، والإسلام لا يقبل من أحد أن يكون هكذا ، حتى في أحرج المواقف وأشدها ضيقا .

إن المسلمين قد تربوا على أن الأمور كلها بيد الله ، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وأن أهم ما يحرص عليه الإنسان لا يملك أحد من الخلق مهما كانت منزلته أن يتصرف فيه ، وأن الرزق والأجل اللذان من أجلهما يذل الإنسان نفسه ويطأطىء رأسه ليس لمخلوق عليهما أو على أحدهما سبيل ، فالرزق مقسوم للمرء وهو لا يزال في بطن أمه ، والأجل موقوت عند الله وصاحبه لم يخرج بعد إلى الحياة .

الله – جلا وعلا – يضمن للناس جميعا مسلمهم وكافرهم أرزاقهم وقد أقسم – سبحانه – على أن ذلك حق لا مراء فيه ، قال – تعالى – : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾[2] .

والله – سبحانه – قد حدد للناس آجالهم ، فلا تقديم ولا تأخير ولا شفاعة ولا محاباة ، يقول – جل شأنه – : ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[3] .

---

(١) النهاية لابن الأثير : ٦٧/١ .

(٢) سورة الذاريات : الآية ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) سورة النحل : الآية ٦١ .

وإذا كان الأمر كذلك فعلام يخاف الإنسان ؟ ولماذا يجبن عن قولة الحق ؟ وبماذا يجيب إذا سئل وهو بين يدى الله عن سكوته على الباطل ؟؟

بهذا الأسلوب الحكيم ، وبهذه التربية الروحية العالية ، رفع الإسلام معنويات المسلمين ، فنشأوا على العزة فلا يذلون أنفسهم إلا لله ثم لإخوانهم المسلمين ، وتربوا على الكرامة فلا يخضعون إلا للحق ، وخافوا الله وحده فلا يهابون ظالما ولا جباراً عنيداً .

ولكى يؤكد الإسلام هذا المعنى فى نفوس المسلمين ، ويغرسه فى قلوبهم منح كل فرد منهم حق النقد الصريح البناء ، والواقع الذى لا مراء فيه أن المسلمين قد استعملوا حق النقد فى البناء والإصلاح ، ولم يتخذوه وسيلة للهدم والتعويق ، ذلك لأن المسلم عندما ينتقد لا يريد إلا إزالة أمر يخاف على المسلمين عاقبته ، أو إعادة حق يجب على المسلمين التمسك به ، والنقد من هذا النوع هو النقد البناء الذى تجنى الأمة من ورائه النفع الكثير والخير العميم .

وعندما منح الإسلام لكل مسلم حق النقد أوجب على المسئولين فى الأمة الاستماع له ، والأخذ به مادام يحق حقا أو يبطل باطلا وتلك هى الضمانات الحقيقية ليأتى النقد ثمرته ، ويحقق غايته .

أما أن يمنح الفرد حق النقد ، وتطلق حرية المسئولين فى عدم الأخذ به ولو كان حقا فذلك تلاعب يتنافى مع جدية الإسلام ، ووضع قواعد التشريع التى تضمن سلامة البناء فى المجتمع ، وما قيمة النقد إذا لم يجد أذنا صاغية تعيه ، وقلبا متفتحا يؤمن به ، ويداً قوية تدافع عنه وتحميه إن النقد الصريح البناء إذا لم يجد ذلك يكون نوعا من وسائل استنفاد طاقات الناس ، وحيلة من الحيل التى يكتشف بها المعارضون حتى يتمكن المسئولون من الأخذ بخلاقيمهم إذا أرادوا ذلك .

والإسلام يطلب منا أن نكون أقوياء عند المطالبة بالحق ، وأن نكون أعزة أمام ذوى السلطان لا نهن ، ولا نستكين ، يقول الرسول ﷺ : « اطلبوا

الحوائج بعزة النفس ، فإن الأمور تجرى بالمقادير »[1] .

وأمير المؤمنين عمر – رضوان الله عليه – كان يقول : « لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، – أى كلمة الحق – ولا خير فينا إذا لم نسمعها » .

وكان – رضى الله عنه – يؤكد هذا المعنى فى خطبه ، ويرددها على أسماع المسلمين ، ويطالبهم بها ليجرئهم على قول الحق ، ويفتح لهم باب النقد البناء ، ليعرف من أمره ما خفى عليه ، ويقف على أحوال المسلمين التى لم تبلغه ، ومن كلامه فى ذلك قوله : « فاتقوا الله عباد الله ، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى ، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإحضار النصيحة فيما ولانى الله من أمركم »[2] .

بهذه النصوص فتح عمر باب النقد أمام المسلمين ، ليبصروه بخطئه إذا أخطأ ، ويعينوه على الحق إذا لم يتبينه ، وقد فهم المسلمون من ذلك أنهم مطالبون بالنصيحة ، وأنهم إذا أهملوها سيسألون عنها بين يدى الله – عز وجل – .

والرسول ﷺ يقول : « الدين النصيحة ، قلنا لمن يا رسول الله ، قال ﷺ : لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم »[3] .

فهم المسلمون ذلك ووعوه ، وأدوا واجبهم نحوه من غير مجاملة ولا محاباة ، روى المؤرخون أن عمر – رضى الله عنه – جاءته برود من اليمن –ثياب – ففرقها على المسلمين كل رجل منهم بردا . ثم صعد المنبر يخطب ، ورأى المسلمون عليه بردين ، فلما قال : اسمعوا رحمكم الله .

قام إليه سلمان الفارسى فقال : والله لا نسمع ، والله لا نسمع .

فقال عمر : ولِمَ يا أبا عبد الله ؟

---

(١) الجامع الصغير : ١/٤٤ .
(٢) أخبار عمر : ص ٥٦ .
(٣) رواه مسلم .

قال : يا عمر ! تفضلت علينا ، فرّقت علينا بردا بردا ، وخرجت تخطب في حلة منها - أى بردين - .

قال عمر : أين عبد الله بن عمر ؟

فقال : ها أنذا يا أمير المؤمنين !

قال عمر : لمن أحد هذين البردين اللذين عليَّ ؟

قال : لى .

فقال عمر لسلمان : عجلت على يا أبا عبد الله ، إنى كنت قد غسلت ثوبى الخلق ، فاستعرت ثوب عبد الله .

قال سلمان : أما الآن فقل نسمع ونطيع[1] .

نحن نلاحظ فى هذا جرأة فى النقد من أحد المسلمين ، كما نلاحظ سعة صدر أمير المؤمنين ، حيث لم يضق بهذا النقد ، ولم يحرمه على الناس ، بل أثبت للحاضرين جميعا براءته مما اتهم به ، وبين عذره فى لبس ثوب ولده عبد الله ، وحتى بعد أن ثبتت براءته ، ووافق الحاضرون على معذرته لم يعنف الناقد ، ولم يقل له شيئا يكرهه ليظل باب النقد مفتوحا ، ولا يرهب المسلمون من أن يوجهوا النقد ويقولوا كلمة الحق لأى إنسان كائنا من كان .

وإنه ليلفت نظرى فى هذا المقام إلحاح عمر - رضى الله عنه - على المسلمين أن يسددوه إذا أخطأ ، ويقوموه إذا إعوج ، ويعينوه على نفسه بإسداء النصح والتوجيه ، وذلك مالم نلاحظه فى عهد الخلفاء .

نعم ، لقد كان كل خليفة حريصا على ذلك ، عاملا به ، متقبلا له ولكنا لم نلاحظ أن أحداً منهم ألح فى هذا الأمر إلحاح عمر ، ولا طلبه باستمرار ممن حوله كما كان يطلبه عمر ، ولعل ذلك راجع إلى حرص عمر على تحقيق أكبر قدر ممكن من العدالة بين الرعية كما اشتهر عنه ، ولعله كان يعلم فى نفسه حدة وغلظة

---

(١) أخبار عمر : ص ١٦١ .

فخاف أن يهابه المسلمون فكان يلح عليهم فى ذلك ليعطيهم قدرا من الثقة والاطمئنان ليتمكنوا من أداء واجبهم .

ولعله كان يشعر – وهو الأرجح عندى – أنه كان قد ركز السلطة كلها فى يده حتى كان كل أمير لا يتصرف إلا بإذنه ، ولا يعمل عملا حتى يوافق عليه ، وهو ما يسمى فى العصر الحديث بالحكومة المركزية ، ولا شك أن للحكومة المركزية مسالبها وعيوبها ، ولا شك أن عمر كان يدرك ذلك ، فدفعه حرصه على التصحيح والتقويم على أن يلح على من حوله فى تقويمه إذا أعوج ونصحه إذا حاد .

نعم ، إن حكومة عمر – رضى الله عنه – كانت حكومة مركزية بكل ما تحتمله الكلمة من المعانى ، ولكنها بفضل الله – تعالى – ثم بفضل قوته الذاتية ، وعبقريته فى الإدارة والحكم لم تكن فيها مثالب الحكومات المركزية المعروفة الآن ، فلم تتعطل مصالح العامة ، ولم يكن (الروتين) معوقا من المعوقات ، بل لم يكن استئثاره بالسلطة مصدر اضطراب للنظام ، ولكنه كان عاملا مهما من عوامل البت السريع فى القضايا وفى الأمور التى كانت تحتاج إلى حلول قوية وسريعة .

ونحن هنا لا نؤيد الحكومة المركزية ، ولا نقول إن الإسلام قد أقرها فى عهد عمر فلا مانع من اتخاذها نظاما تسير عليه الدولة ، ولكننا نقول إن نجاحها فى عهد عمر – رضى الله عنه – كان مرتبطا ارتباطا واقعيا بشخصية عمر ومن لنا بمثل عمر الآن حتى نلقى إليه بمقاليد الأمور ونحن مطمئنون إلى نجاحه وتوفيقه فى كل ما يقوم به .

ولا يتنافى كون حكومة عمر – رضى الله عنه – كانت حكومة مركزية مع مبدأ الشورى الذى هو أساس نظام الحكومة فى الإسلام ، فالمركزية هى تركيز السلطة فى جهة واحدة سواء كانت فردا أم مجموعة ، وذلك لا يتعارض مع استشارة الآخرين ، بل ولا يتنافى مع الأخذ بآرائهم .

ولقد كان عمر – رضى الله عنه – أكثر الناس فى استشارة أصحابه فيما يعن له من الأمور التى ليس فيها نص ، ولم يسبقه فيها أبو بكر – رضى الله عنه – برأى .

ونحن نرى ذلك فى تقسيم أرض السواد فقد استشار المهاجرين ثم استشار الأنصار فلما اختلفوا عليه استشار مشيخة قريش من مسلمى الفتح .

وكذلك فعل فى حادثة طاعون عمواس ، فإنه – رضى الله عنه – سار بالناس نحو الشام حتى نزل بسَرغ ، وهناك لقيه قواد الجيش – أبو عبيدة ويزيد وشرحبيل – فأخبروه خبر الطاعون ، وقالوا له : إن الأرض سقيمة .

فقال عمر : اجمع إلى المهاجرين الأولين .

قال : فجمعتهم له ، فاستشارهم ، فاختلفوا عليه .

فمنهم القائل : خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده ، ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك .

ومنهم القائل : إنه لبلاء وفناء ما نرى أن تقدم عليه .

فلما اختلفوا عليه قال : قوموا عنى .

ثم قال : اجمع لى مهاجرة الأنصار ، فجمعتهم له ، فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين ، فكأنما سمعوا ما قالوا فقالوا مثلهم .

فلما اختلفوا عليه قال : قوموا عنى .

ثم قال : اجمع لى مهاجرة الفتح من قريش ، فجمعتهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان .

وقالوا : ارجع بالناس ، فإنه بلاء وفناء .

فقال لى : يا ابن عباس ، اصرخ فى الناس فقل : إن أمير المؤمنين يقول لكم إنى مصبح على ظهر ، فأصبحوا عليه .

قال : فأصبح عمر على ظهر ، وأصبح الناس عليه[1] .

هكذا كان عمر – رضى الله عنه – فى كل أحواله يستشير ، ولا يقطع أمراً برأيه دون أن يستبينه من أهل الرأى فيه .

---

(١) الطبرى : ٥٧/٤ .

ولقد بلغ حرصه على تشجيع المسلمين على إبداء رأيهم مبلغا لم يعرف قط عن حاكم قبل عمر ولا بعده ، وإن كان ليسأل أصحابه عن رأيهم فيه ، وماذا سيفعلون لو رأوه حاد عن الحق ، ومال عن الطريق السوى ؟

سأل سلمان مرة فقال له : أملك أنا أم خليفة ؟

فقال له سلمان : إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ، ثم وضعته فى غير حقه ، فأنت ملك غير خليفة ، فاستعبر عمر[1] .

وقال عمر لحذيفة : ناشدتك الله ، وبحق الولايات عليك ، كيف ترانى ؟

قال حذيفة : ما علمت إلا خيرا .

فناشده بالله فقال : إن أخذت مال الله فقسمته فى ذات الله فأنت أنت ، وإلا فلا .

قال عمر : والله إن الله ليعلم ما آخذ إلا حصتى ، ولا أكل إلا وجبتى ولا ألبس إلا حلتى[2] .

وإننا لنجد عمر – رضى الله عنه – يتقبل رأى سلمان ورأى حذيفة فيه من غير أن يكون له وثبة ، أو يضيق بمقالتهما ، وإننالنرى أن سلمان وحذيفة – رضى الله عنهما – لم يداهنا حين سألهما الخليفة ، ولم يثنيا عليه مع أنه أهل لهذا الثناء ، ولكنهما وضعا له الميزان الذى يقيس به أعماله ، و يتبين من خلاله إن كان خليفة عادلا أم ملكا جائرا .

وهما بهذه الإجابة الصريحة التى لا تنطوى على مجاملة ، ولاتنم عن محاباة قد بينا للمسلمين كيف يكونون صرحاء مع الخلفاء و كل من يتولى أمراً من أمورهم .

إن الحكام عادة يسألون هذه الأسئلة ليسمعوا الثناء العطر ، والمديح الذى يثلج صدورهم ، ويزيدهم غرورا فوق ما هم فيه ، ولكن عمر ليس من هؤلاء

---

(١) الطبرى : ٢١١/٤ .

(٢) أخبار عمر : ص ٣٢٦ .

ولو كان منهم لما رضى بهذه الإجابة فيبكى من قول سلمان ، ويشهد الله على أنه يضع المال فى موضعه حين أجابه حذيفة .

وقف عمر يوما على المنبر وقال : لا تزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية وإن كانت بنت ذى القصة - يعنى يزيد بن الحصين الحارثى - فمن زاد ألقيت الزيادة فى بيت المال .

فقالت امرأة من صف النساء ، طويلة فى أنفها فطس : ما ذاك لك .

قال عمر : ولم ؟

قالت : لأن الله — تعالى — يقول : ﴿ وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ﴾[1].

فقال عمر - رضوان الله عليه - : امرأة أصابت ، ورجل أخطأ[1] .

وهنا نرى أن عمر قد احترم رأى المرأة ، وتقبله بطيب خاطر ، لأن الإسلام يفرض على و لاة الأمر ألا يضيقوا برأى مادام حقا ، ولو كان رأى امرأة لأن الإسلام يعتبر المرأة شريكة فى بناء المجتمع ، ومنحها كما منح الرجال حق النقد وإبداء الرأى .

ولم يقف عمر عند تقبل النقد والرضى به ، ولكنه تجاوز ذلك إلى التراجع عن رأيه هو حينما ذكرته بقول الله - تعالى - فقال : « اللهم اغفر ، كل إنسان أفقه من عمر »

ثم رجع فصعد المنبر وقال : أيها الناس إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء فى صدقاتهن على أربعمائة درهم (أربعين أوقية) فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب ، وطابت به نفسه فليفعل[3] .

لقد كان عمر يرى أن زيادة المهور ليست مكرمة يتفوق بها الإنسان على

---

(١) سورة النساء : الآية ٢٠ .
(٢) مناقب عمر : ص ١٤٩ .
(٣) نفسه: ص ١٥٠ .

غيره وإلا لكان رسول الله ﷺ أولى بذلك من غيره ، ومادام لم يزد ﷺ على ذلك فهذا هو الأولى بالاتباع ، وكان من حق عمر أن يظل على رأيه كمجتهد وجد فى فعل رسول الله ﷺ قدوة يلزم بها المسلمين ولكن قول الله - تعالى - أولى بالاتباع ، ولاسيما أن الرسول ﷺ لم ينه عن زيادة الصدقات ، وترك الناس حسبما يتفقون عليه فى المهور .

إن تراجع عمر عن رأيه ، واستغفاره الله - عز وجل - عما بدر منه ، وقوله : « كل إنسان أفقه من عمر » ، دليل قاطع على احترام رأى المرأة ، وتقبل النقد مهما كان مصدره .

وإنه ليلفت نظرنا هنا ما حدث من عمر نفسه مع امرأته ، حينما تدخلت فى أمر حدث بين عمر وأحد ولاته ، فأرادت أن تعرف سبب غضبه عليه فرفض عمر منها ذلك ، ولم يدعها تتدخل فى أمور ليست مما تدخل النساء فيه[1] .

فعمر يسمع من المرأة ويحترم رأيها ، ويتراجع عن رأيه ، وينزل على رأيها وهو هو الذى يرفض أن تتدخل امرأته بينه وبين بعض عماله .

لا شك أن امرأة عمر أقرب إلى نفسه من أية امرأة أخرى ، وكان المنتظر من عمر - رضى الله عنه - أن يكون حفيا برأى زوجته ، مصغيا لما تقول ولكننا وجدنا هناك عكس ذلك تماما ، ولا نستطيع أن نجد لذلك علة إلا أن عمر خاف إن هو أصغى إلى تدخل امرأته فى مثل ذلك الأمر أن يتخذ الناس تدخل زوجاتهم وسيلة إلى الوصول إلى ما يريدون ، فسد عمر ذلك الباب ، وأغلقه بإحكام فى وجوه أولئك الذين تسول لهم أنفسهم أن يأتوا إليه عن هذا الطريق .

ولقد كان تصرف عمر حيال زوجته حينما رغبت فى التدخل بينه وبين بعض عماله على هذا النحو تصرفا يدل على عبقرية سياسية فذة ، ودراية فريدة بإدارة شئون الحكم ، لأنه لو تساهل فى هذا التصرف ، وسمح لزوجاته بالتدخل فى شئون الإدارة لتسلطن على الحكم ، وأصبحت سنة يتخذها الخلفاء بعده ،

---

(١) مناقب عمر : ١٢١ .

ولوجدت الرعية فى زوجات الخليفة بابا يدخل منه كل من يريد الدخول على خليفة فى أمر مخالف لنظام الحكم .

ولن يكون ذلك لكل الناس ، بل سيكون لهؤلاء الذين بينهم وبين أزواج الخليفة صلة ما ، ويحرم منه بقية الناس ، ومن هنا توجد المحسوبيات .

ومن هنا تكثر المجاملات ، وتتحول الخلافة إلى ملك عضوض ، تتحكم فيه النساء ، ويذل فيه الرجال ، ويحق فيهم قول الرسول ﷺ : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »[1] .

لكل هذه الاحتمالات ، وما تؤول إليه من المفاسد ، وما تجره على الأمة من الويلات رفض عمر أن تتدخل زوجته فى شئون الدولة ، ولو كان على سبيل الإصلاح .

وموقف آخر من عمر – رضى الله عنه – يوضح لنا كيف كان يتقبل النقد ويصغى للنصح ، بل كيف كان يسر ويفرح عندما يشعر بأن فى رعيته من يستطيع تقويمه إذا مال أو انحرف .

يروى أنه صعد المنبر يوما وقال : يا معشر المسلمين ، ما تقولون لو ملت برأسى إلى الدنيا كذا (وميل رأسه) .

فقام إليه رجل فقال : أجل ، نقول بالسيف كذا (وأشار إلى القطع) .

فقال عمر : إياى تعنى بقولك ؟

قال : نعم ، إياك أعنى بقولى .

فقال عمر : رحمك الله ، الحمد لله الذى جعل فى رعيتى من إذا تعوجت قومنى[2] .

إن هذه الأحداث الكثيرة فى حياة عمر لم تكن تمثيلا يرضى به العامة من الناس ، ولم تكن خديعة يختبر بها المعارضين ليزج بهم فى غيابات السجون ،

---

(١) رواه البخارى والترمذى والنسائى .

(٢) أخبار عمر : ص ٣٣٢ .

ولكنها كانت تمثل شعوره بالمسئولية ، وتجسم خوفه من سؤال الله - عز وجل - له عن هذا الانحراف ، فقصد أن يقوم فى الدنيا حتى إذا ما عرض على الله كان مقوما لا يحتاج إلى تقويم .

وكان عمر يشعر أن إظهار انحرافه فى الدنيا ولو كان فيه كشف لبعض نواحى الضعف فى نفسه فهو خير من أن تنكشف تلك الجوانب عند الله وعلى رءوس الأشهاد ، لأن انكشافها فى الدنيا سيمكنه من معالجتها حتى يقبل على الله وقد تخلص منها ، أما إذا سترت فى الدنيا وانكشف بين يدى الله - تبارك وتعالى - فأنى له بمعالجتها ، وكيف يمكنه تبريرها ؟

إن هذا الأمر لا يدركه الذين يسترون ضعفهم بشدة الحكم ويوارون عوراتهم خلف أبهته ، لأن هؤلاء نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فظنوا أن الحكام أرفع من أن ينتقدوا ، وأن منزلتهم ينبغى أن تكون فوق قدرة النقاد ، فلا يجوز لهؤلاء إلا إظهار محاسنهم ، والثناء عليهم بالحق وبالباطل .

أما الذين أدركوا عظم التبعة ، وأحسوا بضخامة المسئولية ، فهم يرون أن طبيعة البشر الضعف ، وأن من صفاته الخطأ ، فليس عليهم جناح أن يخطئوا ماداموا يستدركون هذا الخطأ ويعملون على إصلاحه ، ولأن يخطئوا فى هذه الحياة ثم يجدوا من يبصرهم بخطئهم ويردهم إلى رشدهم ، خير لهم من أن يداهنوا فى الدنيا ويبرر لهم خطؤهم بما يهونه على نفوسهم ، فإذا ما انقلبوا إلى ربهم ساءت العاقبة والتمسوا المخرج ، فلا يجدون إليه سبيلا .

ولقد كان عمر كما كان الخلفاء كلهم من هذا الطراز ، وهو ولا شك طراز فريد لم تعرفه الدنيا قبل أن تعرف الإسلام .

فالإسلام هو الذى ربى هؤلاء الرجال ، وجعل منهم نماذج يحتذى بها ، فكان كل منهم ينشد رعيته أن تبصره بخطئه وأن ترده إلى صوابه ، لأنهم يعلمون أن العظماء لا يضرهم خطأ يقع منهم ، وإنما الذى يعيبهم حقا هو إصرارهم على الخطأ بعد أن يتبينوه .

نعم ، إن العظماء لا يضرهم الخطأ ، لأن أخطاءهم معدودة ، وإنهم ليسرهم أن يتعرفوا عليها ليتخلصوا منها ، وترتفع منزلتهم فى سلم الكمال الذى لا يمكن أن يتم إلا لله وحده ، وأما الضعفاء ، وأما الذين لا يأنسون فى أنفسهم القدرة على مواجهة الأخطاء ، فهم الذين يلجئون إلى الإرهاب لستر ضعفهم ، وتخويف الناس من الكلام فى أخطائهم .

إن عمر – رضى الله عنه – مهما أخطأ فصوابه أكثر من خطئه ، وحسناته أضعاف سيئاته ، ولهذا لم يكن ليضره أن يقع منه خطأ ، أو تكون منه زلة ، ولهذا أيضا كان يسره أن يعرف خطأه ليتلافاه مادامت لديه الفرصة لتلافيه ، وقديما قال الشاعر :

كفى المرء نبلا أن تعد مثالبه

لم يكن عمر – رضى الله عنه – وحده هو الذى يفعل ذلك ، لم يكن هو الذى يحترم آراء الناس وحده ، ولم يكن هو الذى يتقبل نقد الناقدين وحده ، بل كان الخلفاء كلهم على هذا الوضع ، لأن ذلك ليس من ابتكار عمر فى الإسلام ، بل هو أمر أقره الرسول ﷺ وعامل به أصحابه من قبل عمر كما سأبينه بعد .

على أن هذا الأمر لو كان من ابتكار عمر لكان جديرا بأن يتابع عليه لأنها سنة حسنة ، « ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينتقص من أجورهم شيء »

لقد كان عثمان بن عفان – رضى الله عنه – يحج بالمسلمين ، ويكتب لعماله أن يوافوه فى الموسم ، ويطلب منهم أن يحضروا معهم كل من له شكوى ، سواء كانت من الوالى أم من غيره ، كما كان يقول للناس : « إنه مع الضعيف على القوى مادام مظلوما »[2] .

ويروى الطبرى – رحمه الله – أن عثمان كتب للناس فى الأمصار أن ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه ، فإنى مع الضعيف

---

(١) من حديث طويل رواه مسلم .

(٢) الكامل لابن الأثير : ٣/١٨١

على القوى مادام مظلوما إن شاء الله[1] .

فعثمان – رضى الله عنه – يشجع المسلمين على أن يطلبوا حقوقهم ولو كانت عند الأمراء والولاة ، ويطلب منهم أن يكونوا أعزة أقوياء لا يهنوا أمام الظلمة ، ولا يضعفوا أمام قوة السلطان .

ويروى ابن كثير – رحمه الله – أن عثمان – رضى الله عنه – كان يلزم عماله بحضور الموسم كل عام ، ويكتب للرعايا : من كانت له عند أحد منهم مظلمة فليواف إلى الموسم فإنى آخذ له حقه من عاملة[2] .

ولما صلى عثمان بن عفان – رضى الله عنه – وهو أمير المؤمنين الظهر بمنى أربع ركعات عتب عليه بعض من حضر هذه الصلاة فلم يضق عثمان بما وجه إليه من النقد بل تقبله بصدر رحب .

وكذلك انتقده كثير من الناس فى أمور كإحراق المصاحف وجمع الناس على مصحف واحد ، وإيثاره بنى أمية على غيرهم ، وإسرافه فى أموال المسلمين ، ونفيه أبا ذر عن المدينة ، وضربه عمار بن ياسر حتى فتقه وغير ذلك كثير مما اتهم به أمير المؤمنين عثمان – رضى الله عنه – فلم يضجر ، ولم يعاقب ، بل تلقى ذلك بسلامة صدر ، وقلب رحيم ، ورد علماء المسلمين على هذه الشبه بما يبطلها ، ويفسد على أصحابها ما أرادوه من ورائها .

فقد رد العسكرى على شبه المتهمين للخليفة فى كتابه الأوائل ، وكذلك ردها شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه منهاج السنة ، كما ردها الديار البكرى فى كتابه تاريخ الخميس ، وردها كذلك ابن العربى المالكى فى كتابه العواصم من القواصم حتى ثبت من كل ذلك براءة أمير المؤمنين عثمان – رضى الله عنه وأرضاه – .

لقد كان أمير المؤمنين قادرا على معاقبة الذين خرجوا عليه ، كما كان

---

(١) الطبرى : ٣٩٧/٤ .
(٢) ابن كثير : ٢١٩/٧ .

يستطيع أن يؤدبهم ويردعهم بما يسكتهم ، ولكنه لم يفعل دلك خوفا من أن يسد على المسلمين الباب الذى فتحه سلفه – عمر بن الخطاب – فيعوق المسلمين عن إبداء رأيهم فيسكتون ، وقد يكون سكونهم عن حق يجب أن يبدوا فيه بآرائهم ، كما قد يكون سكوتهم ثغرة ينفذ منها الحاكم إلى ما يريد دون أن يجد من يعارضه إذا كان مخطئا .

ومن أشهر ما روى عن عثمان – رضى الله عنه – فى ذلك ما روى من أن رجلين من أهل الكوفة عزما على قتل أمير المؤمنين عثمان ، وتوجها نحو المدينة لذلك فلما وصلا نكل أحدهما و رجع دون أن يشترك فى الجريمة ، وأما الآخر وهو كميل بن زياد فإنه قعد لأمير المؤمنين ينتظر خروجه لينفذ ما عزم عليه .

وخرج أمير المؤمنين فوجد كميلا جالسا يرصده ، فوجأه فى وجهه – أى ضربه – فوقع على أسته – أى مقعده – .

فقال كميل : أوجعتنى يا أمير المؤمنين .

قال عثمان : أولست بفاتك ؟

قال : لا والله الذى لا إله إلا هو .

فاجتمع الناس ، وقالوا : نفتشه يا أمير المؤمنين .

فقال : لا ، قد رزق الله العافية ، ولا أشتهى أن أطلع منه على غير ما قال .

ثم قال : إن كان كما قلت يا كميل فاقتد منى ، والله ما حسبتك إلا تريدنى ، و قال : إن كنت صادقا فأجزل الله ، وإن كنت كاذبا فأذلَّ الله .

وقعد له على قدميه ، وقال : دُونك قال : قد تركت[1] .

ونحن حين نستعرض هذه الحادثة نرى فيها أن أمير المؤمنين عثمان – رضى الله عنه – يصدق الرجل فيما قال ، ولا يتهمه بالكذب رغم الريبة التى تحيط بموقفه ، ولما عرض عليه من حضر أن يفتشوه رفض ذلك ، وقال : لا أشتهى أن أطلع منه على غير ما قال

---

(١) الطبرى ٤٠٣/٤ .

ولم يكتف أمير المؤمنين بتبرئته وعدم البحث عما جاء من أجله ، ولكنه رضى الله عنه – اعتذر له عما كان وقعد له ليقتاد منه .

قد يقول قائل : إن هذا الموقف من أمير المؤمنين يتنافى مع الحنكة السياسية التى ينبغى أن تكون من أبرز صفات الحكام وأشهرها ، وقد كان الواجب أن يأمر عثمان بتفتيشه كما عرض عيه الحاضرون ، فإن كان جاء لشر تخلص منه ، وإن لم يكن كذلك فليس عليه شيء ، لأن ذلك من حق الحاكم وسلطته على رعيته .

نعم ، لقد كان من حق أمير المؤمنين أن يتخذ كل الإجراءات اللازمة لكفالة الأمن ، وردع المعتدين ومن تسول لهم أنفسهم العبث ، ولكن أمير المؤمنين أخذ الرجل بظاهره ، وبخاصة وأنه حلف بالله الذى لا إله غيره ، وأن عثمان لم يبلغه عنه ما يريبه ، والإسلام قد علّم المسلمين أن يأخذوا الناس بظواهرهم ويتركوا لله – عز وجل – سرائرهم .

فعثمان – رضى الله عنه – قد صدق كلام الرجل ، ولم يرد فضحه والبحث عما جاء من أجله ، ولكن الرجل استغل ذلك الموقف النبيل ، وراح يدبر لقتل الخليفة وما ذنب الخليفة إذا كان المجرمون لا يقابلون الحسنة بالحسنة ؟ وما جريرة الخليفة ، وقد صدق يمين الله وهو لم يتصور أن رجلا مسلما يحلف بها كذبا ؟؟

لا شك أن الخليفة قد عامل الرجل بالأخلاق الإسلامية الأصيلة ، وأما الرجل فقد رد بأخلاق الجاهلية الكاذبة الغادرة ، وكل إناء بالذى فيه ينضح .

وكان الخلفاء – رضوان الله عليهم – يوصون عمالهم وأمراء الجيوش باحترام آراء الناس ، وعدم تحقيرها ، وأخذها بعين الاعتبار حتى يكون ذلك مشجعا للمسلمين ، وحافزا لهم على إبداء آرائهم ، فرب رأى من مغمور يكون فيه نجاة الجيش ، وانتصار المسلمين .

ففى غزوة نهاوند ، وقد تحصنت جيوش الفرس بأسوار المدينة وأحاطوها بحسك الحديد -- الأسلاك الشائكة – فكانوا يخرجون كلما أرادوا ووجدوا فى الخروج مغنما من فرج تركوها لذلك ، واشتد الأمر على المسلمين ، وخافوا أن

تطول مدة الحصار ، فيدب الوهن فى صفوف المسلمين ، وتكون العاقبة غير حميدة ، حينئذ استشار قائد الجيش النعمان بن مقرن - رضى الله عنه - الناس ، وعرض عليهم الموقف بحذافيره ، وقال : فما الرأى الذى نستخرجهم به إلى المنابذة ، وترك التطويل ؟

وأخذ كل من حضر يبدى رأيه ، فقال بعضهم : شدد الحصار عليهم فالتحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم .

وقال عمرو بن معدى كرب : ناهدهم ، وكاثرهم ، ولا تخفهم .

فرد الحاضرون هذا الرأى وقالوا : إنما تناطح بنا الجدران ، والجدران أعوان لهم علينا .

وتكلم طليحة بن خويلد فقال : أرى أن تبعث إليهم فرقة من جيش المسلمين يرمونهم بالسهام ، فعندئذ ينظر العدو فيراهم قلة ، فيخرجون لمقاتلتهم ، ويكون الجيش مختفيا عن أعينهم ، فإذا خرجوا لقتالهم تظاهروا بالصمود ثم التقهقر فيتبعهم القوم ، ولم يشكوا فى هزيمتهم ، وتظل الفرقة فى صمودها وتقهقرها حتى يلجئوا إلينا ، وعندئذ نبرز لهم فنقاتلهم ، وينصرنا الله عليهم .

وأعجب الحاضرون برأى طليحة ، واستراحوا له لأنه الوسيلة التى ستنقذهم من مطاولة العدو وتحصنه .

وأوكل النعمان تنفيذ الخطة إلى القعقاع بن عمرو ، ونفذها القعقاع بكل دقة وتحقق بذلك النصر للمسلمين على الفرس ، وسمى فتح نهاوند فتح الفتوح .

كان هذا هو الطابع العام فى الدولة الإسلامية ، وقد تعلموه من الرسول ﷺ فإنه كان يستشير فى كل أحواله ، وكان يستمع لكل من يتكلم ويبدى رأيه ، وكان لا يحقر رأيا مهما كان ، فإن كان صوابا أخذ به ، وإلا سكت ، ففى غزوة بدر كان يقول : أشيروا على أيها الناس[1] .

فيتكلم الصحابة وهو يسمع منهم ، حتى إذا استقر الأمر على القتال ،

---

(1) فتح البارى : ٢٨٧/٧ .

ولم يكن هناك سبيل غيره ، سار بهم رسول الله ﷺ حتى وصل بدرا ونزل بالمسلمين عند أدنى ماء منها .

وهنا يروى لنا ابن إسحاق عن رجال من بنى سلمة أن الحباب بن المنذر بن الجموح لما رأى المنزل الذى نزله رسول الله والجيش كأنه لم يعجبه فقال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فننزله ، ثم نغوّر ما وراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء ، نقاتل القوم ، فنشرب ، ولا يشربون .

فقال ﷺ : لقد أشرت بالرأى[1] .

ونهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس ، فنزلوا حيث أشار الحباب .

هكذا كان ﷺ يعامل أصحابه ، يطلب منهم المشورة ، فيشيرون عليه بما يرونه ، وينظر فيه ﷺ ويقرر ما يراه صالحا بالنسبة للظروف التى يكون فيها المسلمون .

ونحن نلاحظ أن الرسول ﷺ لم يستحسن الرأى فقط ولكنه أمر بتنفيذه والنزول على مشورة الحباب ، وذلك حين نهض بالناس ونزل بهم عند أدنى ماء من القوم .

من هذه الأمثلة المتعددة نستخلص أن الإسلام كان حريصا على احترام آراء المسلمين ، وتقدير مشورتهم ، والعمل بها مادامت مناسبة ، ويمكن الاستفادة منها .

ولم يكن الإسلام ليحرص على هذا إلا لأنه يريد أن يستخرج طاقات رجاله ، ويفجر مواهبهم ، فرب مواهب معطلة لو اكتشف لجنت الأمة

---

(١) ابن هشام : ٦٢٠/١ .

من ورائها خيرا كثيرا ، ونحن لا نستطيع أن نقول إن كل المواهب التى عرفت فى هؤلاء الرجال الأفذاذ سواء كانت عسكرية أم سياسية أم اقتصادية ، وسواء كانت فى التنظيم والإدارة أم فى القضاء وشئون الحكم ، لا يستطيع أحد أن يدعى أن كل هذه الطاقات التى برزت فى الرعيل الأول من الصحابة لم تكن موجودة فيهم ، لأن هذه المواهب لا يمكن أن توجد فى الإنسان بعد عدمها ، وإنما كانت موجودة فى طبيعتهم كامنة فى جبلتهم ، فلما دخلوا الإسلام وجدوا الفرصة التى يعبرون بها عن طاقاتهم ، وما حباهم الله به من المواهب فبرزت تلك العبقريات .

ولقد أفسح الإسلام لهذه المواهب فنمت ، وأخذت مكانتها الطبيعية فى حياة هؤلاء الرجال – رضوان الله عليهم أجمعين – ولولا الفرصة التى منحها لهم الإسلام لعاشوا وماتوا على ما كانوا عليه قبل الإسلام .

إن أبا بكر – رضى الله عنه – لم يكن قبل الإسلام سوى تاجر يبيع ويشترى فى الأسواق ، ولم يكن أحد ممن يعرفه حق المعرفة ليتصور أنه يمكن أن يكون حاكما عبقريا يدير وهو فى المدينة المنورة شئون الجزيرة العربية كلها ، بل لم يكن أحد قط ليخطر بباله أن أبا بكر ذلك الرجل الهين اللين ، السهل السمح يستطيع أن يقف هذا الموقف البطولى من حروب الردة ، وأن يصر على حرب العرب كلهم وحده ما استمسك السيف بيده .

ولم يكن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فى الجاهلية إلا راعى غنم لأبيه ثم احترف التجارة يتعامل مع الناس ككل التجار ، ولو عرض عمر فى جاهليته على أزكى علماء النفس والاجتماع لما استطاع أحد منهم أن يتكهن بأن عمر سيكون له ذلك الشأن الرفيع ، وتلك العبقرية التى تفوق بها على أعظم الحكام فى زمانه ، بل إنه تعدى بها زمانه ، وتجاوز بها جزيرة العرب كلها .

وغير أبى بكر وعمر كثير من الصحابة الذين ظهرت عبقريتهم ، وتفتقت مواهبهم بمجرد أن أفسح لهم الإسلام الطريق ، ومنحهم حرية المناقشة والنقد ، وأوجب عليهم التناصح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

والإسلام يريد من وراء منح المسلمين حرية النقد والمناقشة أن يربى جيلا عزيزاً كريما يأبى الضيم ، ويرفض الذل ، ويواجه الباطل فى إباء وشمم ، لأن المجتمع الذى ينشأ على ذلك لا يمكن أن يستعبد ، ولا يستطيع أحد مهما كان أن يستبد فيه أو يتجبر .

ولهذا لما رأى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – شابا منكسا رأسه قال له : يا هذا ارفع رأسك ، فإن الخشوع لا يزيد على ما فى القلب ، فمن أظهر لنا خشوعا فوق ما فى القلب ، فإنما أظهر للناس نفاقا على نفاق[1] .

وروى أنه رأى شابا يسير فى الطريق يتماوت فطعنه فى صدره وقال : لا تميتوا علينا ديننا أماتكم الله .

وفى هذا المقام يروى حديث رسول الله ﷺ : « إذا رأيت أمتى الظالم أن تقول له : أنت ظالم ، فقد تودع منهم »[2] .



(١) مناقب عمر : ص ١٩٨ .

(٢) مختصر منهاج القاصدين : ص ١٢٣ .

٣ - القيام على مصالحهم :

ذلكم هو الحق الثالث من أهم حقوق الجنود التى أردنا الحديث عنها هنا ، والقيام على مصالح الناس من أوجب واجبات الحكومة ، فإنما وجدت الحكومات ورضى الناس بالخضوع لها ، والإذعان لسلطانها ، لأنهم يشعرون أن ذلك يحقق لهم مصالحهم ، ويدفع عنهم اعتداءات المعتدين ، وشرور ذوى الشر .

والناس يخضعون أنفسهم للحكومة راضين طائعين ، وهم لا يعطون ذلك لغيرها مهما كلفهم ذلك ، لأنهم يجدون فى ظل الحكومة الأمن والأمان ، والحماية والرعاية ، وهم فى سبيل ذلك يقدمون حريتهم المطلقة ، ويضعون كل إمكاناتهم الشخصية تحت تصرف تلك الحكومة التى تضمن لهم تلك الحقوق .

والحكومة التى لا تحقق لرعاياها تلك الأمانى لا تعرف الاستقرار ، ولا تهنأ بالراحة ، لأن الأشخاص الذين أعطوها ولاءهم ، ومنحوها إخلاصهم ، إذا لم يجدوا مقابل ما يبذلون نقموا وغضبوا ، وكانت نتيجة ذلك تلك الثورات التى أرقت العالم وزعزعت الأمن والاستقرار ، وقضت على الهدوء والرخاء فى كل بلد قامت فيه .

والحكومة الإسلامية التى تقوم على الشرع هى وحدها التى تكفل للناس مصالحهم الدنيوية منها والدينية على حد سواء ، ذلك لأن الحكم القائم على القهر والتغلب يكون جورا وعدوانا ، ويكون لذلك مذموما بمقتضى الحكمة السياسية ، والحكم القائم على السياسة فقط يكون مذموما كذلك لأنه يقتصر على النظر فى شئون الدنيا ولا يعنيه أمر الآخرة فى شىء ، والدنيا كلها عبث وباطل لأن غايتها الموت والفناء .

أما الحكم القائم على أساس شرعى دينى فهو الحكم النافع والمفيد فى الدنيا والآخرة لأن الخلق ليس المقصود الحقيقى لهم هو منافعهم الدنيوية فقط بل منافعهم الآخروية ، وسعادتهم الأبدية هو المقصود الأعظم من أصل خلقهم .

ولا شك أن الشارع الذى خلق الخلق أعلم بمصالحهم من أنفسهم ، ولهذا كان من الواجب أن تكون القيادات فى الدولة خاضعة للنظام الإسلامى الذى وضعه الشارع الحكيم ليكون أسلوبا للحكم وسياسة للدولة .

يقول ابن خلدون – رحمه الله – : « فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك فى جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة ، حتى فى الملك الذى هو طبيعى للاجتماع الإنسانى ، فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطا بنظر الشارع[1] .

فمن واجبات القيادة فى الإسلام القيام على مصالح الجنود لتحقيق سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، ومن حق الجنود المقرر شرعا المطالبة بها إذا أهملت القيادة أو قصرت فى تقديمها أو القيام لتحقيقها .

إن الإنسان غالبا ما يحدد مصالحه فى الحياة بما تميل إليه نفسه ، وتدفعه إليه ملذاته العاجلة ، فيكون حينئذ تحت تأثيرات نفسية ، وضغوط جسمية لا يستطيع تحت وطأتها أن يفكر فى مصالحه الحقيقية ، إنه لاستيلاء المصلحة العاجلة على عقله وحسه لا يرى غيرها ، ويلح فى طلبها ، بل ويعرض نفسه للضرر سعيا للحصول عليها ، فإذا ترك كل إنسان وما يشتهى ، وأطلقنا باسم الحرية العنان للناس ليفعلوا ما يشاءون ، ويلهثوا وراء ما يحبون ، اختل نظام الأمن ، وسادت الفوضى ، وعم الاضطراب ، وأصبح الناس وكأنهم فى غابة لا نظام فيها ولا قانون .

فلابد إذن أن تكون القيادة واعية لما يدور حولها ، بصيرة بأحوال الرعية ، تبذل جهدها فيما يحقق لهم المصلحة التى يعود عليهم نفعها ، وينعمون بسعادتها فى الدنيا والآخرة .

---

(١) المقدمة : ص ١٩٠ .

وعلى القيادة أن تحمل الجنود حملا على قبول ما فيه مصلحتهم المحققة ، وإن عزفوا عنه ، لأنهم قد لا يدركون ذلك تحت ظروف البيئة والحالة النفسية ، والأوضاع الاقتصادية التى ينغمسون فيها .

ولذلك كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يقول : إن قريشا تريد أن تكون مغويات لمال الله - تعالى - دون عباد الله ، وأنا حى ، فلا والله ، ألا وإنى آخذ بحلاقم قريش عند باب الحرة أمنعهم من الوقوع فى النار[1] .

إن القيادة الرشيدة هى التى تمنع الناس مما يضرهم بالقدر الذى يجلب لهم به ما ينفعهم ولا يعترض على ذلك بأنه حد من حرية الناس ، وتدخل فى شئونهم الخاصة، لأن القيام على مصالح العامة يقتضى ذلك ، وعدم فعله يعتبر خيانة ممن أهمله ، فلو أن إنسانا رأى إنسانا آخر يريد أن يحرق نفسه ، أو يتناول سما أو يلقى بنفسه فى مهلكة وتركه يفعل ذلك وهو قادر على إنقاذه ألست تراه جانيا مشاركا فى تلك الجريمة التى وقعت ؟

فكذلك القيادة التى ترى جنودها يتردون فى المهالك ، ويقدمون على ما يضرهم ، ويتأذون به ، إذا تركتهم وشأنهم ، ولو كان ذلك باسم الحرية ، فإنها تكون مسئولة عن ذلك أمام الشارع ، لأن القيادة أمانة ، والأمانة تقتضى أن يكون المؤتمن ناصحا حريصا على مصلحة من ائتمنه ، وليس من الأمانة أن يترك الناس يقعون فى المهالك ، ويقف مكتوف الأيدى يتفرج على ما يقع بهم .

ولهذا فإن الرسول ﷺ كان حريصا على ألا تقع أمته فى المهالك ، والقرآن الكريم ينهى عن إلقاء الإنسان نفسه فى التهلكة ، يقول - تبارك وتعالى - : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾[2] .

ويقول الرسول الكريم ﷺ : « مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً ، فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها ، وهو يذبهن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تفلتون من يدى »[3] .

---

(١) مناقب عمر : ص ٨١ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٩٥ .

(٣) رواه مسلم وأحمد فى المسند

فالناس عادة لا يدركون إلا مصالحهم العاجلة ، وكثيرا ما تغيب عنهم المصالح الآجلة وهى سعادتهم الحقيقية ، فكان لابد من أن يبصروا بها ، فإذا أدركوها ، وعملوا لها فبها ونعمت ، وإلا فإنهم يجب أن يؤطروا عليها أطراً ، وتلك هى سمة الخلافة الرشيدة والفرق بينها وبين الملك الطبيعى والسياسى .

يقول ابن خلدون – رحمه الله – : « الملك الطبيعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة والملك السياسى هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ، ودفع المضار ، والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به »[1] .

ويحذر الرسول ﷺ من التهاون فى دفع الشر عن الناس ، ويأمر أولى الأمر بأن يأخذوهم أخذا إلى طريق الحق والخير ، فيقول ﷺ : « لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم يلعنكم كما لعنهم »[2] .

والحديث صريح فى أن نأخذ على يد الظالم ، ولاندعه يظلم فيهلك ، وصريح كذلك فى أنه يجب أن يؤطر الذين لا يعرفون مصالحهم عليها أطرا ، ويحبسوا عليها حبسا .

ولخطورة هذا الأمر ، ولأنه من الأمور التى لا يفقهها كثير من الناس ، بل قد يظن بعض الناس أن الحرية تقتضى ألا يتدخل الإنسان فى مثل ذلك ، لأجل هذا ، ضرب الرسول ﷺ لأمته مثلا حسيا يدرك به من لم يقف على فقه هذه المسألة واجب القيادة نحو رعيتهم ، وذلك حين يقول : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم

---

(١) المقدمة : ص ١٩١ .

(٢) رواه أبو داود .

اسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ، ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا »(١)

هكذا يجب على القيادة أن تعرف الناس مصالحهم ، وأن تجبرهم على سلوك طريق الخير إجبارا ولا تدعهم باسم الحرية يسيئون وهم لا يشعرون ولو كان ذلك بحسن نية فالحديث صريح فى حسن نية الذين أرادوا أن يخرقوا فى نصيبهم خرقا لأنهم قصدوا ألا يؤذوا من فوقهم .

وإذا تقرر هذا المعنى فلابد أن نعلم أن المصالح التى يجب على القيادة القيام بها للجنود كثيرة وسأقتصر على أهمها وهى :

أ - الأمن النفسى والجسمى .

ب - الرخاء المادى والمعنوى .

جـ - التعليم بكافة أنواعه .

وسأتكلم عن كل واحد منها بالتفصيل إن شاء الله .

أ - الأمن النفسى والجسمى :

الأمن نعمة كبرى لا يعرف قيمتها إلا من حرم لذتها ، ولقد امتن الله - تعالى - على سكان مكة بنعمة الأمن قال - تعالى - : ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ، ويتخطف الناس من حولهم ﴾(٢) فلو لم تكن تلك نعمة عظيمة ، ومنة جليلة لما ذكرت فى هذا المقام .

ولو أن إنسانا تصور أنه فى غابة موحشة ، تكتنفه الوحوش من كل جانب ، وتتربص به العصابات من كل ناحية ، فلينظر كيف يكون حاله فى تلك الغابة ؟ بل كيف تمر به الساعات وتمضى عليه اللحظات ؟ إن كل ساعة تمر به كأنها دهر لا ينقضى وكل لحظة تمضى عليه كأنها سنين لا تنتهى ، وبالبتها ستين

---

(١) رواه البخارى .

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٦٧ .

خالية من الفزع ، مجردة من هذا الترويع ، ولو قارن الإنسان بين حاله تلك ، وبين وجوده مع أهله وإخوانه خالى البال من كل مفزع ، مجرد الفكر من كل مروع فكيف يجد حينئذ لذة الأمن ، وكيف يكون شكره عليها لمن أنعم بها عليه .

ولقد عبر الرسول ﷺ عن نعمة الأمن بقوله : « من أصبح منكم آمنا فى سربه ، معافى فى جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »(١) .

فالدنيا بحذافيرها تتمثل فى هذا الثالوث : الأمن – الصحة – الرزق ، فالأمن إذن يعدل ثلث الدنيا ، وقد يزيد فى قيمته على ثلثها ، لأن الأمن هو راحة البال ، واطمئنان النفس ، بل هو السعادة الحقيقية المنبعثة من داخل الإنسان ، أعظم من ملك الدنيا كلها .

لأن الإنسان إذا ملك الدنيا بحذافيرها ، وكان مع ذلك قلق البال حائر النفس ، مشتت الذهن ، لا يشعر بلذة لما يملك ، ولو طلبت منه الدنيا التى يملكها مقابل الأمن والاطمئنان لبذلها طائعا غير آسف على فقدها .

لهذا كان من واجب القيادة الإسلامية توفير الأمن لكل المسلمين بغير استثناء لا يحرم منه إلا مذنب على جريمته بينة تدينه ، وهذا الأمن بتلك المثابة حق من حقوق الجنود لا يمنعهم منه إلا ظالم غشوم .

وإنما يتحقق الأمن للجنود بأمور لابد من توفرها ، والقيادة الإسلامية هى المسئولة أمام الله – عز وجل – ثم أمام الضمير الإنسانى الواعى إذا أهملت أو قصرت فى توفير هذه الأمور .

أول هذه الأمور الثقة فى عدالة القيادة ، وأنها لا تحابى أحدا مهما قرب على حساب أحد .

تلك الثقة تبعث فى النفس الطمأنينة والرضى ، وتجعل الإنسان لا يخاف أن

---

(١) رواه البخارى فى الأدب والترمذى وابن ماجة .

يظلم أو يتعرض للظلم من أحد ، وعدالة القيادة تجعل كل امرىء واثقا من عدم الاعتداء عليه ، لأن المعتدى لابد أن ينال جزاءه ، وفى الوقت نفسه نردع من تسول له نفسه الاعتداء على الآمنين وإذا توقف الاعتداء ، ووجدت السلطة التى تقيم القسط بين الناس توفر لهم الأمن ، وساد الاطمئنان .

إن أعظم ما يحرص عليه الإنسان فى هذه الحياة هو الأمن الذى يمثل الحياة الطبيعية لكل إنسان ، إنه يريد أن ينام دون أن يُذهب عنه النوم خوف لص يسرق متاعه أو لص يسرقه من أهله وأولاده ، ، ويحرمهم منه إلى الأبد أو إلى حين .

ويريد أن يتاجر دون أن تتعرض تجارته للضرائب الباهظة التى تحول كده وتعبه ربحا صافيا إلى جيوب الجباة الظالمين ، أو تتعرض للمصادرة والتأميم .

ويريد أن يمارس حقه السياسى دون أن يتعرض للإرهاب والحرمان والتجريد من أبسط الحقوق التى يتمتع بها أخس الحيوانات فى غابة لا يحكمها نظام ولا قانون .

ويريد أن يتمتع بحقوقه التى تكفلها له النظم والشرائع من غير إهانة ولا تحقير ، ولا مساومة ولا تخويف .

وأخيراً يريد أن يعيش فى وطنه قرير النفس ، هانىء البال ، مرتاح الضمير ، تتوفر له كل الإمكانات التى تمكنه من البناء والتعمير ، وبين أهله وأولاده سعيدا بهم ، مسرورا برفقتهم دون أن يخشى سطوة لصوص الإنسانية الذين يختطفون الرجال والنساء خلسة فى ظلام الليل ، أو جهارا نهارا متحدين كرامة الإنسان وحريته غير عابئين بالنظم والقوانين التى تكفل له هذه الكرامة وتلك الحرية .

إن هذا الأمن لا يتوفر للجنود إلا فى ظل قيادة رشيدة ، تؤمن بأن من واجبها حماية الجنود ، ودفع الأذى عنهم ، وتوفير الثقة فى عدالتها للقاصى والدانى على حد سواء .

وثانى هذه الأمور الاعتراف بكرامة الإنسان وحريته التى ولدت معه ،

بحيث لا يضرب بغير جريرة ، ولا يهان بغير جناية ، ولا يهدد وهو برىء لم يرتكب ذنبا .

إن الاعتراف بكرامة الإنسان اعترافا عمليا ، واحترام حريته التى خلقها الله معه ، يبعث فى النفس الأمن والاستقرار ، فالإنسان آمن فى ظل الإسلام ، مالم يرتكب جريمة يستحق عليها العقاب ، وحينئذ لا كرامة له لأنه هو الذى أهدر كرامته ، ولا حرية له لأنه هو الذى جرد نفسه من حريته حيث وضعها تحت طائلة العقاب .

واعترافا بكرامة الإنسان وحريته كان الخلفاء – رضوان الله عليهم – يوصون العمال والولاة وقواد الجيوش بعدم إذلال الجنود بضربهم أو إهانتهم ، وبعدم تجميدهم فى ميادين الحرب مدة طويلة تجعلهم يشتاقون إلى أهلهم وأولادهم ، لأن فى ذلك إهداراً لكرامتهم ، وتحقيرا لإنسانيتهم ، فالإنسان إذا ضرب وأهين ذل وخضع ، وفقد شخصيته التى لا يعتبر إنسانا إلا بها وإذا حبس عن أهله وولده مدة لا يستطيعها فإنه يفقد حبه لوطنه ، ويشعر باحتقار آدميته ، وينصرف تفكيره إلى الوسائل التى يتخلص بها من هذا النظام القاسى العنيف ، فينقلب حبه بغضا وولاؤه تمردا ، ويكون بعد ذلك عاملا من عوامل فقد الأمن فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وماذا تجنى الأمة من جنود فقدوا شخصيتهم ، وما تنتظر منهم وقد حرمتهم من أعزِّ عزيز لديهم ؟

إن الجندى الذليل لا يجلب لأمته العزة ، وإن الأشقياء بحرمانهم من أهليهم وأولادهم وذويهم لا يقدمون لأوطانهم السعادة لسبب بسيط جدا وهو أن فاقد الشىء لا يعطيه ، والشاعر يقول :

ومكلف الأيام ضد طباعها   متطلب فى الماء جذوة نار

إن الجنود إذا وجدوا من قيادتهم حرصا على عزتهم وكرامتهم ضحوا فى سبيلها بكل غال ونفيس ، وإذا أحسوا منها بالعمل الدائب على توفير سعادتهم لم يبخلوا عليها بأنفسهم وأولادهم ، وإن من أهم ما يوفر للإنسان عزته ، ويقدم له سعادته هو الأمن والاطمئنان ، ولذلك كان عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يكتب إلى الأمراء ، لا تجلدوا العرب فتذلوها ، كما كان يكتب لهم ،

لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم[1] .

وثالث هذه الأمور عدم ترويعهم وتخويفهم ولو على طريق المزاح ؛ لأن الترويع يقذف فى القلب الخوف ، ويشيع فى النفس الرعب ، ولا يأتى مع الخوف والرعب أمان أبداً ، فالخوف يخلع قلب الإنسان فيفقد صوابه ، ويطيش حلمه ، ويصبح ولا قدرة له على مواجهة الأمور ، ولا يستطيع الصمود أمام المحن .

وإذا كان الواجب على القيادة أن تمنع المسلمين من أن يخوف بعضهم بعضا وأن تردع من يفعل ذلك منهم ، فإن من أوجب الواجبات ألا يكون ذلك منها ولا يصدر عنها ، لأن الخوف يحطم معنويات الناس إذا صدر من إنسان عادى ، فكيف إذا كان من مصدر السلطة وممن بيدهم التحكم فى مصير الناس ومعاشهم ، لا شك أن يكون ذلك أكثر ترويعا ، وأشد تخويفا ، وأن يكون أثره على النفس أعنف وأقسى .

روى صاحب المناقب عن الحسن – رحمه الله – قال : بلغ عمر بن الخطاب – رضوان الله عليه – أن امرأة يتحدث عندها الرجال ، فأرسل إليها .

قال : وكان عمر رجلا مهيبا ، فلما جاءها الرسول قالت : يا ويلها مالها ولعمر ؟ فخرجت فضربها المخاض ، فمرت بنسوة فعرفن الذى بها ، فقدمت بغلام فصاح صيحة ثم طفا – مات – .

فبلغ ذلك عمر – رضى الله عنه – فجمع المهاجرين والأنصار – رضى الله عنهم أجمعين – فاستشارهم – وفى آخر القوم رجل – فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنما كنت مؤدبا وإنما أنت راع .

قال عمر : ما تقول يا فلان ؟

---

(١) الطبرى : ٤ /٢٠ وابن الأثير : ٥٦/٣ وهيكل : ٢٥/٢ .

قال : أقول : إن كان القوم تابعوك على هواك فوالله ما نصحوا لك ، وإن يكونوا اجتهدوا آراءهم فوالله لقد أخطأ رأيهم .

يا أمير المؤمنين ، أما وديته ؟

قال عمر : فعزمت عليك لما قمت فقسمتها على قومك .

قيل للحسن : من الرجل؟ قال : على بن أبى طالب – كرم الله وجهه –[1] .

إن المرأة قد أتت أمرا يخالف ما عرف عن نساء المسلمين ، حيث كان الرجال يجلسون عندها ، ويتحدثون إليها ، ومن حق عمر – أمير المؤمنين – أن يعرف حقيقة هذا الأمر ، فإن كان مخالفا للشرع أو قفه وردع من يعمله ، وإن كان فى الحدود المباحة سكت عنه .

ولم تكد المرأة يبلغها أن عمر يطلبها حتى ألقت جنينها الذى بين أحشائها لخوفها من عمر ، لقد أصابها من الرعب ما أفزعها ، واستولى عليها الخوف حتى أجهضها ، فلما بلغ عمر ما حدث للمرأة علم أن ذلك بسبب ترويعها ، فطيب خاطرها ، وهدأ روعها ، وأعطاها دية جنينها .

وكان يوما يحلقه حالقه فتنحنح ، فأصاب الحالق ذعر جعله يحدث ، وعلم عمر بما جرى للحجام ، فعوضه عن فزعه وما أصابه من الرعب بأربعين درهما[2] .

ولهذا نهى رسول الله ﷺ عن المزاح الذى يسبب الرعب والخوف لأنه وإن كان مزاحا إلا أنه أثر فى نفس من يمزح معه بما نهى عنه الشرع وأوقع الرعب فى قلبه ، وأزال الأمن عن نفسه ، قال ﷺ : « لا يأخذن أحدكم عصا أخيه لعبا ولا جدا ، ومن أخذ عصا أخيه فليردها إليه »[3] .

---

(١) مناقب عمر : ص ١٣٥ .

(٢) مناقب عمر : ص ١٣٤ .

(٣) رواه أبو داود والترمذى .

إن أخذ متاع الرجل عصا أو غيرها من غير علمه يفزعه ، ويدخل على قلبه هما لولا أخذ متاعه ما أصيب به ، وهذا نوع من الترويع الذى يكرهه الإسلام لأن الإنسان عندما يفقد شيئا يملكه ، يفقد معه الأمن الذى كان يرجوه ويتبدد أمله فى الأمان الذى ينبغى أن يتوفر فى المجتمع ، وتتزعزع ثقته فى كل ما حوله .

جاء فى الحديث الشريف أن الصحابة كانوا يسيرون مع رسول الله ﷺ فنام رجل منهم ، فانطلق بعضهم إلى حبل معه ، فأخذه ، ففزع الرجل . فقال رسول الله ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يروع مسلما »(١) .

من هذا نعلم أن الأمن فى الإسلام حق لكل مسلم ولا يجوز لأحد مهما كان حاكما أو مسئولا أن يروع مؤمنا إلا بحق .

ولما كان الأمن بهذه المكانة فى الإسلام جعله الله - عز وجل - مثوبة لمن يخلصون إيمانهم لله الواحد القهار ، قال - تعالى - : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾(٢) .

وبشر به المؤمنين الذين استقاموا على إيمانهم حتى أدركهم الموت ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾(٣) .

إذن هو أمن فى الدنيا يعقبه أمن فى الآخرة ، وأمن الآخرة امتداد لأمن الدنيا ، لأن أمن الدنيا لا يكون إلا لمن آمن بالله ، واستقام على أمره ، وذلك هو الأمن الحقيقى الذى تسعد به النفس ، ويطمئن إليه القلب ، بل هو سر السعادة الحقيقية التى تنبعث من نفس الإنسان ، وتنبع من داخله ، وهو مع تلك السعادة لا تنغص عيشه آلام الدنيا ولا تكدر صفوه متاعب الحياة .

---

(١) رواه أبو داود .
(٢) سورة الأنعام : الآية ٨٢ .
(٣) سورة فصلت : الآية ٣٠ .

فلا يشعر بحاجة مع الفقر ، ولا يحس بألم مع المرض ، يعيش عزيز النفس إذا أذل الحرص أعناق الرجال ، ويقضى كريما إلى ربه يوم يهان المتجبرون الطغاة .

ب - الرخاء :

ومن حق الجنود أن ينعموا بحياة كريمة لا يذلون أنفسهم فيها من أجل لقمة العيش ، ولا يلهثون وراء ما يسدون به رمقهم ، ويسترون به عورتهم ، وليس معنى هذا أن ينغمسوا فى الترف إلى أذقانهم ، أو يرفلوا فى النعيم حتى ينسوا واجبهم ، بل معناه الذى نقصده أن تتوفر لكل فرد فى المجتمع ضرورات الحياة التى تغنيه عن السؤال ، وتفرغه لما يجب عليه القيام به .

إن توفير الطعام لكل فرد واجب من واجبات القيادة ، تقوم به بموجب التبعة التى لزمتها بتصدرها جماعة المسلمين ، وإن توفير الكساء وكل ما يحتاجه المسلمون أمر حتمى يتحمله المسئولون ماداموا قد تحملوا تبعة القيام بأمر المسلمين .

إن الإسلام قد شرع لكل فرد من رعاياه حقوقا ينبغى أن توفرها القيادة القائمة على شئون المسلمين ، فحق المسكن والرعاية ، وحق المركب والزواج ، وحق المأكل والكسوة ، كل هذه الحقوق قد كفلها الإسلام للمسلمين ليضمن لهم حياة كريمة ورزقا رغدا ، يسعهم ويسع من يعولون ، يقول الرسول ﷺ : « من ولى للناس عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليست له زوجة فليتزوج أو ليس له خادم فليتخذ خادما ، أو ليست له دابة فليتخذ دابة »[1] .

وبهذا يمنح الإسلام موظفى الدولة كل الإمكانات التى تكف أيديهم عن أخذ الرشوة ، وتغنيهم عن الاختلاس ، وتمدهم بالطاقات التى تمكنهم من القيام بالأعمال المنوطة بهم من غير كسل ولا تخاذل ، وعندئذ يكون من حق الدولة محاسبتهم إذا قصروا فى العمل أو أهملوا فى الواجب .

وبهذا تتحمل الأمة مسئوليتها ، وتقوم بواجبها نحو رعاياها ، ومسئولية

---

(١) رواه أحمد وأبو داود .

الأمة فى هذا الباب لا تقف عند حد إلا أن يحصّل كل فرد ضرورياته .

والرسول ﷺ يوضح مسئولية الدولة عن رعاياها ، ويوضح جسامة تلك المسئولية حتى إن الدولة لتتحمل ديون الذين ماتوا من رعاياها وعليهم ديون عجزوا عن أدائها ، حيث يقول : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى من المؤمنين فترك دينا فعلى قضاؤه ، ومن ترك مالا فلورثته »(١) .

ويقول ابن حجر - رحمه الله - وهو يذكر مناسبة الحديث للباب : وأراد المصنف بإدخاله فى أبواب النفقات الإشارة إلى أن من مات وله أولاد ، ولم يترك لهم شيئا فإن نفقتهم تجب فى بيت مال المسلمين(٢) .

فالقيادة الإسلامية ملزمة بتأمين سبل العيش لكل فرد يعيش فى كنفها ولو كان من غير المسلمين ، فهى تأمن وسائل العمل للقادرين عليه ، ولكنهم لم يجدوا ما يعملون فيه ، كما أمن الرسول للرجل المحتطب القدوم والحبل وأمره أن يحتطب ، والذى لا مال له تعطيه ما يؤمن له الوسيلة التى يكسب بها رزقه ، وأما العاجزون بسبب الشيخوخة أو علة لا يستطيعون العمل معها فإن الدولة تنفق عليهم من بيت مال المسلمين .

ولقد امتدت تلك المسئولية إلى غير المسلمين الذين كانوا فى حماية الدولة وكنفها حتى إن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - رأى شيخا يطرق الأبواب يسأل الناس فسأله ما ألجأك إلى هذا فقال : أسأل الجزية والحاجة والسن .

قال عمر : من أى أهل الكتاب أنت ؟

قال : يهودى .

فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله ، ورضخ له بشىء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال .

فقال : انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ، ثم نخذله

---

(١) رواه البخارى : ٥١٥/٩ .

(٢) فتح البارى : ٥١٦/٩ .

عند الهرم ، وقرأ قوله – تعالى – : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾[1] .

وقال : الفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب .

ووضع عنه الجزية وعن ضربائه[2] .

وعمر – رضى الله عنه – لم يتصرف مع هذا الشيخ اليهودى بمجرد العاطفة ، ولم يكن ذلك اجتهادا منه فى تلك المسألة ، ولكنه استدل على ما فعل من كتاب الله – عز وجل – حين قال : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ وبين أن الشيخ من مساكين أهل الكتاب ، وهذا يؤيد مسئولية الدولة عن كل من يدب على أرضها مادام يعيش فى حمايتها وكنفها .

روى البلاذرى عن هشام الكعبى قال : رأيت عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قُديدًا ، فتأتيه بقديد ، فلا تغيب عنه امرأة بكر ولا ثيب ، فيعطيهن فى أيديهن ، ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك حتى توفى[3] .

عمر أمير المؤمنين كان يدرك مسئولية الدولة عن توفير الرخاء والأرزاق لكل المسلمين ، وقد دفعه إدراكه لتلك المسئولية الجسيمة أن كان يذهب بنفسه إلى قديد مرة ، وإلى عسفان مرة ليعطى كل ذى حق حقه .

لقد كان فى استطاعة عمر أن يعلن عن يوم لتسليم الناس أعطياتهم ويجلس فى المدينة ، ويأتيه أصحاب الحقوق فيأخذون نصيبهم من مال الله ، نعم لقد كان عمر يستطيع أن يفعل ذلك ويستريح من هذا العناء ، ولكنه قدر أن الناس جميعا ليسوا سواء فى القدرة على الحضور إلى المدينة ليأخذوا حقهم فكان عليه أن يحمله إليهم ، لأن فيهم العاجز والشيخ والعجوز والمخدرة التى لا تستطيع السفر وحدها ، ورأى أن فى تكليفهم بالحضور مشقة قد تقعدهم عن أخذ حقوقهم فيتحمل مسئولية ذلك كله أمام الله – عز وجل – .

---

(١) سورة التوبة : الآية ٦٠ .

(٢) الخراج : ص ١٢٦ .

(٣) فتوح البلدان ص ٤٣٨ .

وقد يقول قائل : لماذا لم يرسل إليهم رجلا يقوم بتسليم الأموال إلى مستحقيها بدلا من أن يحمل هو المال بنفسه ؟

لقد كان بوسعه – رضى الله عنه – أن يفعل ذلك ، ولو فعل لما كان عليه لوم ، ولكنه كان يؤمن بأن أحدا لن يحمل عنه مسئوليته أمام الله ، وسيظل هو مسئولا عنها لو قصر رسوله ولم يقم بالواجب كما يراه عمر ، ولعل هذا هو السبب الذى جعله يرفض أن يحمل عنه مولاه أسلم الدقيق الذى حمله إلى الأطفال الجياع .

فإنه لما أخرج الدقيق والشحم قال لأسلم : إحمل على .

قال أسلم : أنا أحمل عنك .

قال عمر : أنت تحمل وزرى يوم القيامة ، لا أم لك !(1) .

وهذا الشعور هو الذى جعل عمر يركز السلطة كلها فى يده حتى أصبحت حكومته حكومة مركزية كما سبق وأشرت إلى ذلك .

وكان عمر والخلفاء من بعده يؤمنون بحق المسلمين فى المال ، ويؤمنون كذلك بأن القيادة ملزمة بتأمين الرخاء ، والعمل الجاد لزيادة دخل الفرد ، لأن ذلك مما يسعده فى حياته ويكفيه سؤال الناس وإراقة ماء وجهه أمام عتباتهم ، ولهذا كان يقول :

والله الذى لا إله إلا هو ما أحد إلا وله فى هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك ، وما أنا فيه إلا كأحدكم ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله – عز وجل – وقسمنا من رسول الله ﷺ فالرجل وتلاده فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وغناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته فى الإسلام ، والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه (يعنى فى طلبه)(2) .

---

(1) أخبار عمر : ص ٣٤٥ .

(2) الخراج : ص ٤٦ .

فعمر هنا يقرر حق المسلمين فيما يأتى إلى بيت المال ، ويقرر كذلك مسئولية القيادة نحو المال وما يجب عليها حياله ، وذلك حين يقول : والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا الماء وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه .

إن الدولة مسئولة عن توصيل المال إلى مستحقيه وهم فى أماكنهم دون أن تحملهم مشقة الحضور إلى العاصمة لاستلامه ، ولو أنهم حضروا لاستلامه لما كان عليهم بأس ، ولكن عمر يؤكد مسئولية الدولة عن ذلك ، كما يؤكد مسئوليتها عن توفير الرخاء للمسلمين فى أى مكان يكونون .

لم يقف عمر بالعطاء عند حد معين ، مع أنه فرض لكل فرد ما يستحق ولكنه كان كلما زاد المال زاد فى الأعطيات توسيعا على المسلمين ، وإعانة لهم على أداء واجباتهم ، ومتطلبات الحياة التى تجد لهم ، لقد كانت الحياة تنفتح على المسلمين وتأتيهم الفتوحات فى كل يوم بجديد ، ثم من كان يستجد فى حياتهم من المواليد فكان عمر - رضى الله عنه - يواجه ذلك كله بحلول تتناسب مع الوقائع التى كانت تواجههم .

ففرض للقيط - وهو الطفل الذى يوجد ولم يعرف له عائل - فرض له عمر مائة درهم ، وجعل لمن يتولى شئونه وتربيته بقدر ما يصلحه تشجيعا للناس على تربية اللقطاء ، وكان يتدرج باللقيط فيرفع مخصصه سنة بعد سنة[1] .

كذلك كان يفرض للمولود مائة درهم ، فإذا ترعرع بلغ به مائتين فإذا بلغ زاده وهكذا[1] .

وجعل للمجذومين دارا خاصة بهم ، وأجرى عليهم الأرزاق ، لئلا يختلطوا بالناس فيعم بلاؤهم ، وتنتشر عدواهم ، وهو فى ذلك يعمل بقول الرسول ﷺ : « فر من المجذوم كما تفر من الأسد »[2] .

---

(١) فتوح البلدان : ص ٤٣٨ .

(٢) رواه البخارى .

وكان – رضى الله عنه – يزيد فى أعطيات الناس ، ويتمنى لو يبلغ المال عنده قدرا يستطيع أن يفرض فيه للناس على أربعة آلاف ، روى البلاذرى أنه – رضى الله عنه – قال : لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم : ألفاً لسفره ، وألفا لسلاحه ، وألفا يخلفه لأهله ، وألفا لفرسه ونعله[1] .

وكان يسر ويفرح كلما زادت العطايا ، ويزيد سروره بوصول الأعطيات إلى أهلها لأنه كان يرى أنه عبء وضعه عن كاهله ، ولذلك لما قدم خالد بن عرفطة من العراق سأله عمر – رضى الله عنه – عما وراءه .

فقال : تركتهم يسألون الله لك أن يزيد فى عمرك من أعمارهم ، ما وطىء أحد القادسية إلا وعطاؤه ألفان أو خمس عشرة مائة ، وما من مولود ذكر كان أو أنثى إلا ألحق فى مائة وجريبين فى كل شهر .

قال عمر : إنما هو حقهم ، وأنا أسعد بأدائه إليهم[2] .

ولما يبلغه أن بعض عماله أمسك شيئا من المال كان لا يرضى عن ذلك وكان يكتب إليه أن يقسم المال على مستحقيه ، بلغه يوما أن حذيفة أمسك شيئا من المال فكتب إليه ، أن اعط الناس أعطيتهم وأرزاقهم .

قال حذيفة : قد فعلنا ، وبقى شىء كثير .

فكتب إليه عمر ، إنه فيؤهم الذى أفاءه الله عليهم ، ليس هو لعمر ولا لآل عمر ، فأقسمه بينهم[3] .

وأراد أن يعرف كم يكفى العيِّل من الطعام ، فأمر بجريب (قدره سبعة أقفرة) فعجن وخبز ، ثم ثرد فى الزيت ، ودعا ثلاثين مسكينا فأكلوا منه حتى شبعوا ، فلما كان العشاء أمر بمثل ذلك فأكلوا وشبعوا .

فتبين لعمر أن الرجل يكفيه جريبان فى كل شهر ، ففرض للعيِّل جريبين فى الشهر[4] وأمر بأن يحصى عمال أهل العوالى ، وهم قوم كانوا يعملون

---

(1) فتوح البلدان : ص ٤٣٨ .
(2) نفسه : ٤٣٩ .
(3) نفسه .
(4) الخراج : ص ٤٧ .

بالزراعة ، فكان بعد ذلك يجرى عليهم القوت .

وظل الأمر كذلك حتى خلافة عثمان - رضى الله عنه - فوسع عليهم فى القوت والكسوة(١) .

إن الرخاء الذى توفره القيادة للجنود مطلب من مطالب الحياة لا يستغنى عنه مخلوق ، ولو أن الناس يتفاوتون فى طلبه وفى الاستمتاع به ، فمنهم من يطلبه رغدا سهلا ، ويستمتعون به إلى أقصى حد ممكن ، ومنهم من يطلبه قصدا بغير عناء ، ويستمتعون به فى حدود الضرورات وشيئا من المباحات ، ولكنهم جميعا لا يرضون بغير الرخاء ، ذلك لأن الجهد فى طلب الرزق ، والكد فى تحصيل ضرورات الحياة قد يؤدى إلى الذل والصغار .

ولعل هذا هو الذى جعل أمير المؤمنين - على بن أبى طالب - رضى الله عنه - يقول : يكاد الفقر أن يكون كفرا ، وجاء فى الأثر ، بئس الضجيع الجوع .

ولهذا كان الرسول ﷺ يستعيذ بالله من الكفر والفقر يقرن بينهما حتى ليدرك المرء أن الكفر والفقر قرينان لا يقل أحدهما عن الآخر شيئا .

روى عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه : أنه سمع رسول الله ﷺ يدعو بهذه الكلمات ، وذكر منها : اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر(٢) .

كما كان ﷺ يستعيذ بالله من فتنة الفقر فيما رواه الترمذى والنسائى .

جـ - التعليم :

لا يعرف دين سماوى حارب الأمية كما حاربها الإسلام ، ولا يعرف دين جعل طلب العلم فريضة على أتباعه سوى الإسلام ، فالتعليم فى الإسلام ضرورة من ضروريات الحياة ، لا يمكن الاستغناء عنها ، وذلك لأن الجهل آفة مدمرة ، تفتك بصاحبها قبل أن تفتك بغيره ، ومن هنا كان حرص الإسلام على النهوض

---

(١) فتوح البلدان : ص ٤٣٨ .

(٢) رواه أبو داود والحاكم .

بالمسلمين ورفع مستواهم العقلى بالعلم ، والجسمى بالرخاء ، والنفسى بالأمن .

والتعليم حق لكل فرد فى المجتمع الإسلامى ذكرا كان أم أنثى ، وقد حث الرسول ﷺ المسلمين على طلب العلم بقوله : « تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد »(١) .

ولما جاء صفوان بن عسال المرادى – رضى الله عنه – إلى الرسول ﷺ وأخبره أنه جاء يطلب العلم رحب به الرسول وأدناه ، وبشره بأن الملائكة تحب ما جاء يطلبه ، روى الإمام أحمد – رحمه الله – عن صفوان بن عسال – رضى الله عنه – قال : أتيت النبى ﷺ وهو فى المسجد متكىء على برد له أحمر ، فقلت له : يا رسول الله ، إنى جئت أطلب العلم .

فقال : مرحبا بطالب العلم ، إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ، ثم يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب .

وكما يحث الإسلام على طلب العلم ، يحث على الرحلة فى طلبه ، ويجعل الخروج لطلب العلم كالخروج للجهاد فى سبيل الله ، يقول ﷺ : « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع »(٢) .

وليس أدل على منزلة العلم فى الإسلام ، وعلى الأمر بتعلمه ، من قوله – تعالى – : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾(٣) .

وإن نزول الآيات الأولى من القرآن الكريم على رسول الله ﷺ تأمره بالقراءة وهو النبى الأمى ، وتنوه بالعلم فتذكره فى الآيات مع قصرهن ثلاث مرات ، وتصرح بذكر أداة الكتابة وهو القلم لأكبر دليل على احتفاء الإسلام بالعلم ورفعة منزلة العلماء ، يقول الله – تبارك وتعالى – : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ﴾(٤) .

---

(١) الترغيب والترهيب .
(٢) رواه الترمذى .
(٣) سورة المجادلة . الآية ١١ .
(٤) سورة العلق . الآية ١ – ٥ .

والقيادة الإسلامية مسئولة عن تعليم الرعية ، وعليها بذل قصارى جهدها فى توفير المدارس والمدرسين والكتب وكل ما يعين على التعلم ، لأن الإسلام يؤهل أبناءه ليكونوا أساتذة يحملون العلم بأمانة ، ويبذلونه للقاصى والدانى بغير ثمن ، فهم منهيون عن كتم العلم ، لأن كتمان العلم يؤدى إلى تجهيل الناس ، وعدم معرفتهم لأمور دينهم ، ولهذا يقول ﷺ : « من كتم علما ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »[1]

ومن هذا يتقرر أن العلم حق للجميع ، وليس لطائفة دون بقية الناس فالإسلام لا يميز بين الطبقات ، ولا يفرق بين الناس فى طلب العلم .

ولقد غضب ﷺ لما علم أن أناسا من المسلمين عندهم من العلم ما ينفعون به غيرهم ، ثم أمسكوه ، ولم يبذلوه ، فقام فى الناس خطيباً ، وهدد أولئك الذين بخلوا بالعلم ، ولم يعلموا جيرانهم ، وتوعدهم بتعجيل العقوبة .

روى الهيثمى فى مجمع الزوائد تحت باب تعليم من لا يعلم قال : عن علقمة بن سعد عن أبيه عن جده قال : خطب رسول الله ﷺ ذات يوم ، فأثنى على طوائف من المسلمين خيرا .

ثم قال : ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ، ولا يعلمونهم ، ولا يعظونهم ، ولا يأمرونهم ، ولا ينهونهم ، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ، ولا يتفقهون ، ولا يتعظون ، والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعجلنهم العقوبة .

قال قوم : من ترونه عنى بهؤلاء ؟

قال : الأشعريين هم قوم فقهاء ، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب فبلغ ذلك الأشعريين ، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، ذكرت قوما بخير ، وذكرتنا بشر ، فما بالنا ؟

---

(1) رواه ابن حبان والحاكم .

فقال ﷺ : ليعلمن قوم جيرانهم ، وليعظنهم ، وليأمرنهم ، ولينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ، ويتعظون ، ويتفقهون ، أو لأعجلنهم العقوبة فى الدنيا .

قال الأشعريون : يا رسول الله أنفطن غيرنا ؟

فأعاد قوله عليهم .

فأعادوا قولهم : أنفطن غيرنا ؟

فقال ذلك أيضا .

فقالوا : أمهلنا سنة .

فأمهلهم سنة ليفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم[1] .

وهذا الحديث يدل بوضوح على أنه لا يجوز أن يوجد فى المجتمع المسلم فرد أو جماعة غير متعلمين وهنالك من يستطيع القيام بتعليمهم ، إن السكوت على جهل الجاهل مع القدرة على تعليمه جريمة لا ينبغى أن تقرها القيادة الإسلامية ، بل عليها أن تقوم على الفور بمحو جهالة الجهال ، بتعليمهم وتثقيفهم ، وإلا فإنها ستتحمل مسئولية ذلك .

وإن تهديد الرسول ﷺ وتوعده للطرفين على حد سواء ، الذين لم يتعلموا ، والذين عندهم القدرة على التعليم ولم يعلموا ، دليل قاطع على وجوب تعليم كل فرد فى هذه الأمة ، وأن التعليم حق لكل مسلم لا يجوز التغاضى عنه ومن جهة أخرى يدل على أن غير المتعلم يجب عليه أن يبحث عن سبل العلم ، ويسعى إليها ويتقدم لها ، وعلى القادرين على التعليم أن يقدموا أنفسهم للقيادة ، ويبذلوا جهدهم فى تعليم غيرهم ، فإذا لم يفعل أحدهما فهو آثم ، لأن الرسول ﷺ لا يعجل العقوبة فى الدنيا على ترك مباح ، فلو لم يكن تعليم الأمى واجبا لما توعد الرسول الطرفين بتعجيل العقوبة .

ونحن نلاحظ هنا أن الأشعريين قط طلبوا من الرسول أن يمهلهم سنة ،

(١) الترغيب والترهيب ، التراتيب الإدارية ٤١/١ .

وهذا يدل على أنهم سيعلمونهم كل ما يحتاجون إليه ، ولو كانت المسائل التى سيتعلمونها قليلة لما طلبوا هذه المهلة الطويلة .

إن الأشعريين قد أدركوا تقصيرهم نحو جيرانهم ، وأحسوا من كلام الرسول ﷺ أن عليهم واجبا نحو إخوانهم المسلمين يجب عليهم ان يقوموا به ، إنهم قوم فقهاء عندهم من العلم ما ليس عند غيرهم ، فلماذا يبخلون به ؟

والذى يظهر من سياق الحديث أن الأشعريين لم يكونوا يعرفون أن تعليم الجهال ، وتفطين غير المتعلمين واجب عليهم ، ولذلك كرروا قولهم : أنفطن غيرنا ؟

ولكن الرسول كرر الوعيد لهم ليعلمهم أن ذلك واجب عليهم ، وأنهم إذا لم يفعلوا استنزل بهم العقوبة فى الدنيا لا محالة .

وفى الحديث الشريف إشارة واضحة إلى أن على المسلم أن يتفقد إخوانه المسلمين ، ويتعرف أحوالهم فى كل المجالات ، وأن جهله بوضعهم لا يعفيه من المسئولية ، إذ كيف يجهل أحوال جيرانه وهم أقرب الناس إليه ؟

إنه مسئول عمن بات جائعا منهم وهو شبعان ، ومسئول عمن أمسى مريضا وهو معاف ، ومسئول عمن أضحى ملهوفا منهم وهو قادر على إغاثته .

إن الرسول ﷺ يشبه المسلمين جميعا بالجسد الواحد ، إذا تألم منه عضو يتألم لألمه جميع الأعضاء ، فكيف يتحقق دلك ، وهم لا يدرى بعضهم ببعض ؟

يقول الرسول ﷺ : « حق الجار إن مرض عدته ، وإن مات شيعته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن أعوذ سترته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، ولا ترفع بناءك فوق بنائه فتسد عليه الريح ، ولا تؤذه بريح قدرك إلا أن تغرف له منها »[1] .

والحديث من هذا الطريق وإن ضعفه بعض المحدثين إلا أن له طرقا أخرى ، وأحاديث كثيرة جاءت بهذه المعانى تشد أزره وتقويه .

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير ورمز له السيوطى بالضعف .

وحق التعليم أوجب من هذه الحقوق ، فإن الرسول ﷺ قد ذكر هذه الحقوق ، ولم يتوعد على تركها ، وأما حديث علقمة الذى تناول التعليم والتفقيه فقد توعد الرسول فيه من لم يتعلم ، ومن لم يعلم مع القدرة بتعجيل العقوبة فى الدنيا كما أسلفنا .

وقد اتبع الإسلام أساليب شتى ليحقق بها الغاية التى يدعو إليها وهى إشاعة التعليم ومحو أمية الأميين ، فلم يكتف بالحث على التعليم ، ولم يقف عند حد الترغيب فيه ، بل لم يرض أن يكون منتهى ما يقدمه فى ذلك الوعد بالثواب العظيم والأجر الكبير للعلماء وطلبة العلم ، ولكنه اتخذ خطوات عملية ليصل بها إلى الغاية التى ينشدها .

إن الرسول ﷺ قد عامل أسرى بدر – وهم أول أسارى فى الإسلام – معاملة فريدة ، فقد منَّ على بعضهم ، وفادى بعضهم بالمال وقتل بعضهم ، وأما من كان يقرأ ويكتب منهم فقد جعل فداءه أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة[1] .

ونحن نلاحظ هنا أن الرسول ﷺ لم يطلب منهم مالا مع شدة حاجة المسلمين إليه ، بل هم فى الحقيقة لم يخرجوا فى تلك الغزوة إلا للاستيلاء على المال ، ولكن لأن الإسلام يعتبر العلم والتعليم أغلى قيمة من المال فقد جعله الفداء لكل من يستطيع تعليم غيره .

والإسلام بذلك يرفع قيمة العلم ، ويقدر العلماء ، ويكون مع هذا قد اتخذ خطة عملية إيجابية لتعليم المسلمين ومحو أميتهم ، والمسلمون يعتبرون روادا فى هذه الباب حيث لم يسبقهم إليه أحد ، بل ربما كانوا هم الوحيدون الذين استعملوا هذا الأسلوب لرفع نسبة المتعلمين ومحاولة القضاء على الأمية بين صفوف المسلمين .

كان هذا والمسلمون لا يزالون فى المدينة لم يمتد نفوذهم إلى أبعد منها بعد

---

(٢) الروض الأنف : ٢٤٥/٥ .

فلما توالت الفتوح ، وانتشر الإسلام ، وأصبحت شبه الجزيرة كلها أو جلها خاضعة للمسلمين والى المسلمون جهودهم لنشر العلم بين السكان .

فأرسل الرسول ﷺ رسلا إلى الأقاليم ليعلموا الناس ويحفظوهم القرآن ، ويفقهوهم فى الإسلام ، وكان أول من أرسله وهو لا يزال فى مكة وبعد بيعة العقبة الأولى مصعب بن عمير – رضى الله عنه – بعثه مع من قدم من أهل المدينة ليعلمهم ويفقههم(١) .

وكان يعلم المسلمين فى المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ والمسلمين إليها رجال من الصحابة منهم عبادة بن الصامت ، وأبان بن سعيد بن العاص ، وأبو عبيدة بن الجراح(٢) – رضى الله عنهم – ولما فتحت مكة أرسل الرسول إليها معاذ بن جبل – رضى الله عنه – يفقه الناس ويعلمهم أمور دينهم ، ويقرؤهم القرآن ، ثم بعثه إلى اليمن قاضيا على الجنَد ، يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام(٣) .

وأرسل ﷺ عمرو بن حزم الخزرجى إلى نجران ليعلمهم ويفقههم ويأخذ صدقاتهم(٤) .

فلما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وقام خلفاؤه من بعده واصلوا المسيرة ، وبعثوا المعلمين إلى كل الجهات التى فتحها المسلمون ، توجه المعلمون إلى الكوفة وإلى البصرة وإلى دمشق وإلى حمص وإلى فلسطين وإلى مصر .

ونحن لا ندعى أن هذه البلاد لم يكن فيها علم ، ولم يكن فيها علماء ، بل بالعكس فإن هذه البلاد مهد للحضارات القديمة ، وكان فيها فى ذلك الحين فنون وعلوم لم يعرفها المسلمون إلا بعد أن فتحوها .

بل نحن نقصد بإرسال المعلمين إليها تعليمهم مالم يكونوا يعرفوه من أمور

---

(١) سيرة ابن هشام : م١ /٤٥٧ .
(٢) التراتيب الإدارية : ٤٠/١ .
(٣) الاستيعاب حاشية الإصابة : ٣٥٦/٤ .
(٤) نفسه : ٥١٧/٢ .

الدين وشئون الدعوة التى كان المسلمون يحملونها إلى كل مكان توجهوا إليه ، وكانت بالنسبة لهم شيئا جديدا لم يسبق لهم معرفته .

توجه عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – إلى الكوفة ، بأمر من عمر بن الخطاب – رضى الله عنه –ليعلم الناس هناك ويفقههم فى الدين ، فكان يعلم الناس القرآن ، ويفسره ، ويروى أحاديث سمعها من رسول الله ﷺ ويفتى مستنبطا الأحكام من الكتاب والسنة ، أو يجتهد رأيه إذا لم يكن نص من كتاب ولا سنة .

وقد تتلمذ على يد ابن مسعود رجال قاموا بالتدريس بعده ، قال فيهم سعيد بن جبير – رحمه الله – : كان أصحاب عبد الله سرج هذه القرية[1] .

وكما كان ابن مسعود فى الكوفة ، كان أبو موسى الأشعرى بالبصرة ، ولاه عمر عليها فكان واليا ومعلما ، يعلم الناس أمور دينهم ، ويفقههم فى كتاب ربهم ، وكان عمر يكبر علمه ، ويعتز بإخلاصه ، فقد روى أن أنس بن مالك – رضى الله عنه – لما قدم إلى المدينة من البصرة سأله عمر ، كيف تركت الأشعرى ؟

قال أنس : تركته يعلم الناس القرآن .

قال عمر : إنه كبير ، ولا تسمعها إياه[2] .

كان عمر – رضى الله عنه – يهتم بكل الأقاليم ، ويرسل إليهم الدعاة والمعلمين ، أرسل إليه يزيد بن أبى سفيان والى الشام يخبره بأن أهل الشام فى حاجة إلى من يعلمهم ويفقههم .

فاختار عمر ثلاثة من خيرة الرجال وبعثهم إلى الشام معلمين وهم : معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء عويمر بن عامر[3] .

---

(1) فجر الإسلام ص ١٨٤ .
(2) فجر الإسلام : ١٨٥ .
(3) الإصابة : ٢٦٨/٢ .

. فأما عبادة فقد استقر فى حمص ، وأما أبو الدرداء فقد أقام بدمشق ، وتوجه معاذ نحو فلسطين ، وتولى كل منهم تعليم الناس وتهذيبهم فى البلد الذى نزل فيها[1] ، ثم توجه عبادة إلى فلسطين وظل بها يعلم حتى مات[2] .

وفى مصر كان العالم المحدث الفقيه عبد الله بن عمر بن العاص - رضى الله عنهما - أقام فى مصر أيام ولاية أبيه عليها ، وكان لا يألو جهدا فى تعليم الناس وتهذيبهم ، ولعله كان كذلك لأنه كان يدون ما يسمعه من رسول الله ﷺ حتى كانت له صحيفة يسميها الصادقة .

قال مجاهد : رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة ، فسألته عنها .

فقال : هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله ﷺ ليس بينى وبينه فيها أحد[3] .

وكان عبد الله - رضى الله عنه - كثير القراءة يضطلع فى كتب السابقين وكان يقرأ بالسريانية ، روى عنه ابن حجر أنه كان يقرأ التوراة[4] .

وهذا يدل على علم غزير ، وسعة أفق ، استفاد منه كل من استمع إليه ، وأخذ عنه ، فكان بحق مؤسس المدرسة المصرية فى العلوم الشرعية .

وهكذا نرى أن العلماء المسلمين قد انتشروا فى أصقاع الأرض التى فتحوها ، وطوفوا بالبلاد فلم يتركوا أرضا إلا غمروها بعلمهم ، وكان كثير منهم يتنقلون بين هذه البلاد ليعلموا أهلها ، أو يتلقوا العلم على من نبغ من أهلها .

وكان العلم فى تلك الفترة يأخذ الصبغة الدينية ، لأن هذه البلاد كانت قريبة عهد بالإسلام ، وكان الذين يدخلون فى الإسلام من أهلها عددا غير قليل ، وكانوا فى حاجة لأن يتفقهوا فى الدين ، ويتعلموا حلاله وحرامه ، وفى الوقت نفسه كان المعلمون الذين يتولون تعليمهم ، لم يكن لديهم من العلم ما يهتمون به

---

(١) فجر الإسلام : ١٨٨ .
(٢) الإصابة : ٢/٢٦٨ .
(٣) فجر الإسلام : ١٩٠
(٤) الإصابة : ٢/٣٥٢ .

مثل العلوم الدينية ، لأنهم كانوا يؤمنون بأن هذا هو العلم الذى يجب على المسلم أن يتعلمه ، فإذا أتقنه فلا بأس بأن يتعلم بعد ذلك ما يشاء .

ولا يستطيع أحد أن يقول بأن الإسلام لم يحض بل لم يهتم إلا بالعلم الدينى فقط لأن واقع المسلمين ، ونبوغهم فى علوم شتى يناقض ذلك ويأباه ، ونحن نلاحظ أن كلمة العلم التى وردت فى القرآن الكريم والسنة الشريفة ليس وراءها ما يفيد بأن المراد بها العلم الشرعى ، بل وردت مطلقة لتشمل كل علم يعود نفعه على الناس .

ولهذا فإننا نجد فى تاريخ المسلمين أنه بعد أن استقرت الأمور ، وتعلم الناس الحلال والحرام ، بدأ المسلمون يبحثون فى علوم وفنون مختلفة كعلوم الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء والبصريات وغيرها كالرياضيات بأنواعها وأنهم نبغوا فى ذلك نبوغا لم يسبق له مثيل(١) .

وهذا دليل على أن الإسلام لم يمنع شيئا من العلم مادام نافعا مفيدا ، ولم يمنع أحدا من المسلمين أن يبحث فى أى علم شاء مادام يعود نفعه على الناس ، ويكفينا أن نذكر فى هذا المقام قول الله - تبارك وتعالى - : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾(٢) .

فالآية الكريمة ذكرت جملة من العلوم : علم النبات ، وعلم طبقات الأرض وعلم الإنسان والحيوان ، ثم ختمت بقوله - عز من قائل - : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ لأنهم يدركون من دراسة هذه العلوم وغيرها عظيم قدرة الله ، وجليل تدبيره ، وتكون معرفتهم له - جل شأنه - على قدر علمهم به ، وعلى قدر علمهم تكون خشيتهم له - جل ثناؤه وتباركت أسماؤه - تبارك الله أحسن الخالقين .

---

(١) يراجع فى ذلك كتاب العلم عند العرب للكاتب الإيطالى اليدوميلى .
(٢) سورة فاطر : الآية ٢٧ - ٢٨ .

إن المتتبع لتاريخ الحركة العلمية عند المسلمين يلاحظ أنهم بذلوا جهودا خارقة للعادة لمحو أمية الأميين ، وتفقيه غير المتفقهين ، وقد استمرت تلك الحركة دائبة غير وانية يتلقاها الخلف عن السلف ، ويزيدوا عليها ، ويضيفوا إليها ، ويبدعوا فيها حتى كانوا رواد الحركة العلمية العالمية فى تلك الفترة من الزمان كما شهد بذلك المنصفون من المستشرقين وغيرهم .

ولقد كانت جهودهم فى جزيرة العرب ملموسة أكثر منها فى غيرها حيث كانت الأمية سائدة ، بل كانت هى السمة الغالبة على السكان ، فقد ظهر الإسلام فى مكة ، ولم يكن فيها سوى سبعة عشر رجلا يكتبون ويقرأون ، وقد عدهم البلاذرى بأسمائهم كما كان فى المدينة عند دخول الإسلام إليها أحد عشر رجلا ، عدهم البلاذرى بأسمائهم كذلك[1] .

وهذا دليل على قلتهم وندرتهم ، إذ لو كانوا كثرة لما استطاع أحد أن يحصيهم بأسمائهم فى كتاب ، يقول الكتانى نقلا عن الهورينى المصرى : لم تكثر الكتابة العربية فى المدينة إلا بعد الهجرة النبوية بأكثر من سنة ، وذلك أنه لما أسرت الأنصار سبعين رجلا من صناديد قريش وغيرهم فى غزوة بدر السنة الثانية من الهجرة ، جعلوا على كل واحد من الأسرى فداء من المال .

وعلى كل من عجز عن الافتداء بالمال أن يعلم الكتابة لغيره من صبيان المدينة ، فلا يطلقونهم إلا بعد تعليمهم ، فبذلك كثرت فيهم الكتابة ، وصارت تنتشر فى كل ناحية فتحها المسلمون فى حياته ﷺ وبعده حتى بلغت عدة كتابه ﷺ اثنين وأربعين رجلا[2] .

لقد سجل المؤرخون أن عدد الذين كانوا يكتبون ويقرأون فى مكة المكرمة والمدينة المنورة لا يزيدون على ثمانية وعشرين رجلا كما سبق سبعة عشر فى مكة أحد عشر فى المدينة ، ونحن بعد ذلك أمام عدد من كتاب الوحى تجاوز لأربعين ، ولا شك أن هناك عددا آخر يقرأون ويكتبون ولم يحصوا ضمن كتاب

---

(١) فتوح البلدان : ٤٥٧ ، ٤٥٩ .
(٢) التراتيب الإدارية : ٤٨/١ ، ٤٩ .

الوحى ، بل إن الذى يتصوره العقل أن يكون كتاب الوحى هم صفوة الكتاب ، وأن غيرهم يكون أكثر عددا منهم .

وبهذه المقارنة الواقعية ندرك مدى الجهد الذى بذله المسلمون فى تطوير الحركة العلمية فى شبه الجزيرة العربية ، ومدى التقدم فى هذا الجهد على تضاعف عدد الكتاب فى تلك الفترة المحدودة .

ولقد استجاب المسلمون لدعوة الإسلام إلى التعليم ، وحرصوا على أن ينهلوا من معين الدعوة ليتفقهوا ، ثم يحملوا العلم إلى غيرهم ممن هم فى حاجة إليه ، حتى كان الرجل يأتى إلى الرسول ﷺ ويطلب منه أن يدفعه إلى معلم جيد يعلمه ويؤدبه .

أخرج ابن عساكر عن أبى ثعلبة قال : لقيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، ادفعنى إلى رجل حسن التعليم .

فدفعنى إلى أبى عبيدة بن الجراح .

ثم قال : دفعتك إلى رجل يحسن تعليمك وأدبك[1] .

هذه هى أهم حقوق الجنود ، ولم أرد هنا الحصر كما ألمحت إلى ذلك سابقا وهى كما رأينا حقوق قررها الإسلام ، وأوجبها على القيادة ، لا يستقيم وضع الأمة بغيرها ، ولا يستتب النظام بدونها ، ذلك لأن الأمن ضرورى لكل فرد ، إذ هو أساس الأوضاع النفسية التى يعيشها الإنسان ، فالأمن من أهم عوامل الاستقرار فى حياة الفرد والجماعة ، لأن فقدانه يورث الخوف والهلع ، ويسبب الاضطرابات النفسية ، وحينئذ لا يستطيع أولئك الذين فقدوا الأمن أن ينتجوا فى أى جانب من جوانب الحياة ، فيتوقف المد الحضارى ، ويتعطل ركب المدنية ، وهذا هو السبب الحقيقى فى حرمان الأمم التى يفقد أفرادها الأمن من مسايرة ركب التقدم والإبداع فى مجالات العلوم المختلفة ، وفقدان الأمن فى هذه الدول هو الذى يضعها فى صفوف الدول النامية مهما ملكت من أسباب التقدم والتطور من القوى المادية والبشرية والفكرية .

---

(١) نفسه : ١/٤٠ - ٤١ .

والرخاء هو التقدم فى الجانب الاقتصادى لأمة من الأمم ، فهو إذن مرتبط بالأمن ارتباطا حقيقيا ، بل هو نتيجة إيجابية لسيادة الأمن والطمأنينة واستمتاع الناس بهما ، ولهذا فإن الدولة التى يسودها الرخاء ، ويعم أفرادها تكون دولة قد أخذت حظها وافرا من الأمن النفسى الذى يدفعها إلى مزيد من الإنتاج ، وبالتالى إلى مزيد من الرخاء .

والتعليم صنو الرخاء ، لا يثمر ، ولا يكون نافعا مفيدا إلا إذا رافقه الأمن النفسى ، قد يحفظ الناس كثيرا من العلوم ، وقديتقنون كثيرا من الفنون ولكنهم يكونون نسخا مما يحفظون ، وصورا مما يتقنون ، وليس هذا هو المقصود بالتعليم ، إذ المقصود الحقيقى هو الإبداع والابتكار ، ومعرفة كيفية الاستفادة من هذه العلوم ، وذلك لا يتأتى إلا فى ظل أمن وارف تشعر فيه النفوس بالاستقرار ، وتجد فيه العقول ما يدفعها إلى الإبداع والابتكار .

العلاقة بين القيادة والجندية

من أهم أسباب تعمير الأمم واستمرارها فى حمل رسالتها ، وتأدية أمانتها العلاقات الطيبة التى تربط بين القيادة والجندية ، فالقيادة الناجحة هى التى توجد المناخ المناسب الذى تعيش فيه مع الجنود كأسرة واحدة يسودها التفاهم ، ويغمرها الحب ، ويسيطر عليها التناصح ، يحترم فيها الصغير الكبير ، ويرحم الكبير الصغير .

والمناخ المناسب فى الدولة الإسلامية هو العقيدة الصحيحة التى توطد الروابط بين أفرادها حكاما ومحكومين ، فالعقيدة هى الرباط الروحى الذى لا تنفصم عراه ، ولا تستطيع أية قوة على ظهر الأرض أن تنال منه ، لأنها رباط إلهى لا تقوى يد البشر على التصدى له ولو حاولت لارتدت إلى صاحبها كليلة عاجزه .

إن هذا المناخ الروحى الذى تعيش فى رحابه الدولة الإسلامية هو سر قوتها ، وسبب انتصاراتها التى أدهشت العالم ، وأعجزت المفكرين عن تعليل الفتوحات الهائلة التى حققها المسلمون فى فترة لا تتجاوز عمر شاب فى الثلاثين .

لقد نجحت الحكومة الإسلامية فى أن تعيش مع رعاياها فى هذا المناخ فحققت هذه المكاسب الضخمة بعدد قليل من الرجال ، وفى فترة وجيزة من الزمان .

ولقد كان يعاصر الحكومة الإسلامية حكومتان من أقوى الحكومات التى عرفتها الدنيا فى حينها ، ولكنها لم تستطع أن تحقق لرعاياها ما حققته الحكومة الإسلامية ، بل لقد فشلت فى مواجهة هذه الحكومة الفتية الناشئة ، وعجزت عن إيقاف زحفها المقدس على ممتلكاتها ، فألقت لها مقاليد أمرها ، وولت هاربة إلى غير رجعة ، وورثت هذا الملك العريض من بعدها دولة الإسلام .

وإذا أراد الإنسان أن يقف على أسباب هذا الانهيار الذى أصيبت به دولتا الفرس والروم وجد أمامه سببين رئيسيين **الأول** : فساد العقيدة أى فساد المناخ الذى يعيش فيه الناس هناك ، **الثانى** : التميز الصارخ بين الحكام الذين كانوا يعيشون فى أبراج عاجية لا يختلطون بالناس ، ولا يعرفون مشكلاتهم ، ولا يشعرون بآلامهم ، والرعايا الذين كانوا مرهقين بالضرائب الباهظة ويئنون تحت وطأة الفقر المدقع والمرض الموجع دون أن يجدوا من يخفف عنهم أو يواسيهم فى آلامهم .

إن هاتين الدولتين كانتا تملكان كل أسباب القوة المادية : السلاح ، الرجال ، المال ، والتنظيم والإدارة ، ولكنهما تجردتا تماما من أسباب القوة المعنوية التى هى فى الحقيقة العامل الأساسى فى التقدم والفوز فكان ذلك هو سر انهيارهما .

لقد استطاعت القيادة الإسلامية أن تأخذ نفسها بالمبادىء التى تفرضها عقيدتها ، وأن تلزم رعاياها بالسير على منهاجها ، فأوجدت بذلك المناخ المناسب الذى يعيش فيه الناس سواسية كأسنان المشط ، وأتاحت الفرصة للتلاحم بين القيادة والجنود فقامت العلاقات بينهما على الأسس الآتية :

١ - التعاون :

وهو أساس متين من أسس المجتمع الإسلامى أمر به الله - عز وجل -

فقال : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾(١) والمقصود بالتعاون بذل العون من القيادة برعاية مصالح الجنود بحفظ أسرهم فى غيابهم للجهاد فى سبيل الله أو سفرهم للتجارة ، وبذل العون من الرعية للقيادة بتسديدهم ومعاونتهم على القيام بمهامهم .

وهذا هو الأصل فى العلاقات بين الراعى والرعية ، وهذا لا يتحقق إلا إذا توفرت الثقة بين الطرفين بحيث يشعر كل منهما بأنه لا يستغنى عن الآخر ، وأنه فى حاجة إلى عونه ومساعدته .

٢ - المحبة :

وهى الأصل الذى يرتبط به المسلمون فى مجتمعهم ، والرسول ﷺ يصور تلك الرابطة بقوله : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »(٢)

والمحبة يجب أن تتحقق بين القيادة والجندية ، ألم تسمع قول الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل - رضى الله عنه - : « يا معاذ ، والله إنى لأحبك »(٣)

والرعية كانت تبادل القيادة ذلك الحب ، فهذا زيد بن الدَّثنة ابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف الذى قتل يوم بدر ، فلما قدِّم زيد للقتل قال له أبو سفيان بن حرب · أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمدا عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه ، وأنت فى أهلك ؟

قال زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإنى جالس فى أهلى .

قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا(٤) .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٢ .
(٢) رواه مسلم
(٣) رواه أبو داود والنسائى
(٤) سيرة ابن هشام : م٢ /٩٧٢ .

٣ التناصح :

والتناصح ضد الغش ، والرسول ﷺ تبرأ من الغش بقوله : « من غشنا فليس منا »(١) والغشاش لا يصلح فردا من أمة تحترم نفسها ، والعلاقات التى تبنى على الغش والخديعة علاقات فاسدة مفسدة ولهذا رفضها الإسلام ، أخبر الرسول ﷺ أن العلاقات بين أفراد الأمة الإسلامية قائمة على التناصح حين قال : « الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال ﷺ : لله ولكتابة ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »(٢) .

فالنصيحة لأئمة المسلمين تكون من الرعية ، والنصيحة لعامة المسلمين تكون من بعضهم لبعض ، وتكون من القيادة للجنود .

وعلى هذا تكون النصيحة ، متبادلة بين الرعية والرعاة فيبذل كل من الطرفين جهده فى نصيحة الآخر ، ومن التناصح بين الراعى والرعية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذا هو منتهى الإخلاص لأن من رأى شخصا على منكر ونهاه عنه يكون قد أنقذه من شر وقع فيه ، ومن رأى شخصا ترك معروفا وأمره به يكون قد دله على خير يعود عليه نفعه .

وبهذا يتحقق المعنى السامى الذى قصده الرسول ﷺ فى قوله الكريم : « أحب للناس ما تحب لنفسك »(٣) .

٤ - العدالة :

والمقصود العدل بين الناس عامتهم وخاصتهم ، ولا يخص بذلك طائفة دون طائفة . والله - عز وجل - قد أمرنا بالعدل قال - تعالى - : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾(٤) .

وبالعدل قامت السماوات والأرض ، والعدل هو الميزان الذى توزن به أعمار الأمم ، فكلما طال عمر أمة من الأمم فاعلم أن ذلك بسبب إقامة العدل

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه الحاكم والطبرانى فى الكبير .
(٤) سورة النحل : الآية ٩٠ .

فيها ، فالعدل يعمر ، والظلم يدمر

وكما أمر الله المسلمين جميعا بإقامة العدل فيما بينهم ، أمر نبيه ﷺ بإقامة العدل بين الرعية ، قال - عز من قائل - : ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾(١) .

والعدل ينبغي أن يتحقق بين الناس مهما كان أحد الخصمين عدوا أو صديقا ، ولهذا لما اتهم يهودى بسرقة هو برىء منها نزل القرآن الكريم يبرىء ساحته ، ويشير بأصبع الاتهام إلى السارق الحقيقى وهو أحد المسلمين من الأنصار ، وفى هذا يقول الله - تبارك وتعالى - : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ، لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما ﴾(٢) .

وقد حققت القيادة مبدأ العدل التام بين أفراد الأمة المسلمة الحاكم منهم والمحكوم على حد سواء ، روى ابن هشام أن رسول الله ﷺ وهو يعدل صفوف أصحابه يوم بدر ، رأى سوّاد بن غزية بارزا عن الصف فطعنه فى بطنه بقِدْح كان فى يده ، وقال : استو يا سواد .

فقال سواد : يا رسول الله ، أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقدنى .

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه ، وقال : استقد فاعتنقه سواد فقبّل بطنه .

فقال ﷺ : ما حملك على هذا يا سوّاد ؟

قال : يا رسول الله ، حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك ان يمس جلدى جلدك .

فدعا له الرسول ﷺ بخير(٣) .

هذه هى أهم الأسس التى قامت عليها العلاقة بين القيادة والجندية فى الإسلام ، وقد كانت حقائق ملموسة لا أحلاما وأمانى ولذا حققت غايتها .

---

(١) سورة الشورى : الآية ١٥ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٠٥ .

(٣) ابن هشام : م١ /٦٢٦ .

وسائلنا لتحقيق النصر

أحب أن أنوه هنا وقبل نهاية هذا البحث الذى أرجو أن ينفع الله به الكاتب والقارىء أن أذكر الوسائل التى تمكننا من تحقيق النصر على أنفسنا أولا وعلى أعدائنا ثانيا .

وأقول على أنفسنا أولا لأن الانتصار على النفس هو بداية الطريق إلى النصر على أعدائنا ، وتلك حقيقة لا يمارى فيها إلا معاند فإذا عجز الإنسان عن الانتصار على نفسه التى بين جنبيه يكون عجزه عن الانتصار على عدوه أشد ، والانتصار على النفس يكون بإخضاعها لأوامر الله ، وإلزامها جانب الطاعة وإبعادها عن المعاصى التى تحول بينها وبين السمو الروحى والاتصال بالملأ الأعلى الذى هو مصدر عز المسلمين وانتصارهم :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

والانتصار على النفس يكون بتحويلها عن العبث واللهو والفساد إلى الاتجاه الصحيح والجد والإصلاح ، وذلك هو معنى قوله – تعالى – : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[1] .

فالوسيلة الأولى من وسائل تحقيق النصر أن نتجه إلى أنفسنا ، وأن نصلح ما فسد منها ، ونعيدها إلى بارئها بريئة من الشرك ، طاهرة من الدنس ، مخلصة له الدين ، متحررة من العبودية لغيره – جل شأنه – فلا تخاف إلا هو ، ولا ترجو غيره ، ولا تركن إلى سواه ، ولا تستمد النصر إلا منه .

---

(١) سورة الرعد : الآية ١١ .

لا تعتمد على قوتها لأن قوتها عارضة ، ولا تعتز بكثرة الجنود لأنهم لن يغنوا عنها من الله شيئا ، ولا تفتخر بسلاحها لأن سلاحها بغير نصر الله مغلول ، ولا تركن إلى حسن تدريبها ، لأنه بغير تأييد الله مهزوم ، وهى بعد ذلك كله تعتقد أن النصر من عند الله وأن العدد والعُدد والتدريب والسلاح أسباب فقط أمرنا باتخاذها فأطعنا ﴿ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾[1] .

ذلكم هو الأساس الذى يجب أن نبدأ به إذا كنا نريد حقا أن نسلك سبيل النصر ، ويلى ذلك أمور لابد منها نلخصها فيما يأتى :

أ - التربية والإعداد :

والمراد هنا تربية الناشئة تربية إسلامية صحيحة ، نغرس فيهم الفضائل ، وننشئهم على الاعتزاز بدينهم ، وحب أوطانهم ، وبغض كل ما يرد عليهم من خارج يئتهم مما ليس فيه فائدة ونبذ العادات السيئة والتقاليد المستوردة .

إننا إذا لم نرب شبابنا على ذلك ، ونريد منه أن يحقق النصر على عدوه يكون مثلنا كمن ينفخ فى رماد يريد أن يتحول إلى جمر ينضج به شواءه ، وهيهات ثم هيهات .

كيف يحارب الشباب قوما أولع بهم ، وتغنى بأمجادهم ، وقلدهم فى ملبسه وهيئته ، وأقواله وأفعاله ؟

إن التقليد نتيجة حتمية لحبه لهم واعتزازه بهم ، ومن أكذب ممن يدعى أنه سيحارب أستاذه الذى أخلص له ، ويقتل حبيبه الذى أفنى عمره فى اتباعه ، إنها والله فرية لا يقولها عاقل ، ولا يصدقها إلا مجنون .

إن الشباب فى كل عصر وفى كل جيل هم عمد الأمم ، ومحط آمالها ، ودعائم بنيانها ، فلابد أن نربى هذا الشباب على حب عاداتنا وتقاليدنا ، وبغض عدونا ، واحتقار عاداته السيئة .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ١٠ .

وعلينا أن نغرس فى نفوسهم أن التقليد الأعمى مضر ، وأن المقلد يكون عادة ضعيف النفس ، خائر العزيمة ، ليس له من قوة الإرادة ما يجعله يعتز بقيمه وتقاليده .

يجب أن يعلم شبابنا أنه خلق ليقود لا لينقاد ، وأنه ولد أستاذا لا تلميذا ، وأن من أهم صفات القائد أن يكون رأسا لا ذنبا ، ومن أبرز صفات الأستاذ أن يكون رائدا يوجه غيره بآرائه السديدة ، وأفكاره الرشيدة .

يا لضيعة أمة ألقى حبلها على غاربها ، وانفلتت تضرب فى الأرض على غير هدى ، حتى بلغ بها الضياع أن هانت على نفسها ، واحتقرت عاداتها ، وأولعت بحب عدوها ، وذلك أبشع أنواع الذل والهوان .

قال الشاعر :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها
هوانا بها كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكن
عليك بها فاطلب لنفسك مسكنا

ويقول أبو الطيب :

من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت إيلام

والتربية فى الإسلام تقوم على أساسين هامين وهما :

١ - الجانب الدينى .

٢ - الجانب الأخلاقى .

وقد أشار إلى هذين الجانبين الحديث الشريف « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين ، وفرقوا بينهم فى المضاجع »[1] .

---

(١) رواه أحمد فى المسند .

فالجانب الدينى ينص عليه الحديث « مروا أولادكم بالصلاة » والجانب الأخلاقى يشير إليه الحديث « وفرقوا بينهم فى المضاجع » .

وكما تضمن الحديث الشريف أسس التربية تضمن كذلك أساليبها وتتلخص فى أمرين :

الأول : التوجيه والنصح وهما الأمر والنهى « مروا أولادكم » .

والثانى : الزجر والردع ولا يكون ذلك إلا بعد سن العاشرة ويشير إليه الحديث الشريف « واضربوهم عليها لعشر » .

ولقد بلغ حرص المسلمين على تربية أبنائهم ، ورعاية شبابهم أن كان الرجل منهم يصحب ولده إلى الأماكن التاريخية الهامة ويوقفهم على أمجاد آبائهم وأجدادهم ، ويلقنه أحداثها الهامة حتى تنطبع فى نفسه ، وترسخ فى عقله ، فينشأ على حب بلاده ، ويعيش محترما لتقاليده ، معتزا بتراثه يقول أحدهم : إن كنا لنروى أبناءنا الغزوة من الغزوات ، كما نعلمهم الآية من القرآن .

ولقد كانت التربية الإسلامية مكتملة شاملة تهتم بالجسد بقدر اهتمامها بالروح ، وتعتنى بالعقل كما تعتنى بالأخلاق ، فقويت أجسامهم ونمت عقولهم ، وذكت أخلاقهم ، وسمت أرواحهم ، فتعلقت بما عند الله ، وهانت عليها الدنيا فلم تبهرهم زخارفها ، واشتاقوا إلى الجنة وبذلوا فى سبيلها المهج والأرواح ، وتنافسوا على الموت فى سبيل الله غير هيابين فكانوا كما قال فيهم القائل : رهبان بالليل فرسان بالنهار .

ب - جلب السلاح وإعداده :

ونحن مأمورون بذلك من الله - تعالى - فى قوله - جل من قائل - : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾[1] .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٠ .

والآية الكريمة تنص على أن إعداد السلاح يكون بقدر طاقتنا ، ومعنى هذا أنه لا يجب علينا ألا نكون مثل عدونا تماما فى كل ما يملك من الأسلحة والعتاد ، لماذا ؟

أولا : لأننا لو انتظرنا أن نكون مثل عدونا فى كل ما يملك لن نتمكن من ذلك أبدا ، فكلما ازددنا من السلاح كلما ازداد العدو كذلك ، ومعنى هذا أننا سندخل فى سباق لا نهاية له .

ثانيا : لأننا موعودون بالنصر من الله مهما كان سلاحنا متى خلصت نياتنا ، وأدينا ما يجب علينا .

ثالثا : إن وقائع التاريخ تشهد لنا ، فلم يكن المسلمون فى معركة من المعارك متكافئين مع عدوهم لا من حيث العدد ، ولا من حيث العدد ، ومع ذلك كان النصر دائما حليفهم ، والمعركة الوحيدة التى تكافئوا فيها مع عدوهم واعتملوا على قوتهم وكثرتهم انهزموا فيها للجولة الأولى ، وهى معركة حنين .

فالسلاح لم يجلب للمسلمين النصر ، والعدد الكثير لم يجنبهم الهزيمة ، ولكن النصر على الحقيقة من عند الله ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾[1] .

جـ – تدريب الجنود على السلاح :

إلى جانب التربية والإعداد ، إلى جوار جلب السلاح وإعداده ، يجب أن يتدرب الجنود على السلاح .

إن الاكتفاء بتربية الجنود جسميا وعقليا وروحيا لا يكفى لخوض معركة مع أعداء الإسلام ، وإن جلب السلاح مهما كان متطورا لا يؤدى إلى هزيمة الأعداء ، لأن السلاح وحده بدون جنود قطع من الحديد لا يزيد على أى قطعة من الحديد الخام ، ولكن إذا تناولته سواعد الرجال أصبح فعالا قادرا على قهر العدو وإذلاله ولهذا لما نزل الزبير بن العوام – رضى الله عنه – فى معركة الخندق ، وضرب نوفل بن المغيرة وهو فى الخندق بسيفه فشقه نصفين ، وأثر

---

(١) سورة الأنفال : الآية ١٠

السيف فى كاهل الفرس فقال له الصحابة - رضوان الله عليهم - : ما أمضى سيفك يا أبا عبد الله !

فقال - رضى الله عنه - ليس هو السيف ، وإنما هو الساعد الذى يحمل السيف(1) .

نعم ، إن السيف إذا كان بيد جبان لا يستطيع أن يدفع به ذبابة ، وإذا كانت العصا فى يد شجاع طارد بها الجيش .

ومن هذا نفهم أن السلاح بدون سواعد لا قيمة له ، ولا شك أن هذه السواعد تحتاج إلى التدريب لتعرف كيف تستعمل هذا السلاح ، ومع التدريب لابد من الحيطة والحذر .

وهكذا يجب أن يكون المسلمون ، إعداد مستمر ، وتدريب لا يتوقف وحيطة وحذر ، وتأهب لا ينتهى ، فإذا جد الجد ، وحان وقت المعركة فعلى المسلمين الصبر والثبات ، وعدم الفرار ، لأن الفرار يوجب غضب الله ، ويستوجب صاحبه جهنم وبئس المصير .

قال - تعالى - : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾(2) .

د - واجبنا عند اللقاء :

نحن - المسلمين - منهيون عن تمنى لقاء العدو ، ولكن علينا أن نصبر إذا التقينا ، يقول ﷺ : « لا تتمنوا لقاء العدو ولكن إذا لقيتم فاثبتوا »(3) .

والقرآن الكريم رسم لنا خطة اللقاء ، وعلمنا كيف نواجه العدو فى قوله - تعالى - : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم

---

(1) السيرة الحلبية : 2/342 .
(2) سورة الأنفال : الآية 15 - 16 .

تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ، إن الله مع الصابرين ، ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط ﴾[1] .

هذه أمور يجب على المسلمين أن يتقيدوا بها ، ويلتزموها لأنها صادرة عن الله – عز وجل – وما كان كذلك لا يجوز التهاون فيه ، وهذه الأمور هى معالم النصر ، وسأتناولها بشىء من التوضيح فيما يأتى :

١ – الثبات : ﴿ فاثبتوا ﴾

والثبات شىء لابد منه لاكتساب النصر ، فلم يعرف التاريخ قط جيشا انتصر وهو فار من عدوه ، لأن الذين يفرون يطلبون بفرارهم النجاة ، ويتشبثون بالحياة ، وهؤلاء لا يعرفون طريق النصر لأن النصر لا يتأتى إلا للصامدين الثابتين .

وصفحات التاريخ مملوءة بالانتصارات التى أحرزتها الجيوش التى لم توهنها ويلات الحرب ، ولم تزعزها هجمات العدو .

والثبات يدل على قوة الإرادة التى يتمتع بها الجيش حتى ولو كان ضعيفا لأنه مادام ثابتا فهو فى نظر العدو قوى قادر على المواجهة ومهما كان الجيش قليل العدد فإن ثباته يضمن له النصر بإذن الله .

قال – تعالى – : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين ﴾[2] .

٢ – الإكثار من ذكر الله : ﴿ واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾

وذكر الله – تعالى – هو طب القلوب مما ابتليت به من فتن الدنيا ولأوائها ، وهو العروة الوثقى التى تشد قلب المؤمن وتربطه بالله – عز وجل – وكلما كان الإنسان ذاكرا لله – تعالى – كلما كان فى معية الله ، فيطمئن قلبه ،

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٤٥ – ٤٧ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٤٩ .

ويثبت فؤاده ، ويحس أنه فى كنف الله ، وعندئذ لا يخاف عدوا ، ولا يرهب خصما ، فيقاتل بشجاعة ، ويستبسل عند اللقاء ﴿ ألا بذكرِ الله تطمئن القلوب ﴾(١) .

إنه وهو يقاتل عدوه يكون على يقين من أن له إحدى الحسنيين فإن انتصر عاد بالأجر والغنيمة ، وإن استشهد فله جنة عرضها السموات والأرض .

٣ – طاعة الله ورسوله : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾

والطاعة هى الخضوع لأوامر الله ، واجتناب نواهيه ، والطاعة بهذا المعنى أقرب طريق إلى النصر ، لأن الله – عز وجل – لا يتخلى عن أوليائه ، ولا يسلمهم لأعدائه .

ولهذا كلما تأخر النصر على المسلمين فى معركة من المعارك يأمر القائد جنوده بالتوبة والاستغفار فعندئذ ينزل عليهم نصر الله ، حدث ذلك فى فتح المدائن كما حدث فى فتح الإسكندرية ، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يحذر الجيوش من الذنوب أكثر مما يحذرهم من العدو ، ويخوفهم من حب الدنيا والتعلق بها لأنه رأس كل خطيئة .

وكتب – رضى الله عنه – إلى عمرو بن العاص وهو يحاصر الإسكندرية .

أما بعد ، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر ، إنكم تقاتلونهم منذ سنتين ، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم وإن الله – تبارك وتعالى – لا ينصر قوما إلا بصدق نياتهم(٢) .

٤ – عدم التنازع والاختلاف : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾

التنازع شؤم يصطلى بناره كل من وقع فيه ، والاختلاف مهلكة ، وأكثر ما تصاب به الجيوش من الهزائم يكون بسبب التنازع والاختلاف ، والتنازع

---

(١) سورة الرعد : الآية ٢٨ .

(٢) الفاروق عمر : ١٣١/٢ .

يورث الوهن وضياع القوة ، فينكشف الجيش أمام عدوه ، فتذهب هيبته من نفسه ، فيجترىء عليه العدو فيهاجمه فى مقره ، ويباغته فى عقر داره .

ولهذا كتب عمر إلى عمرو بن العاص يقول له : ومر الناس جميعا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد(١) .

٥ – الصبر : ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾

والصبر أقوى للنفس على مواجهة العدو ، وأمضى سلاح ينتصر به الجيش ، وهو دليل على قوة الإرادة ، وزمام يسيطر به الإنسان على رغباته وشهواته ، وإذا سيطر الإنسان على رغباته وأهوائه كان أقدر على الانتصار على أعدائه ، ولهذا يقولون . ليس بين النصر والهزيمة إلا صبر ساعة .

وجاء النصر فى القرآن الكريم ، وفى الأحاديث الشريفة مقرونا بالصبر ، قال – تعالى – : ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾(٢) .

وقال – جل من قائل – : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾(٣) .

وقال – تبارك وتعالى – : ﴿ فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ﴾(٣) .

ويقول الرسول ﷺ : ﴿ واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا ﴾(٤) .

٦ – التواضع والإخلاص ونشر الدعوة : ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط ﴾

---

(١) الفاروق عمر : ١٣١/٢ .
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٢٥ .
(٣) سورة الأنفال : الآية ٦٥ – ٦٦ .

التواضع من الصفات المحبوبة لدى الناس جميعا ، والمتواضع عظيم فى أعين الناس ، وفوق ذلك فإن التواضع يجعل صاحبه يحس دائما بافتقاره إلى الله - عز وجل - فيلجأ إليه فى كل أحواله ، ويستنصر به على أعدائه .

والإخلاص هو تمحيص العمل لله - تبارك وتعالى - فلا يقصد به غيره ، ولا يتوجه به إلى سواه ، فيصبح بذلك خاليا من الرياء المحبط للعمل ، وإذا كان العمل خالصا لله ، وصاحبه متواضعا لله ، فإن ذلك يؤدى إلى رضوان الله ، ويرفع صاحبه درجات عند الناس ، فمن تواضع لله رفعه .

وليكن المقصود بالجهاد نشر الدعوة ، وإعلاء كلمة الله ، وتوضيح الحق لكل إنسان ، حتى يقبل الناس على الإسلام ، ويدخلوا فى دين الله أفواجا .

وهذه الصفات الثلاث تقرب صاحبها من الله ، وتجعله محلا لرحمته ، وموضعا لرضاه ، وهى كذلك من أهم عوامل النصر على الأعداء .

وقد حذر الله - عز وجل - المسلمين من الاتصاف بضد هذه الصفات حين قال - تعالى - : ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله ﴾[1] .

هذه الصفات التى وصف الله بها المشركين هى معاول الهدم فى صفوفهم فالكبرياء والرياء والصد عن سبيل الله هى التى أدت إلى هزيمة المشركين فى بدر ، ولهذا حذر الله منها المؤمنين حتى لا يكون مصيرهم كمصير المشركين .

ولهذا نرى الصورة المعاكسة لذلك تماما فى قوله - تعالى - : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾[1] .

فالآيات هنا تذكر المؤمنين بما يجب عليهم إذا نصرهم الله ، ورأوا الدعوة قد عم نورها ، وانتشرت بين الناس فدخلوا فى دين الله أفواجا .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٤٧ .

(١) سورة النصر .

فالواجب عليهم حينئذ ألا يطغوا ، ولا يتجبروا ، وليكن حالهم التواضع والإخلاص ، والتسبيح والاستغفار .

ولهذا لما فتح المسلمون مكة ، رؤى رسول الله ﷺ وهو داخل قد طأطأ رأسه حتى إن عثنونه ليكاد يمس عنق راحلته[1]

هكذا يجب أن يكون المسلمون عند لقاء العدو وبعد أن يتم الله عليهم نعمته بنصرهم على عدوه وعدوهم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المدينة المنورة فى
٢٥ جمادى الأولى سنة ١٤٠٥ هـ
١٥ فبراير سنة ١٩٨٥ م .



(١) إمتاع الأسماع : ٣٧٧ بشرح محمود شاكر .

ثبت المصادر والمراجع

مسلسل	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١ -	القرآن الكريم	
٢ -	صحيح البخارى	
٣ -	صحيح مسلم	
٤ -	سنن أبى داود	
٥ -	سنن الترمذى	
٦ -	سنن النسائى	
٧ -	مسند الإمام أحمد	
٨ -	معجم الطبرانى الكبير والأوسط والصغير	
	كتب أخرى	
٩ -	الكامل فى التاريخ	ابن الأثير
١٠ -	مختصر منهاج القاصدين	أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة
١١ -	فجر الإسلام	أحمد أمين
١٢ -	فتوح البلدان	للبلاذرى
١٣ -	تاريخ الأمم والملوك	ابن جرير الطبرى
١٤ -	تفسير الطبرى	ابن جرير الطبرى
١٥ -	الوفا بأحوال المصطفى.	لأبى الفرج بن الجوزى
١٦ -	مناقب عمر	لأبى الفرج بن الجوزى
١٧ -	البرهان فى أصول الفقه	للجوينى
١٨ -	الإصابة فى معرفة الصحابة	لابن حجر
١٩ -	فتح البارى شرح صحيح البخارى	لابن حجر
٢٠ -	ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين	لأبى الحسن الندوى
٢١ -	مقدمة ابن خلدون	لابن خلدون
٢٢ -	فى ظلال القرآن	سيد قطب

٢٣ - فتح القدير — للشوكانى

٢٤ - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب — لابن عبد البر

٢٥ - مختصر سيرة الرسول — عبد الله بن عبد الوهاب

٢٦ - سيرة ابن هشام — عبد الملك بن هشام

٢٧ - التبشير والاستعمار — عمر فروخ مصطفى الخالدى

٢٨ - أخبار عمر — على الطنطاوى وأخيه

٢٩ - رسالة الفروسية — لابن قيم الجوزية

٣٠ - زاد المعاد — لابن قيم الجوزية

٣١ - البداية والنهاية — لابن كثير

٣٢ - تفسير القرآن — لابن كثير

٣٣ - الرحيق المختوم — للماركفورى

٣٤ - التطور والثبات فى حياة البشرية — محمد قطب

٣٥ - المخططات الاستعمارية — محمد الصواف

٣٦ - تأملات فى سيرة الرسول — محمد الوكيل

٣٧ - الترويح فى المجتمع الإسلامى — محمد الوكيل

٣٨ - موسوعة المدينة المنورة — محمد الوكيل

٣٩ - هذا الدين بين جهل أبنائه وكيد أعدائه — محمد الوكيل

٤٠ - حياة محمد — محمد حسين هيكل

٤١ - الصديق أبو بكر — محمد حسين هيكل

٤٢ - الفاروق عمر — محمد حسين هيكل

٤٣ - إمتاع الأسماع — للمقريزى

٤٤ - الحجاب — للمودودى

٤٥ - الخراج — لأبى يوسف يعقوب بن إبراهيم

فهرس الجزء الثانى

الباب الثانى

الجنـديـة

الفصـل الأول

الفصـل الثانـى

الفصـل الثالـث

البـاب الثالـث

الفصـل الاول

الفصـل الثانـي

الفصـل الثالـث

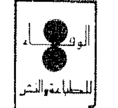
الخـاتمة

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٣٤٦ / ١٩٨٥
الترقيم الدولى ٩ ـ ٢٥ ـ ١٤٢٠ ـ ٩٧٧

مطابع الوفاء ـ المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN

كتب أخرى للمؤلف

- كبرى الحركات الإسلامية فى القرن الرابع عشر الهجرى .
- هذا الدين بين جهل أبنائه وكيد أعدائه .
- الترويح فى المجتمع المسلم .
- أسس الدعوة وآداب الدعاة .
- جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين .
- تأملات فى السيرة النبوية .
- المستشرقون والإسلام .
- لمحات من تاريخ الدعوة .
- قواعد البناء فى المجتمع الإسلامى .
- الحج الميسر .
- موسوعة المدينة المنورة التاريخية . ٣ أجزاء
- عناية الإسلام بتخطيط المدن وعمارتها .



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ت : ٣٤٢٧٢١/ ٣٥٦٢٢٠/ ٣٥٦٢٣٠

فرع المنصورة : أمام كلية الطب ت : ٣٤٧٤٢٣ ...... ص . ب ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

فرع القاهرة : ٤١ ش . ش بف ت : ٧٤١٩٩٧ / ٧٥٤٦٠٦